كلّيّة الآداب
دائِرَة اللغة العربيّة وآدابها

رِسالة ماجِستير
تمثيلات المخيّم في الرّواية الفلسطينيّة بعد أوسلو

The representations of the camp in the Palestinian novels Post Oslo Accord

إعْداد الطّالبة: مروة خالد السيوري
(1155303)

إشراف الدّكتور: موسى خوري

قدّمت هذهِ الرّسالة اسْتِكمالًا لمتطلّبات درجة الماجِستير
في برنامَجِ اللغة العربيّة وآدابها

كُلّيّة الآداب في جامِعة بير زيت – فلسطين.
2020م

كُلّيّة الآداب – الدّراسات العليا

برنامج ماجستير اللغة العربيّة وآدابها

تمثيلات المخيّم في الرّواية الفلسطينيّة بعد أوسلو

The representations of the camp in the Palestinian novels Post Oslo Accord

رسالة ماجستير مقدّمة من الطّالبة:

مروة خالد السيوري

إشراف الدّكتور: موسى خوري

تاريخ المناقشة: 19.12.2020

أعضاء لجنة النقاش

د. موسى خوري (رئيسا) .....

د. إبراهيم أبو هشهش (عضوا) .....

د. علي خواجة (عضوا) .....

قدّمت هذهِ الرّسالة اسْتِكمالًا لمتطلّبات درجة الماجِستير في برنامَجِ اللغة العربيّة وآدابها من كُلّيّة الآداب في جامِعة بير زيت – فلسطين.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات ..... أ
الإهداء ..... د
شُكر وامتنان ..... ه
مُلَخّص ..... و
Abstract ..... ط
الفَصْلُ الأوّل: الإطارُ النّظريّ 1
المُقَدِّمَةُ 2
مُشْكِلَةُ الدّراسَةِ 4
أسْئِلَةُ الدّراسَةِ 5
مَنْهَجُ الدّراسَةِ 6
أهَمِيَّةُ الدّراسَةِ 7
الدِّراساتُ السّابِقَةُ 8
الفَصْلُ الثّاني: فَضاءات الرّواية الفلسطينيّة 12
الفَضاءُ الرّوائيّ ... دِفْءُ المَكانِ وصَقيعُه 14
القريَةُ ... الفَضاءُ المَكانيُّ الأوّل. 16
المدينةُ ... الفَضاءُ المَكانيُّ المُتَناقِض. 18
المُخَيّم الفِلَسْطينيّ، نَشْأةً 20
المُخَيّم ... الفَضاءُ المَكانيُّ الطّارئُ. 22
الفَصْلُ الثّالِثُ: المُخَيَّمُ في نَماذِجِ رِوايَةِ قَبْلَ أوسلو 26
أوسلو، الحرب خِدعة 28
المُخَيَّمُ في الرّواية الفلسطينيّة قبل أوسلو: حَيِّزُ الوُجودِ الطّارِئ 30
مُخَيَّمُ أمِّ سَعد 30
وصفٌ عامّ لمخيّم أم سَعد 30
وكالة الغوث "الأونروا" في مخيّم أمّ سعد 32
المُقاوَمَة في مخيّم أمّ سعد 32
مخيّم أمّ سعد سُلطة عُليا 36
العَمالة في مُخيّم أمّ سعد 36
مخَيّم أمّ سعد والمَدينة 37
البُطولَة في مُخَيّم أمّ سعد 38
المرأة في مُخَيّم أمّ سعد 40

كَيْفَ خُتِمَت روايَة أمّ سعد؟ 41
مُخَيّمُ العُشّاق 42
وَصْفٌ عامٌّ لمخيّم العُشّاق 42
وكالة الغوث "الأونروا" في مخيّم العُشّاق 44
العمالة في مُخَيّم العُشّاق 45
المقاوَمةُ في مُخَيّم العُشّاق 47
المرأة في مُخَيّمِ العُشّاق 53
كيف خُتمت رِواية العُشّاق؟ 55
مُخَيّمُ الطّوقِ 56
وَصف عامٌّ لمخيّم الطّوق 56
وكالة الغَوث "الأونروا" في مُخَيّمِ الطّوق 57
العَمالَة في مُخَيّم الطّوق 58
المُقاوَمة في مخيّم الطّوق 59
المَرْأة في مُخَيّم الطّوق 62
كيفَ خُتِمت رواية الطّوق؟ 65
مُخَيّمُ تُفّاحِ المَجانين 66
وكالَة الغَوث "الأونروا" في مُخَيّم تُفّاح المجانين 68
العَمالة في مُخَيّم تُفّاح المّجانين 69
المُقاوَمة في مُخَيّمِ تُفّاح المَجانين 70
المَرْأة في مُخَيّمِ تُفّاح المَجانين 72
كَيْفَ خُتِمَت رِوايَة تُفّاحِ المَجانين؟ 73
عَلاماتٌ فارِقَةٌ لِتمثيلات المُخَيَّمِ قَبْلَ أوسلو 74
الفَصْلُ الرّابِع: المُخَيّمُ الفِلَسطينيّ في نَماذِجِ رِوايَةِ بَعْدَ أوسلو 77
تَمْهيد 79
المُخَيّمُ في الرّواية الفلسطينيّة بعد أوسلو: حيّز بديل للوطن. 82
مُخَيّمُ ماءِ السّماءِ 82
وَصْفٌ عامٌّ لمخيّم ماء السّماء 83
المُؤسسات الأجنبيّة في مُخَيّم ماء السّماء 84
الهُموم الاجتماعيّة في مُخَيّم ماء السّماء 86
الرّجل في مُخيّم ماء السّماء 90
المَرْأةِ في مُخَيّم ماء السّماء 94
كَيْفَ خُتِمَت رِوايَة ماء السّماء؟ 96

مُخَيّمُ حَليبِ التّينِ 97
وَصْفٌ عامٌّ لِمُخَيّمِ حَليب التّين 98
الهُموم الاجتماعيّة في مُخَيّم حليب التّين 99
الرّجل في مُخَيّم حليب التّين 100
المَرْأةِ في مُخَيّم حليب التّين 103
كَيْفَ خُتِمَت رِوايةُ حَليبِ التّينِ؟ 105
مُخَيّم حَياة مُعَلّقة 107
وَصْفٌ عامٌّ لمخيّم حياة مُعلّقة 108
مفهوم البُطولة في مُخيّم حياة مُعَلّقة 108
الرّجل في مُخَيّم حياة مُعَلّقة 111
المَرْأة في مُخَيّم حياة مُعَلّقة 114
الهموم الاجتماعيّة في مُخَيّم حياة مُعَلّقة 116
كَيْفَ خُتِمَت رِواية حَياة مُعَلّقة؟ 116
مُخَيّم مُخْمل 117
وَصْفٌ عامٌّ لمخيّم مُخمل 117
المَرْأة في مُخَيّم مُخمل 119
الرّجل في مُخَيّم مُخمل 125
كَيْفَ خُتِمَت رِوايةُ مُخْمَل؟ 128
عَلاماتٌ فارِقَةٌ لِتمثيلات المُخَيَّمِ بعد أوسلو 129
الخاتِمَة 134
قائِمَةُ المَصادِرِ والمراجِعِ 136
ملحق (1) مسرد تاريخي للرّواية الفلسطينيّة ما بين عامَيّ 1948 – 1967. رواية الشّتات 145
ملحق (2) مسرد تاريخي للرّواية الفلسطينيّة ما بين عامَيّ 1967 – 1993. رواية الشّتات 148
مُلحق (3) وصْفٌ عام لمخيّمات عيّنة الدّراسَة 159

الإهداء

في المرتبة الأولى، فوق كُلّ الأشياء، وأوّل الأسماء، ومنتهى الامتنان، إليهما:

"خالِد وحنان"

والِداي اللذان يغمراني بذروة الحبّ والفخر، ما أنا عليهِ أنتُما سَببه.

إلى الصّاحب الحاني في سفر الحياة، إلى دِفْئي في صَقيع العمر **"مجدي"**.

إلى إخوتي، سند الحياة الأعظم، أخصّ بالذّكر نسمة الحياة الرّقيقة **"هيا"**.

إلى الصّديقة الصّدوقة الدّاعمة مددا، الّتي ما تنفكّ تحثّني على الصّعود **"شدى"**.

إلى مِسْكِ هذا العمر العصيب الّذي ما انحسر يومًا، إلى الاتّساع لحظة الضّيق، رفيقة التّفاصيل الحقيقيّة، الصّديقة **"آية"** إهداء وامتنانًا لكلّ وقفة ومساندة.

إلى **طالباتي وطُلّابي** رأسُ مالي في هذه الدّنيا.

إلى **أبناء المخيّمات**، مرويتنا الكُبرى في سواد هذا التّاريخ.

أخيرا: إلى ابنة عمّي الثّلاثينيّة **"أحلام"**، لن يكون الموتُ حائلا بيننا وبين ذكراك، إلى نهاية أعمارنا ستبقين أجمل صبايا العائلة، ستبقين الوجع الّذي يحزّ أرواحنا، ستبقين طيفا يطرق أيامنا بخفّة وبهاء.

شُكر وامتنان

أحمد الله سُبحانه وتعالى أنّني – وبفضلِهِ – وصلت إلى هذه اللحظة؛ الّتي أختتم بها كتابة رسالتي الماجستير، مدركة أنّ الوصول لها لم يكن هيّنا، لكن اللحظة آنت أخيرا، فالحمد لله على إتيانها بوافر الشّغف والثّقة بالاستمرار.

من هذا الشّغف، وذاك الأمل الّذي لا ولن يُنتزع من روحي، أقدّم أوّل الشّكر وثمرته لمُستحِقّه العزيز د. موسى خوري على المتابعة الدّائِمة، والدّعم الأكاديميّ والتّفسيّ المستمرّين، يليه شُكر عظيم لكُلّ مُحاضِر ترك أثرًا في نفسي وزادَ من معرفتي، أساتِذتي في جامعة بير زيت العتيدة أخصّ بالذّكر لجنة النّقاش د. إبراهيم أبو هشهش ود. علي الخواجة، كما وأقدّم شكري لأساتذتي في جامعة القدس الحبيبة، ممتنة لهم أجمعين، فلولا الأساس المتقن ما ارتفع البنيان شامخا.

لا يكفي العائِلة أن أهديها ذروة النّجاح، بل واجبي شكرهم في كلّ لحظة وفي كلّ خطوة، فشكرا من عمق قلبي لعائِلتيّ الحبيبتين "السيوري" و "عتيق"، أضيف إلى العائِلتين عائِلة الصّحب والرّفق واللين، الصّديقة الحبيبة "ديانا"، شُكرا على الثّقة الدّائمة، والتّحفيز المُستمر، واللطف اللامتناهي، شكرا لكلّ الدّعوات الصّادِقة، شكرا لأنكم لم تمنحوني مساحة للحلم يوما، وإنّما أطلقتم لي العنان صوب أحلامي بلا قيد مساحة أو مسافة.

محظوظة أنا، فبالإضافة إلى من سبق ذكرهم في الدّعم والمؤازرة، أقدّم جلّ امتناني لرفاقي الأحبّاء الّذين قدّموا لي الدّعم النّفسيّ، ولم يبخلوا عليّ يومًا في الإحاطةَ محبّة وعطاءً، وسعوا جاهدين لتأمين أيّ كتاب أو بحث أحتاجه، فشكرا لكم أصدقائي على كثرتكم ومكانتكم، لكن لا بدّ من تخصيص عرفاني للأحبّة:

"آيات، أماني، حنان الدّبوانيّة، محمّد، مروان، مصعب"

مُلَخّص

انعَكس الواقع الفلسطينيّ المَعيش مُنذ النكبة عامِ 1948 على النّتاج الأدبيّ الشّعريّ والنّثريّ، فقد سار الأدباء الفلسطينيّون بأعمالهم الأدبيّة جنبا إلى جنب مع مسار الحياة الفلسطينيّة السّياسية، وواكبوا التّقلّبات والمنعطفات الّتي اعترضت تاريخ القضيّة، وبهذا النّتاج الأدبيّ وثّق الأدباء الحياة الفلسطينيّة، ونقلوا واقع الشّعب المتقلّب سياسيّا ووطنيّا باستمرار، منذ النّكبة وحتّى يومنا هذا.

وطالما كان المخيّم الفلسطينيّ رمزًا لهذا الكفاح وهذه الثّورة؛ لذلك أولى الأدباء الفلسطينيّون اهتماما زائِدا به، ونقلوا تفاصيله وتقلّباته الثّورية والاجتماعيّة إلى العالم من خلال النّتاج الأدبيّ الخاصّ بهم، فقد كان هذا النّتاج الأدبيّ وثيقة تاريخيّة وطنيّة إنسانيّة تصوّر واقع الفلسطينيّ المهجّر.

أدرك الأدباء الفلسطينيّون في مرحلة ما حدّدتها الدّراسة ببدايات التّسعينيات، أنّ المخيّم الفلسطينيّ ليس محطّ ثورة وطنية فحسب، بل ثورة اجتماعيّة أخلاقيّة إنسانيّة، لذلك عنوا بطرحه في آدابهم بصورة مغايرة عمّا قبل بداية التّسعينيات أو قبل اتّفاق أوسلو، فلم يعد تركيز الأدباء على المخيّم كونه شعلة الثّورة الأولى الّتي تمتدّ لتحرير فلسطين، بل هو ثورة اجتماعيّة تنظر الدّراسة إلى أفراده مجرّدين من السّلاح، بكامل إنسانيّتهم وغرائزهم.

لأجل القيمة الوطنيّة والمعنويّة الّتي يحملها الفلسطينيّ للمخيّم، فقد عُنيت هذه الدّراسة بتمثيلات المخيّم في الرّواية الفلسطينيّة بعد اتّفاق أوسلو، ولكي نصل إلى هذه التّمثيلات بشكل موضوعيّ، كان لا بدّ من مقارنتها بتمثيلات ما قبل أوسلو، من خلال عيّنة دراسة تشمل المرحلتين.

تهدف هذه الدّراسة الموسومة بِـ (تمثيلات المخيّم في الرّواية الفلسطينيّة بعد أوسلو) لكشف تمثيلات المخيّم في عيّنة الدّراسة، الّتي هي: (أم سعد لغسّان كنفاني1969، العشّاق لرشاد أبو شاور1977، الطّوق لغريب عسقلاني1977، تفّاح المجانين 1983 وماء السّماء2008 ليحيى يخلف، حليب التّين لسامية العيسى 2010،

حياة معلّقة لعاطف أبو سيف 2015، مخمل لحزامة حبايب 2016)، وأثر هذه التّمثيلات في تحديد العلامات الفارقة للمخيّم الفلسطينيّ قبل اتّفاق أوسلو وبعده.

وتتمثّل أهميّة الدّراسة في سعيها إلى تبيان العلامات الفارقة للمخيّم قبل اتّفاق أوسلو وبعده، من خلال تحليل عيّنة الدّراسة الخاصّة بتلك المرحلة، كون المخيّم بيئة أحداثها الأساسيّة؛ وذلك بمنهج وصفيّ تحليليّ، متناولة في فصلها الأوّل الإطار النّظريّ، الّذي اشتمل على المقدّمة ومشكلة الدّراسة وأسئِلتها ومنهجها وأهميّتها والدّراسات السابقة الّتي تتقاطع معها.

وفي الفصل الثّاني تعرّضت الدّراسة لفضاءات الرّواية الثّلاثة، القرية والمدينة والمخيّم، مع التّمثيل بالنّزر اليسير على هذه الفضاءات من روايات فلسطينيّة، وعند الحديث عن فضاء المخيّم وُضّحت نشأة المخيّم الفلسطينيّ عام 1948، مع إيراد إحصاءات حول أعداد اللاجئين في المخيّمات الفلسطينيّة داخل فلسطين وفي أقطار الوطن العربيّ.

تناول الفصل الثّالث المخيّم في نماذج ما قبل أوسلو، بتمهيد نظريّ حول اتّفاق أوسلو، ومن ثمّ وصف وتحليل المخيّم في روايات ما قبل أوسلو: (أم سعد، العشّاق، الطّوق، تفّاح المجانين) من خلال وصف بيئة المخيّم ودراسة الشّخصيّات تحديدا البطولة فيها وأدوار المرأة، وتتبّع العمل الوطنيّ والعمالة ووكالة غوث اللاجئين، وأثر كُلّ منها على طبيعة تشكّل المخيّم، ومن ثمّ التّركيز على الخاتمة الّذي انتهت به كلّ رواية من روايات العيّنة ومغزاها، واختتم الفصل باستنتاج العلامات الفارقة لتمثيلات المخيّم قبل أوسلو، الّتي كانَ من أهمّها: اعتماد روايات ما قبل أوسلو على نمط واحد من البطولة وهو البطل المنتصِر المخلّص، انهزام العملاء على أيدي المقاومين، الأمل الدّائِم بالعودة والتّحرير.

تعرّضت الدّراسة في الفصل الرّابع إلى تحليل عيّنة دراسة ما بعد أوسلو: (ماء السّماء، حليب التّين، حياة معلّقة، مخمل)، وجاء التّحليل موازيا لعيّنة دراسة ما قبل أوسلو مع تسليط الضوء على تمثيلات استحدثت بعد أوسلو؛ وذلك من خلال تتبّع الشّخصيّات وأدوار المرأة والعمل الوطنيّ والهموم الاجتماعيّة

والأخلاقيّة الّتي رافقت أفراد المخيّمات وساهمت في تشكيل صورته، وتسليط الضّوء على خاتمة الرّوايات الّتي اختلفت عن عيّنة المرحلة السّابقة، وبعد هذا التّحليل استنتجت الدّراسة العلامات الفارِقة لتمثيلات المخيّم في الرّواية الفلسطينيّة بعد أوسلو، والّتي كان من أهمّها: غياب البطل المركزيّ عن المشهد، وتعدد أنماط البطولة، والانسحاب من الهمّ الفلسطينيّ العامّ إلى الهموم الاجتماعية الخاصّة.

وتوصّلت الدّراسة إلى نتائِج عديدة، أهمها:

1. اعتمدت روايات ما قبل أوسلو على نمط واحد من أنماط البطولة وهو البطل المخلّص المنتصِر، بينما تعدّدت أنماط البطولة وغاب البطل المركزيّ عن المشهد في روايات ما بعد أوسلو، وعُوّض عنه بمجموعة شخصيّات مركزيّة نازعته البطولة.

2. سيطر الهمّ الفلسطينيّ والأمل بالعودة والتّحرير والعمل لأجلها على مخيّمات عيّنة ما قبل أوسلو، بينما انسحب الفلسطينيّون من الهمّ الفلسطينيّ العام إلى همومهم الاجتماعيّة في مخيّمات عيّنة ما بعد أوسلو.

Abstract

Since the 1948 Nakba, The Palestinian reality has been reflected in the poetic and prose literary works. The Palestinian writers went along with the Palestinian political life course, and kept pace with the instabilities and turns in the history of the Palestinian issue. Through these literary works, Palestinian writers documented Palestinian life and conveyed the politically and nationally volatile reality of the Palestinian people from the Nakba to the present day.

The Palestinian camps have long been symbols of Palestinian struggle and revolution. Therefore, Palestinian writers have paid more attention to this struggle and conveyed its revolutionary and social intricacies to the world through their literary works, which documented and depicted the national, humanitarian, historical reality of the Palestinian diaspora.

At some point (as early as the 1990s), Palestinian writers realized that the Palestinian camp was not only a center of the national struggle, but also a center of a social, moral, and human revolution. Therefore, they depicted it in their novels in a way different from the beginning of the 1990s or before the Oslo Accords. The camp was no longer the writers' focus as the first torch of the revolution for the liberation of Palestine. Rather, it has become the hub of a social revolution. They believed that we needed to consider its disarmed residents with their full humanity and instincts. The camp was a human being in the first place.

The Palestinians held a great national and moral value in the camp, this study thus addressed the representations of the camp in the Palestinian novels after the Oslo Accords. To achieve examine representations in an informed, academic manner, post-Oslo representations were compared with pre-Oslo representations through a two-stage study sample.

This study entitled *The representations of the Camp in the Palestinian Novels after Oslo* aimed to detect the representations of the camp in the study sample (Um Saad - Ghassan Kanafani 1969, Lovers - Rashad Abu Shawar 1977, Al-Tuq (Ring) - Ghareeb Asqalani 1977, Tuffah Al-Majanin (Fools' apples) 1983 and Ma' Al Sama 'Sky Water' 2008 - Yahya Yakhlif, Milk of Figs - Samia Issa

2010, A Suspended Life - Atef Abu Saif 2015, Mukhmal (Velvet) - Huzama Habayeb 2016). It also explored the effect of these representations on defining the distinctive features of the Palestinian camp before and after the Oslo Accords.

The present study is important because it endeavored to identify the distinctive features of the camp and to highlight the status of the post-Oslo camp in minority literature through analyzing the post-Oslo study sample. The study used the analytical, descriptive approach. Chapter I dealt with the conceptual framework, including the introduction, the problem of the study, the study questions, the methodology of the study, the importance of the study, and related literature.

Chapter II explored the three spaces of the Palestinian novel (village, city, and camp) with few examples from some Palestinian novels. In regard of the camp space, the chapter explained the establishment of the Palestinian camps in 1948, along with statistics on the number of refugees in Palestinian camps inside Palestine and the Arab countries.

Chapter III addressed the pre-Oslo camp, introduction to the Oslo Accords, description and analysis of the pre-Oslo camp novels (Um Saad, Lovers, Al-Tuq, Tuffah Al-Majanin). The chapter also dealt with the camp environment, characters, heroism, women's roles, national action, collaborators, the UNRAWA agency, and their impact on the nature of the camp. Additionally, the chapter explored the denouement of each novel in the study sample. Finally, the chapter outlined the distinctive features of the representations of the pre-Oslo camp: there was only one type of the protagonist: the victorious and redeemer, the defeat of collaborators by the fighters, and the everlasting hope of return and liberation.

Chapter IV addressed the analysis of the post-Oslo study sample/novels (Ma' Al Sama ‘Sky Water’, Milk of Figs, A Suspended Life, and Velvet). This analysis was in line with the analysis of the pre-Oslo study sample, highlighting the representations developed after the Oslo Accords. It also explored the camp’s characters, women's roles, national action, and social and ethical concerns that have contributed to the shaping of the structure of the camp. Finally, it tackled the denouement in each novel in the post-Oslo era and how they were different from

the novels from the pre-Oslo era. Based on this analysis, the study construed the distinctive features of the camp's representations in the post-Oslo Palestinian novels, including the absence of the central hero from the main scene, numerous forms of protagonists, and Palestinian's withdrawal from general concern to his personal concerns.

The study reached a set of important results, including:

1. There was one style of protagonists in the pre-Oslo novels, i.e., the victorious and the redeemer. However, there were numerous hero styles and the central hero was absent in the post-Oslo novels, in which the central hero was replaced with a group of influential figures.

2. In the pre-Oslo camp novels, Palestinians were very concerned with their hope for return, liberation, heroism, and national action. However, the Palestinians withdrew from their general concern to their personal concerns in the post-Oslo camp novels.

الفَصْلُ الأوّل: الإطارُ النّظريّ

- مُقَدّمة
- مُشْكِلة الدّراسَةِ
- أسْئِلَةُ الدّراسَةِ
- مَنْهَجُ الدّراسَةِ
- أهميّةُ الدّراسَةِ
- الدّراساتُ السّابِقَةُ

المُقَدِّمَةُ

تعددت أمكنة الرّواية بشكل عامّ؛ فنجد المدينة والقرية والشّارع والسّجن والمستشفى وغيرها، بيئات حاضِنة لشخصيّات الرّواية وأحداثها، وعنصرًا هامًّا في تشكيل البناء الرّوائيّ، وعادَة ما يرتبط المكان بالحالة السّياسيّة والاجتماعيّة الخاصّة بمجتمع الرّواية، ومن التّقلّبات السّياسيّة الوطنيّة على الصّعيد الفلسطينيّ تخلّق حيّز مكانيّ طارِئ في الرّواية الفلسطينيّة، وهو المخيّم، النّتاج المكانيّ للنّكبة عام 1948، الّذي تبعته نواتج سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة ونفسيّة. فالمخيّم في الرّواية الفلسطينيّة لا يقتصر على حدوده الجغرافيّة والإقليميّة؛ بل صار حالة استثنائِية ووعاء معرفيًا يستوعب ذوات أبنائِه وأفكارهم وطموحاتهم وخيباتهم، ويبرز التّغيّرات الوطنيّة والاجتماعيّة الّتي شكّلتها حياة المخيّم وظروف المعيشة فيه.

بات المخيّم الفلسطينيّ بوصَلة اتّجه صوبها الأدباء الفلسطينيّون على نحو لافت، وصار حضوره جليًا في الرّوايات الفلسطينيّة سواء للأدباء المقيمين على أرض الوطن أم أولئِك الّذين هجّرتهم الظّروف السّياسيّة أو القرارات الشّخصيّة، وكان هذا الحضور عاملًا أساسيًا في إبراز هويّة الفلسطينيّ المهجّر وعمق علاقته بالوطن مهما طال تشرده عنه، والحنين الدّائم إليه والمناداة المستمرة للعودة وتحرير الوطن بشتى الطّرق، كلّ ذلك بالرّغم من الحالة الاجتماعيّة والنّفسيّة المزريتين اللتين وصل وما زال يصل إليهما أبناء المخيّمات.

تناولت هذه الدّراسة المخيّم الفلسطينيّ في ثماني روايات، أربع منها صدرت قبل عقد اتّفاق أوسلو، وأربع أخرى بعد عقد الاتّفاق، وهي حسب سنة الإصدار: (أم سعد لغسّان كنفاني1969، العشّاق لرشاد أبو شاور1977، الطّوق لغريب عسقلاني1977، تفّاح المجانين 1983 وماء السّماء2008 ليحيى يخلف، حليب التّين لسامية العيسى 2010، حياة معلّقة لعاطف أبو سيف 2015، محمل لحزامة حبايب 2016)، مع تنوّع الدّول الّتي أقيم فيها المخيّم؛ ففي روايات ما قبل أوسلو طرحت روايات مخيّمها في فلسطين وأخرى في الأردن وثالثة في لبنان، وبعد أوسلو كذلك الأمر.

ومن هذا التّنوّع والتّعداد للرّوايات تتبّعت الدّراسة تمثيلات المخيّم الفلسطينيّ قبل الاتّفاق وبعده، بمنهج وصفيّ تحليليّ؛ من خلال تحليل مضمونيّ للرّوايات الثّمانيَة بوصف وتتبّع تمثيلات المخيّم ووضع العلامات الفارقة لهذه التّمثيلات في روايات ما قبل أوسلو وما بعدها؛ وذلك بتسليط الضّوء على مضامين أساسيّة برزت في المخيّمات

الفلسطينيّة، منها: البطولة وصورة الفدائيّ، العمالة، أدوار المرأة وتنوّعها، خواتيم الرّوايات، وغير ذلك، ومن تحليل هذه المضامين استنتجت العلامات الفارِقة لتمثيلات المخيّم في روايات ما قبل أوسلو وما بعدها.

مُشْكِلَةُ الدّراسَةِ

تبحث هذه الدّراسة في العلامات الفارِقَةُ لتمثيلات المخيّم الفلسطينيّ في ثماني روايات بيئتها المخيّم الفلسطينيّ، صدرت ما قبل اتفاق أوسلو وما بعده؛ من خلالِ المقارَنَة بين روايات عيّنة الدّراسة، إذ إنّ معظم الدّراسات الّتي توصّلت إليها -في حدود علمي ومقدرتي- وصفت المخيّم الفلسطينيّ كبيئة طارِئَة أو التَزمت بعمليّة مسح أدبيّ أو عالَجت البُطولة في روايات فلسطينيّة قدْ يكون المخيّم بيئتها وقد لا يكون، دون العمل على مقارَنات على محكّ سياسيّ تاريخيّ كأوسلو، ودراسات أخرى تطرّقت إلى سمات الأدب الفلسطينيّ بشكل عام بعد أوسلو، لكنّ هذه الدّراسة تخصصت في بيئة المخيّم وعلاماته الفارِقة من خلال تحليل مضمونيّ للرّوايات الثّمانية.

أَسْئِلَةُ الدّراسَةِ

تناقش هذه الدّراسة مجموعة من الأسئِلة الّتي تهدف إلى تحديد العلامات الفارقة لتمثيلات المخيّم الفلسطينيّ قبل اتّفاق أوسلو وبعده، من خلال عملية وصف وتحليل عيّنة الدّراسة الرّوائيّة، وعلّ أهمّ التّساؤلات الّتي تساهم في التّوصل إلى استنتاجات الدّراسة هي:

- كيفَ طرحَت رِوايات ما قَبل أوسلو البَطَل الثّوريّ؟
- ما الملامح الّتي اكتسبتها الشّخصيات الذّكوريّة والأنثويّة قبل أوسلو؟
- بم امتازت نهايات روايات ما قبل أوسلو؟
- كيف طَغت الهموم الاجتماعيّة على بيئة المخيّم بعد أوسلو؟
- كيفَ دَفع المخيّم ثمن الانهيارات السّياسيّة اجتماعيّا وأخلاقيّا بعد أوسلو؟
- ما الأدوار الأنثويّة الجديدة الّتي مثّلتها المرأة بعد أوسلو؟
- ما التّغيير الّذي طَرأ على النّهايات الرّوائيّة بعد أوسلو تبعا لعيّنة الدّراسة؟
- ما العَلاماتُ الفارِقَة لتمثيلات المخيّمِ في روايات ما قبل أوسلو وما بعده؟

مَنْهَجُ الدّراسَةِ

اعتمدت الدّراسة على المنهج الوصفيّ التّحليليّ للوصول إلى الاستنتاجات النّهائِيّة؛ إذ استقرئت الرّوايات بالوصف والتحليل، وبحث البنية المضمونيّة للرّوايات الثّمانية والوقوف على تمثيلات المخيّم في كُلّ رواية من روايات البحث، وبناء على هذه المنهجيّة قسّمت الدّراسة إلى الفصول الآتية:

- الفَصْلُ الأوّل، وهو الإطارُ التظريّ العامّ للدّراسَةِ وقد احتوى المُقدّمة ومُشْكِلَة الدّراسَةِ وأسئِلتها والمنهجَ المُتّبع والأهميّة والدّراسات السّابِقة.

- الفَصْل الثّاني، تطرقت الدّراسة فيه لفضاءات الرّواية الفِلَسْطينيّة (القرية والمدينة والمخيّم)، مع تسليط الضّوء على نشأة المخيّم الفلسطينيّ عام 1984 وأعداد اللاجئين الفلسطينيّن في مخيّمات فلسطين وخارجها.

- الفَصْل الثّالث، بعْدَ التّمهيد بالحديث عن اتّفاق أوسلو سياسيّا انتقلت الدّراسة إلى وصف عيّنة روايات ما قبل أوسلو وتحليلها وهي: (أم سعد لغسّان كنفاني، العُشّاق لرشاد أبو شاور، الطّوق لغريب العسقلانيّ، تفّاح المجانين ليحيى يَخلف)، واختتمت الدّراسة باستنتاج العلامات الفارِقَة لتمثيلات المخيّم في عيّنة روايات ما قبل أوسلو.

- الفَصل الرّابع: ممدت الدّراسة له بالحديث عن أهمّ الأحداث السّياسيّة الّتي وَقَعَت بعد أوسلو، ثمّ الانتقال إلى وصف وتحليل عيّنة الدّراسة لروايات ما بعد أوسلو وهي: (ماء السّماء ليحيى يخلف، حليب التّين لسامية عيسى، حياة معلّقة لعاطف أبو سيف، مخمل لحزامة حبايب)، انتقالا إلى استنتاج العلامات الفارِقة لتمثيلات المخيّم في عيّنة روايات ما بعد أوسلو.

أهمّيّةُ الدّراسَةِ

تَكمن أهميّة الدّراسَة في إبرازِها تمثيلات المخيّم الفلسطينيّ في روايات فلسطينيّة ما قبل اتفاق أوسلو وما بعده، من خلال تفصيلاته المكانيّة والإنسيّة، عاملة على المقارَنة بين الفترتين، وُصولًا إلى العلامات الفارِقَة لتمثيلات المخيّم الفلسطينيّ في كُلّ فترة، وقد أتت هذه الدّراسة كإضافة بحثيّة ودراسة مقارَنة متعلّقة بتمثيلات المخيّم بين ما قبل أوسلو وما بعده، إذ اعتمدت معظم الدّراسات على عمليّة المسح الأدبيّ الّتي لا تتعارَض مع هذه الدّراسة بل تتقاطَع في تفاصيل معيّنة وتفترق في أخرى، قامت هذه الدّراسة بإضافتها وتسليط الضّوء عليها؛ إذ إنّ ركيزة هذه الدّراسة ليست المسح الأدبيّ وإنّما دراسة تمثيلات المخيّم في الفترتين المطروحتين والوصول إلى العلامات الفارِقة بينهما، من خلال تحليل مضمونيّ لعيّنة الدّراسة.

الدّراساتُ السّابِقَةُ

تلاقت الدّراسات السّابقة مع هذه الدّراسة بشكل عامّ، كأن يكون محورها البطولة في رواية ما أو المكان في رواية أخرى أو المرأة في ثالثة، ومن الأمثلة على **الدّراسات السّابقة**، ما يأتي:

1. المخيّم في الرّواية الفلسطينيّة، للباحث بشّار إبراهيم، وقد صدر عن وزارة الثّقافة السّوريّة، وفيها تناول الباحث صورة المخيّم الفلسطينيّ من خلال سِتّ وثلاثين رواية فلسطينيّة صدرت منذ خمسينيات القرن العشرين حتّى أواخره، مظهرا فيها النّظرة إلى المخيّم في الواقع الفلسطينيّ منذ ظهوره إثر النّكبة، وآليات نشوء المخيّم في الواقع، وأبرز سماته، وإحصاءات حول السّكان الفلسطينيّين فيه، الأمر الّذي شكّل صورة ماديّة واقعيّة عن هذا الموضوع على الأرض قبل دراسته في الرّوايات، وقد شملت دراسته مخيّمات عديدة، وبهذه الدّراسة أجاب الباحث عن تساؤلات حول حضور المخيّم الفلسطينيّ في الرّواية الفلسطينيّة، وكيف بدا هذا الحضور، دون الإسهاب في تفاصيل البنية الرّوائيّة، فالموضوع الأساس لديه هو ظهور المخيّم في الرّواية دون الولوج في الكيفيّة الفنيّة لذلك.

2. الرّواية الفلسطينيّة في الضّفّة وقطاع غزّة 1967 – 1993 للباحث يوسف محمّد ذياب الشحادة، قدّمت هذه الدّراسة استكمالا لمتطلّبات درجة الماجستير في اللغة العربيّة بكلّيّة الدّراسات العليا في جامعة النّجاح الوطنيّة في نابلس – فلسطين سنة 2000، وفيها تناول الباحث الرّواية الفلسطينيّة في الفترة المذكورة، مشيرا إلى ما اعترى الرّواية من اضطراب وغياب عن السّاحة الأدبيّة في الضّفّة وغزة ما بين عامي 1967 و 1974، إضافة إلى استنتاجه أنّ الرّواية الفلسطينيّة في الضّفّة وغزّة سجّلت تراجعا فنّيّا واضحا بسبب النّقد الانطباعيّ الموجّه لها، فقصور أدوات النّقد أدّى إلى قصور في الإنتاجات الأدبية الرّوائيّة.

3. البطل في الرّواية الفلسطينيّة في فلسطين عام 1993 – 2003، للباحثة أحلام محمّد سليمان بشارات، قدّمت هذه الدّراسة استكمالا لمتطلّبات درجة الماجستير في اللغة العربيّة بكليّة الدّراسات العليا في جامعة النّجاح الوطنيّة في نابلس – فلسطين عام 2005، وقد تناولت الدّراسة صور البطل في الرّواية الفلسطينيّة في الفترة المذكورة، بعد التّعريج على صورته بشكل غير تفصيليّ منذ عام 1948 وحتى 1987، وأبرزت الدّراسة صورة البطل الجديدة الّتي تعتبر مخيّبة للآمال على نحوٍ غير متوقّع، بطل مهزوم مأزوم، وهذا البطل السّلبيّ تزامن ظهوره مع شخصيّة البطل

الإشكاليّ والبطل الإسلاميّ. خلصت هذه الدّراسة إلى غياب الشّخصيّة العربيّة وشخصيّة الآخر الأجنبيّ واليهوديّ كشخصيّة رئيسة، وإنّما وردت ضمن البطل الجماعة.

4. التحوّلات في المكانة الاجتماعيّة للمرأة في الرّواية الفلسطينيّة المعاصِرة، دراسة مقارنة لما قبل مرحلة أوسلو وما بعدها، للباحث وسام يعقوب رفيدي، قُدّمت هذه الدّراسة استكمالا لمتطلّبات درجة الماجستير في علم الاجتماع "التّنمية والسّياسات والبحوث الاجتماعيّة" من كليّة الدّراسات العليا في جامعة بير زيت - فلسطين – عام 2005، وفيها تناول الباحث التحوّلات في مكانة المرأة في الرواية الفلسطيني، مقارنا بين مرحلتين، نشوء حركة المقاومة الفلسطينيّة والانتفاضة الشّعبيّة 1987، والمرحلة السّياسيّة الجديدة الّتي دشّنها اتّفاق أوسلو بين منظّمة التّحرير الفلسطينيّة والحكومة الإسرائيليّة، وقد أجابت الدّراسة عن سؤال الباحث حول وجود التّحوّلات بالإيجاب: فالرّواية الفلسطينيّة واكبت التّحولات في مكانة المرأة ما بعد أوسلو مقارنة مع المرحلة الّتي سبقتها، وقد أظهرت كيفيّة مواكبة الرّواية لتلك التّحوّلات بتحليلها لجملة من مكوّنات البنية الفنيّة الرّوائية الّتي تؤشر على هذه الكيفيّة.

5. الرّواية الفلسطينيّة وتجلّياتها الفنيّة والموضوعيّة في الأرض المحتلّة بعد اتّفاقيّة أوسلو (2009)، للباحث حسين محمّد حسن الصّليبي، قدّمت استكمالا لمتطلّبات درجة الماجستير في اللغة العربيّة بكلّيّة الدّراسات العليا في الجامعة الإسلاميّة في غزّة عام 2008، وقد تناولت الدّراسة الرّواية الفلسطينيّة بعد أوسلو باعتبارها منعطفا تاريخيّا فارقا بالنّسبة للقضيّة الفلسطينيّة منذ بروزها عام النّكبة 1948، وكيف أثّرت الاتفاقيّة على الرّواية الفلسطينيّة، مع تتبع أهمّ السّمات الفنيّة والموضوعيّة للرّواية الفلسطينيّة قبل أوسلو والمضامين والاتجاهات الفنيّة، وغلبة الاتجاه الواقعيّ والتّاريخيّ على معظم الرّوايات الّتي صدرت بعد أوسلو، إضافة إلى بنائها الفنيّ وما فيه من تجديد.

6. صورة الرّجل في الرّواية النّسويّة الفلسطينيّة "سحر خليفة أنموذجًا"، للباحثة مجدولين ماجد عبد الهادي السويطيّ، قدّمت هذه الدّراسة استكمالا لمتطلّبات درجة الماجستير في اللغة العربيّة وآدابها بكليّة الدّراسات العليا في جامعة الخليل عام 2012، وفيها قدّمت الباحثة ثماني روايات من روايات الكاتبة سحر خليفة، استقرأت من خلالها صورة الرّجل وحدّدت معالمها وملامحها، فتعرّضت للصّورة الإيجابيّة للرّجل من مناضل ومطارد ومُحِبّ وشهيد وأسير، ورصدت في الفصل الثّاني التّقيض؛ إذ كشفت الصّورة السّلبية للرّجل من عميل وشهوانيّ وانتهازيّ، وأفردت الفصل الثّالث لصورة الأب والزّوج والأخ، وفي الفصل الأخير عرضت لصورة الآخر اليهوديّ والآخر العربيّ.

7. تجسيدات الهويّة لدى مخيّمات اللاجِئين الفلسطينيّين: رؤية جديدة للا "محليّ" و "الوطنيّ"، للباحِثة روز ماري صايغ، مقال صادر عن "بديل" المركز الفلسطينيّ لمصادرة حقوق المواطَنة واللاجِئين 2009، وَفيها تُسلِم بأنّ الفلسطينيّين المقيمين في مخيّمات اللاجِئين يمارسون ويدركون "كينونتهم كجماعة"؛ اعتمادًا على تشابه ظروف حياتهم في انعدام الأمن والتّهميش والفقر؛ وذلك بتقديم ثلاثة نماذج من الشّهادات: شهادات مُسجّلة للحصار (شاتيلا 85 – 87، جنين 2002)، تقارير حول التّنظيم الذّاتيّ والمحليّ خارج نِطاق المؤسسات المهيمنة، إعادة قراءة تقرير كيفيتاس.

8. الإقصاء الاجتماعيّ للاجِئين الفلسطينيّين في لبنان: تأمّلات في الآليّات الّتي تعزّز فقرهم الدّائم، للباحثين ساري حنفي وجاد شعبان وكارين سيفيرت، مقال صادر عن مجلّة الدّراسات الفلسطينيّة العدد 91 صيف 2012، وفيه يتناول الباحثون الكيفيّة الّتي يؤثّر فيها افتقار اللاجئين الفلسطينيّين إلى الحقوق وإقصائِهم الاجتماعيّ في أوضاعهم المعيشيّة، ثمّ الكيفيّة الّتي يؤثّر فيها ذلك في حالة اللاعمل، أي البطالة الّتي يعيشونها، وأتت هذه الدّراسة استنادًا إلى النّموذج الّذي طَوّره كُلّ من برمان وفيليبس في هذا الشّأن.

9. تحوّلات البطولة في الخطاب الثّقافيّ الفلسطينيّ، للباحث عبد الرّحيم الشّيخ، مقال صادر عن مجلّة الدّراسات الفلسطينيّة العدد 96 خريف 2013، وفيه تناول الباحث تحوّلات مفهوم البطولة الفلسطينيّة في حقبة ما بعد أوسلو، متّخذا من مقولات محمود درويش الثّقافيّة والسّياسيّة وبعض مقولاته الشّعريّة نموذجا لهذه التّحوّلات الّتي تزامن تحولات كبرى في حقبة ما بعد الحداثة (المتأخّرة) في العالم، لكن في فلسطين بصفتها مستعمرة ما بعد استعماريّة.

10. عين الحلوة آخر عواصم الشّتات: فقر وسلاح وجمود لمنع الانفجار، للباحث أنيس محسن، مقال تحقيقيّ صادر عن مجلّة الدّراسات الفلسطينيّة، العدد 105، شتاء 2016، وفيه تناول الباحث مخيم عين الحلوة بين مرحلتي المدّ الثّوريّ وضمور الثّورة؛ إذ تحوّل من قاعدة للثّورة في الجنوب اللبنانيّ إلى "غيتو" وفرّاعة أمنية تمكّن سكّانه وقواه الوطنية من الحيلولة دون انفجار من الدّاخل أو تفجيره من الخارج، مع التّركيز على وجوب استعادة المنظّمة دورها كممثّلة للفلسطينيّين فيه وفي غيره من المخيّمات قبل فقدانها بسبب الفوضى العارمة الّتي تحياها المخيّمات.

11. "رباعية البحيرة" وصور الهوية الفلسطينيّة، للنّاقد والباحث د. فيصل درّاج، مقال صادر عن مجلّة الدّراسات الفلسطينيّة العدد 118، ربيع 2019، وهي قراءة خاصّة في رباعية البحيرة ليحيى يخلف، تناول الباحث فيها الهويّة في فضاء فلاحيّ محدد، والمنفرد وهويّة التجربة، وهوية المكان وذاكرة التّاريخ، واللاجئ وتفكك الزمن المنتظر،

والهويّة الفلسطينيّة المتعدّدة لأبطال الرّباعيّة، وخلص الباحث بها إلى أنّ يحيى يخلف سجّل ما عاش وما حلم به، وترك وثيقة أدبيّة وطنيّة واسِعة كثيرة الأسْئلة، تدافع عن الذّاكرة الفلسطينيّة وتمنع عنها النّسيان، إذ لا تاريخ بلا ذاكرة، ولا ذاكرة إلّا بوعي يمايز بين الأزمنة.

الفَصْلُ الثّاني: فَضاءات الرّواية الفلسطينيّة

- فَضاءاتُ الرّوايَةِ الفِلَسْطينيّةِ

⇐ الفَضاء الرّوائِيّ ... دِفْء المكان وصَقيعه

⇐ القَرْيَةُ ... الفضاء المكانيّ الأوّل

⇐ المَدينَةُ ... الفضاء المكانيّ المُتَناقِض

⇐ المُخيّم الفِلَسْطينيّ، نَشْأةً

⇐ المُخَيَّمُ ... الفَضاء المكانيّ الطّارِئ

المكان الرائحة الأولى

قهوة تفتح شباكا. غموض المرأة الأولى

أبٌ علّق بحراً فوق حائط

المكان

خطوتي الأولى إلى أول ساقين أضاءا جسدي

المكان المرض الأول..

والمكان

هو ما كان وما يمنعني الآن من اللهو

المكان الفاتحة

المكان السنة الأولى. ضجيج الدمعة الأولى

التفاتُ الماء نحو الفتيات. الوجع الجنسي في أوله، والعسل المُرّ ...

-محمود درويش-

الفَضاءُ الرّوائيّ ... دِفْءُ المَكانِ وصَقيعُه

إنّ مُصْطلحًا بالِغَ الاتّساع والشّموليّة كمصطلَحِ الفَضاء لا يُمكن حَصره في تعريف واحدٍ أو معالجته من ناحية واحدة، فالفضاء في مفهومه العام هوَ كُلّ ما يُحيطُ بنا، ماديّا ومعنويّا، ولفظة الفَضاء مأخوذة من: "فضا، الفضاءُ: المكانُ الواسِعُ مِنَ الأرضِ، والفعل فَضا يفضو فضُوّا، فهو فاضٍ، وقد فضا المكانُ وأفضى إذا اتّسع"[1]، أمّا الفضاءُ الرّوائيّ الّذي نرمي إليهِ فهُوَ: "الحَيّزُ الرّمكانيّ الّذي تتمظْهَرُ فيهِ الشّخصيّات والأشياء متلبّسة بالأحداثِ تبعًا لِعوامل عِدّة تتّصل بالرّؤية الفلسفيّة وبنوعيّة الجِنس الأدبيّ وبحساسيّة الكاتِبِ أو الرّوائيّ"[2].

تظْهَرُ من التّعريف السّابق العلاقة المتينة بينَ الزّمان والمكان، وهيَ علاقة طبيعيّة بارزة في تَفاصيل الحياة، فعندَ تحديد أيّ قضيّة او إشكال على المستوى الاجتماعيّ مثلا، لا بُدَ من تحديد وتخصيص طرفين أساسيّين هما: مكان القضيّة وزمانها الّذي تبلورت أو وقعت فيه، فلا تستطيع الدّراسة أن تفصل أحدهما عن الآخر، لكنّنا نستطيع توجيه البوصلة نحو أحدهما دون تهميش الآخر، وبوصلة الدّراسة هنا المكان مرتبطا بزمان مخصوص.

هذا المكان الّذي يتأثّر تباعًا بالحقبة الزّمنية الّتي مرّت عليه، والمُؤثّرات والمتغيّرات الحاصِلة فيه هو مِحور تركيز الدّراسة، دونَ تهميش الوسط الّذي خُلق وتبلور فيه، فالرّواية أو العمل الأدبيّ بشكل عام إنْ فقد مكانيّته أو التبست على القارئ فَقَدْ فَقَدَ رونَقه وخصوصيّته وأصالته، فالمكان في الرّواية يعمل على تفسير الكثير من الدّلالات الاجتماعيّة والنّفسيّة ويحيلها إلى عالم رمزيّ أو واقعيّ أو متخيّل، فكلّ عناصِر الرّواية تتبلور وتكتسِب أهميّتها وجماليّتها في اللحظة الّتي تُؤَطّر فيها داخِلَ الفَضاءِ المَكانيّ، إذْ تُصَيّر المتخيّل في هذه اللحظة حقيقة وواقعا، بعد خُضوعِهِ لِوَعي الكاتِبِ ولجميع مُكوّنات الرّواية.

أمّا المكانُ في المعاجِمِ فهو كما وَرَدَ في لِسان العرب: "الموضِع وجمعُه أمكنة وأماكن"[3]، والمكان الرّوائيّ ركيزة أساسيّة من ركائِز أيّ عمل أدبيّ، يحتلّ في كثير من الأحيان صدارة العمل ويحمل في أحايين أخرى عنوانه، كما يثبت علاقته المتينة وأثره العميق في شخصيات وأحداث العمل، "وبذلك يُصبح المكان وسطا حيويّا تتجسم من خلالِهِ تلك

1 ابن منظور: **لسان العرب**، ج7، ص122.

2 البوريمي، منيب محمّد: **الفضاء الرّوائيّ في الغربة الإطار والدّلالة**، دار الشُّؤون الثّقافية العامّة، بغداد، 1984، ص 21.

3 ابن منظور: **لسان العرب**، ج8، ص343.

الشّخوص الّتي تأخذ في مَسارها خطًّا مزدوجًا مُتناقِضا، فهي قد تَبدو أحيانًا في حالة تداخل وتشابك ولكنّها في أحيان أخرى تتنافر وتتباعد فتبدو في شكل وحدات دراميّة منفصلة"[1].

من هُنا يَظهر أنّ المكان في العمل الرّوائيّ وَسط حيويّ يُؤثّر في الشّخوص ويتأثّر بها، يتعمّق فيها ويحدّدها نفسيّا واجتماعيّا وثقافيّا، ينسَلِخُ عنها في أحيان أخرى، يَدفعُ بالحدث نحو تفاقمه وذروته، فهُوَ الرّحم الّذي تتخلّق فيه ملامح الرّواية وتتشكّل أحداثها، لتتحوّل نُطَفُ العمل إلى أجِنّةٍ حقيقيّة واقعيّةٍ في ذهنِ المُتلقّي.

وقد أسرفَ النُّقّاد في تصنيفات المكان، واتّخذ كُلّ منهم منهجيّة خاصّة في ذلك، فالأمكنة عندَ النّابلسيّ: المكان الإنبائيّ أو الافتتاحيّ، المكان الصّوتيّ، المكان الحنينيّ، المكان الثّالث، المكان المقارن، المكان الرّمزيّ، المكان النّفسيّ، المكان القاصر، المكان العالة، المكان الرّحميّ، المكان الحلولي ... المكان المركّب، المكان المطلق، المكان المتجمّر[2]، وهذه التّصنيفات على كثرتها لا يخدمُ الدّراسةَ الإيغال فيها، إذ إنّ ما تحتاجه الدّراسة هنا هوَ البيئات المكانيّة المتعارف عليها في الرّواية الّتي تُشكّل مِساحة تكوّن وتكوّر الاحداث والشّخصيات والصّراعات ...، ويكفي الدّراسة الوقوف عند أهمّ البيئات وأكثرها طرحا في الرّواية الفلسطينيّة: القرية، المدينة، المخيّم.

1 جنداري، إبراهيم: **الفضاء الرّوائيّ في أدب جبرا إبراهيم جبرا**، ط1، تموز، دمشق، 2013، ص203.

2 انظر: النّابلسي، شاكر: **جماليّات المكان في الرّواية العربيّة**، ط1، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، 1994، ص7 – 30.

القريةُ ... الفَضاءُ المَكانيُّ الأوّل.

تُعدّ القريةُ حاضِنة هامّة وأساسيّة للرّواية الفلسطينيّة، كون القرية هي المَكان الأوّل الّذي تلمّسَه الفِلَسطينيّ قَبل أنْ تَجتاح المُدن سَماء البِلاد، وتتوسّع خريطة الوطن لِتحمِل مُسمّياتٍ مَكانيّة أخرى، فالقريةُ هيَ البَساطةُ في أسمى تعريفاتها، والانتماء والارتباط والبَقاء والصّمود في مُختلف التّفاصيل، فابنُ القريةِ هُوَ شَجرة البِلادِ الّتي تَضْرِبُ جُذورها في عُمْقِ الأرضِ وَتَشُقّ طريقها إلى أعلى التّربة لِتُعْلِنَ انتماءَها في سَماءِ البِلادِ عاليًا.

أرّخت القريةُ في الرّواية الفلسطينيّة لحياة الفِلَسْطينيّ قبل نكبة عام 1984 ببساطتها وعفويّتها من طرحٍ لموسم الحَصاد والبِذار والبَيع، وتفاصيل الأفراح والأحزان، فهِيَ صورةٌ اجتماعيّة تُصوّر تفاصيل الحياة الاجتماعيّة البِدائيّة بما فيها من ظُلمٍ طبقيّ وعُسر حال وأميّة، ومحاولة للخروج من قماقم الظّلم نحو حياة أكثر أمنًا واحتراما وتقديرا ويُسر حال، كما تعدّ وثيقة تاريخيّة هامّة، تحمل مُعاناة الفلسطينيّ تحت وطأة الحُكم العُثمانيّ والانتداب البريطانيّ ومخاوف انقِضاضِ العِصابات الصّهيونيّة على ملامح الحياة كافّة، الّتي بدأت ملامحها تتشكّل على أرض الواقِعِ لا تخفى على أحد.

هذا المخاض العَسير بَرَزَ جليّا في القرية في الرّواية الفلسطينيّة، الّتي حملت هُموم الفلسطينيّ بحقيقتها، لكنّها رغمَ كُلّ العقبات والخيبات الّتي تُواجه أفرادها ظلّت صاحبة بنية اجتماعيّة مُتماسكة متينة، تربطها الشّراكة والوحدويّة والخوف الجمعيّ من الحاضر والمستقبل، إذا ما استثني بطبيعة الحال أهل الثّروة المتنفّذين والاستغلاليّين الّذين خلقوا الصّراع الطّبقيّ على الأرضِ والإنسانَ المُسخّر لخدمتهم معا.

تلاشت الهمومُ الإنسانيّةُ المُعتادَةُ عندَ أهل القريةِ أمامَ الهمّ الأكبرِ، فلمْ يَعُدْ همّ القرويّ الحَصاد والبِذار وبيع المحصول وتأمين مبلغ للموسم القادم، ولا إرسال ابنه إلى المدينة ليتعلّم في مدارسها هربًا من شيخ القرية وتعليمه: "لقد عَمِل الحاجّ خالِد الكَثير كَيْ يجبِرَ ناجي على الالْتِحاقِ بالمَدْرَسَةِ، الّتي ظَلَّ الشَّيْخُ حُسْني أُسْتاذَها الوَحيدَ لِفَتْرَةٍ طَويلَةٍ، إلّا أنّ ناجي كانَ يَرْفضُ دائِمًا: ما دامَتْ تِلْكَ الخيزرانَة في يَدِهِ، فَلَنْ أذهَبَ إلى هُناكَ. عَكْس أخيهِ محمود الّذي وَجَدَ فيهِ الشَّيْخ حُسني أَفضل طالِب تَعَلَّم اللغةَ العربيّةَ وَأَتْقَنَها مُنْذُ سَنَواتٍ طَويلَةٍ عَلى يَدَيْهِ، وَوَصَلَ بِهِ الحَدّ إلى أنْ يَعْتَبِرَ (عودَ القَصَبِ) كما كانَ يدعوه (معجِزَته الخاصَّة)"[1]، بل تحوّل الهمّ إلى نزاع، نزاع على الأرض لأجل البقاء.

1 نَصر الله، إبراهيم: **زَمن الخُيول البَيْضاء**، ط2، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008، ص198.

هذه الصّورة انقلبت خلال نكبة عام 1984 وبعدها؛ إذ صارت القرية المكان الخصب للدّفاع عن تُراب الوطن ومواجهة العِصابات الصّهيونيّة، فالأرض الّتي عانى في زراعتها ليحصدها، ها هي تقتات دم شهادته، فيمضي هُوَ وتبقى هِيَ، والخونةُ هُم الخونة في استغلال هذا المَشهد الوطنيّ والإنسانيّ وتسريب الأرض المُخَضّبة بدماء القرويين للعِصابات الصّهيونيّة: "كانَ بترسون يقترب من جسد الحاجّ خالد، بتثاقل أذهلَ جَميعَ جنودِهِ، رَآهُ مُلْقى، وَجْهه للسّماءِ وَيَدُهُ مُمْسِكَةٌ بمُسدّسه، جَسده ممتلِئ بِثقوب الرّصاصِ وَثيابه غارِقة في الدّمّ. سَدّد أحد الجُنودِ بُنْدقِيّته وكانَ يهمّ بإطْلاقِ الرّصاصَةِ الأخيرَةِ نَحْوَ الجَسَدِ المُسَجّى. امتدّت يَد بترسون وأنْزَلت البندقيّة: لقد مات.

- مبروك؟!! سمع أحدهم يقول.

ودونَ أن يلتفت ليعرف مصدر الصّوت، قال بترسون: هذا رجل شجاع، مِنَ العَيْبِ أنْ نتلَقّى التّهاني بِمُناسَبَةِ مَوْتِهِ. ثمّ قال وهو يُحَدِّقُ في وجوه الجُنود: كانَ رجُلًا شَريفًا، مِنْ أينَ لي بعدوٍّ مثله بعدَ اليومِ؟!!"[1].

والرّوايات الّتي جعلت من القرية الفلسطينيّة مِساحة لها وأرضا خصبة لسردها وخطابها كثيرة[2]، لا تتوقّف عندَ فترة زمنيّة معيّنة ولن تتوقّف، فطالما القرية موجودَة على أرض الواقع، فحضورها الرّوائيّ موجود يثبتُ ذاته في كُلّ رواية تَصْدُرُ منها أو عنها.

1 نصر الله، إبراهيم: **زمن الخيول البيضاء**، ص374.

2 بعض الرّوايات الّتي اتّخذت القرية مكانا أساسيّا لسير أحداثها: الحتّونة والخيوط لوليد أبو بكر، ثلاثيّة بكاء العزيزة لعلي عودة، ثلاثية مباركة وتجليات الرّوح لمحمّد نصّار، العذراء والقرية ورواية قدرون لأحمد رفيق عوض، بحيرة وراء الرّيح ليحيى يخلف، رواية فاطمة لمحمد نفّاع، رواية سيرة بني بلوط لمحمد علي طه ... وغيرها الكثير.

المدينةُ ... الفَضاءُ المَكانيُّ المُتَناقِض.

بينَما انغمست القريةُ في الهمّ الإنسانيّ المُشتركِ والوحدةِ والألفة، انغمست المدينةُ في الطّبقيّة والعمل والماديّة، فكانَ أبناؤُها يَسْعونَ للخروج إلى العالَمِ المُحيطِ، مُحَمّلينَ بِكُلّ ما مَنَحَتهم إيّاه المَدينَة مِنْ تحضُّرٍ وتَمَدُّنٍ وتعليم، يُمارِسونَ الطّبقيّة على أهل الأريافِ وعلى أهلِ مَكانِهم كذلكَ، إذ في كَثيرٍ مِنَ الأحيانِ صارت المُدُنُ مَصَبّ رَوافِدِ القُرى المُحيطةِ بها؛ لتزدادَ فيها الصّراعات والنّزاعات وتكتظّ بِتَفاصيل الحياةِ المغايرةِ تمامًا لحياة المدن، خاصّة بتأثّرها بالانتداب البريطانيّ والعِصابات الصّهيونيّة الّتي مَهّدت لنكبة عام 1948، وكأنّ المدينة شاشة سينمائيّة تعرض فيلما اجتماعيّا صاخبًا بملذّات الحياة إذا ما شوهِدَ بعينِ ابن القريةِ اللاجئِ إليها بغيةَ نزعِ رِداءِ الأميّةِ وارتداءِ ثوبِ العِلمِ والثّقافة، فإمّا يجرفه السّيل وإمّا يضبطه العَقل والوعي: "كانَ يعرفُ أنّ زوجتَهُ الصّغيرَة لا تَستطيع أنْ تتدبّر أمرها، فمنذ أنْ جاءَ بها مِنَ الرّيف لم تَعتد أنْ تقبل العيش في المدينة الكَبيرة، أو أنْ تُكَيّفَ نفسها مع ذلك التّعقيد الّذي يبدو راعِبًا لها، وغيرَ قابِلٍ للحلّ"[1]، إضافة إلى حالة الانبهار السّلبيّ الّتي قد تصل إلى حالة الخوف والرّعب والتكفير لأهل المدينة، المدينة الّتي صارت فاضحة: "كانت قدْ رَأتْ مثل تِلك المَلابِسِ على نِساء القدس حين زارتِ الحرم آخر مرّة، حينَ رأت تِلك الموضة قالت في نَفسها: نسوان القدس فرنجيّات برنجيّات مثل اليهود والإنجليزيّات. وها هي ترى بنات أخيها وقد أصبحن كالقدسيّات. رُبّما بتأثير الضّيفة واسمها ليزا. ما هذا الاسم؟!"[2]، وفي الحديث عن وحيد أحد أبطال الرواية ومدى تعجبه من حياة المدينة: "كانَ يرى اليهوديّات في شوارع حيفا ويافا فيحسّ أنّ يُشاهِدُ جِنسًا آخر من عالَمٍ لا يمُتّ لِدُنيانا أو دُنيا البَشَرِ بِأَيّ صلة، كُنّ مَكْشوفات الوُجوهِ والأرجلِ وبلا أكمام، لكنّهنّ لا يثرنَ الإحساس أو الشّهوة، كُنّ غريبات، كُنّ بعيداتٍ، كُنّ بلا جِنْسٍ"[3].

وما إنْ وقعت النّكبةُ حتّى أضيفَت للمدينة الفِلَسْطينيّةِ ملامِحُ أخرى حمّلتها إيّاها الظّروف السّياسيّة الجديدة، فَصارت زيادَة على ما هي، ملجأً للمهجّرين من قُراهم ومدنهم المُحيطة إنْ لم يتسنَّ لهم البقاء فيها، ومطمعًا للعمل والعمالة لمن بقي داخل حدود البلاد ولم يرحل خارجها، إذ صارت لمعظم المدن ملامح جديدة وسُكّان جدد، خلطت الحابل بالنّابل؛ إذ تحوّلت العِصابات الصّهيونيّة والوافدين ليهود عَلى خِلافِ وجهاتِهم إلى جُزء ثابِت في المدينة يتحرّك كيفما يَشاء

1 كنفاني، غسّان: **الآثار الكاملة**، ط4، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت، 1994، المجلّد الأوّل "الرّوايات"، رواية عائد إلى حيفا، ص 349.

2 خليفة، سحر: **أصل وفصل**، ط1، دار الآداب للنّشر والتّوزيع، بيروت، 2009، ص 63.

3 **المصدر نفسه**، ص 49.

وأينما يَشاء ومتى يَشاء، بل ويُحَرِّك ما يَشاء، فهو صاحِب السّطوة والسّلطة العُليا: "وحين كانَ يقود سيّارته وسط شوارع حَيفا كانَت رائِحة الحرب ما تَزال هُناك، بِصورة ما، غامِضة ومثيرة ومُستفِزّة، وبدت الوجوهُ قاسيَةً ووحشيّة"[1].

وهنا تغيّر وتأثّر وَجه الإنسانِ المدنيّ أو المُقيمِ في المدينَةِ لينتعِلَ حِذاءَ وَطَنِه مرّة وَيرتدي بزّات العُنصر الجديدِ المُؤَثّرِ عليهِ والمُتَحَكِّمِ فيهِ مرّات أخرى، فلا مَجالَ لابنِ المَدينَةِ بَعْدَ النّكبةِ إنْ أرادَ البَقاءَ إلّا أنْ يَتَأَثّر بِمُنتَجِ الاحتلالِ على خِلافِهِ (ثقافيّا، اجتماعيّا ...)، ليتزايد صِراع البَقاءِ والهويّة والمحافَظة على المَلمح الفلَسطينيّ أو ما تبقّى من ذلك.

وبعدَ العديد من التقلّبات على الأصعدة كافّة، يمكن القول أنّ الملمحَ اختلطَ في المدنِ، فلا يصعب على أحدٍ اكتشافهُ مُنْذُ التّخاطُبِ الأوّلِ باللسانِ، إذ للمدينَةِ لغة دخيلَة ليسَت بديلة وإنّما متوازِية مع اللغةِ الأصيلةِ، لا يُنْكِرُها أحد، وهذه اللغةُ هي بداية المؤَشّر، أمّا نهايته أو على الأقلّ أعلى مستوياتِه الآنيّة هو الانضمام إلى صفوف التّجنيد دون أدنى شعور بالوطنيّة، وعلّ هذه السّمات اشتركت بها القرية حاليّا والمدينة: "لكنّ الجُنديّ ضربني بالعَصا على ظَهري، شعرتُ أنّه قسمه قِسمين، صِحتُ عاليًا فانْقَضَّ فوقي إبراهيم لَيتلقّى الضّربة الثّانية ثُمّ الثّالثة، كنتُ تحتهُ صحتُ كَلّا، ثمّ نظرتُ للأعلى وإذ بجنديّ يضرِبُ الجنديّ الآخر بالعَصا صارِخًا: ابتعد عن ابن عمّي يا بن الكلب الواطي الوسخ، ابتعد"[2].

إذن، مدينة جديدة تتخَلّق تدريجيا داخل فلسطين، على أرضها ووجودِها، ومنها تقفز إلى رواياتها بكلّ تناقضاتها وخرابها ونزاعاتها وصراعاتها، الّتي تنصبّ لِتصقل شخصيّةً وفردًا جديدا لهذه المدينة، ذكرا كان أو أنثى.

1 كنفاني: غسّان: **الآثار الكاملة**، ص 344.

2 محمّا، علاء: **مقدسيّة أنا**، ط1، مؤسسة عبد المحسن القطّان، فلسطين، 2011، ص292.

المُخَيَّمُ الفِلَسْطينيُّ، نَشْأَةً.

في أعقابِ نكبةِ عامِ 1948 تعرّضت فِلَسطينُ إلى تطهيرٍ عِرقيّ وإجلاءٍ سُكّانيّ رافَقَ السّيطرةَ على الأرض؛ وذلكَ من خِلال تهجيرِ أصحاب البِلادِ إلى شَتّى بِقاعِ العالَم، "وتشريد ما يَربو عن 800 ألف فِلَسطينيّ من قُراهم ومُدنهم من أصل 1.4 مليون فلسطينيّ كانوا يقيمون في فِلَسطين التّاريخيّة عام 1948 في 1300 قرية ومدينة فلسطينيّة"[1]، مع وُجوب التّنبيه إلى أنّه تمّ تأسيس عشرة مخيمات في أعقاب حرب حزيران عام 1967 واحتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة وذلك بهدف إيواء موجة جديدة من النازحين من اللاجئين وغير اللاجئين[2].

عاشَ هؤلاء اللاجِئون في 58 مخيّمًا معترفًا به للاجئين في كُلّ من الأردن ولبنان وسوريّا وقِطاع غزّة والضّفّة الغربيّة بما فيها القُدْس، والرّسوم البيانيّة[3] الآتيّة تُوَضّح بعض المتعلّقات بالمخيّمات ونسب اللاجئين الفلسطينيّين:

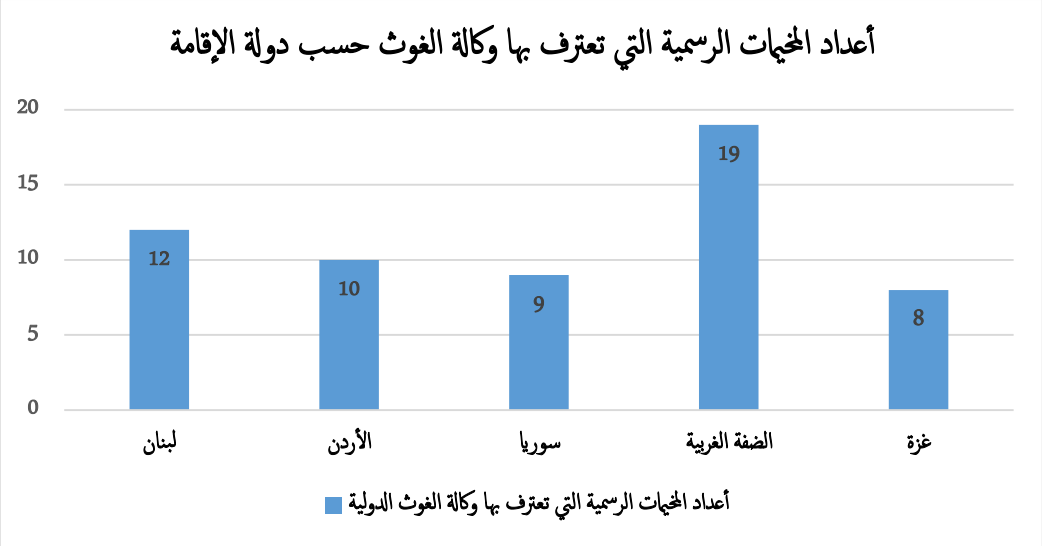

1 انظر: **الإحصاء الفِلَسطيني يستعرض واقع اللاجئين الفلسطينيين بمناسبة اليوم العالمي للاجئين 20|6|2019**، الجِهاز المركزي للإحصاء الفِلَسطيني، http://www.pcbs.gov.ps/portals/_pcbs/PressRelease/Press_Ar_20-6-2019-ref-ar.pdf، استرجع بتاريخ 30|7|2019.

2 انظر: https://www.unrwa.org/ar/اللاجئين-الفلسطينيين، استرجع بتاريخ 30|7|2019.

3 انظر: **الإحصاء الفِلَسطيني يستعرض واقع اللاجئين الفلسطينيين بمناسبة اليوم العالمي للاجئين 20|6|2019**، الجِهاز المركزي للإحصاء الفِلَسطيني، http://www.pcbs.gov.ps/portals/_pcbs/PressRelease/Press_Ar_20-6-2019-ref-ar.pdf، استرجع بتاريخ 30|7|2019.

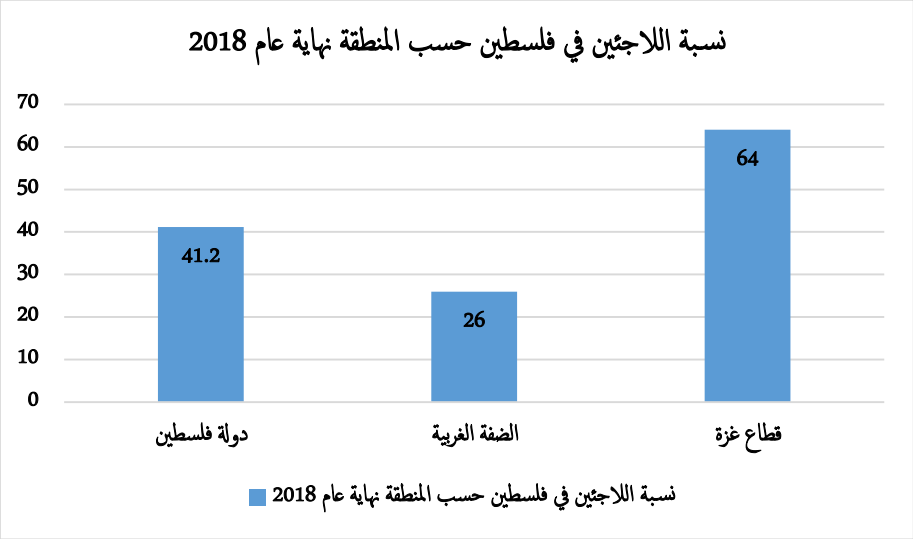

من خلال الرّسم البيانيّ السّابق تشير بيانات عام 2016إلى أن نسبة السكان اللاجئين في دولة فلسطين بلغت41.5% من مجمل السكان الفلسطينيين المقيمين في دولة فلسطين، وأن 26.2%من السكان في الضفة الغربية هم لاجئون، في حين بلغت نسبة اللاجئين في قطاع غزة .65.3%.

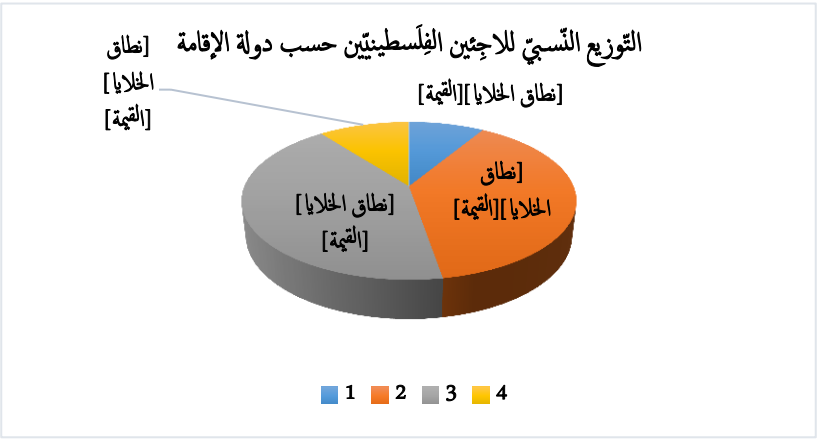

والمخيّمُ كما تُعَرّفه الأونروا عِبارة عن قِطعة من الأرضِ تمّ وَضْعها تحتَ تصرّف الوَكالة من قِبل الحُكومة المُضيفَةِ بهدف إسكان اللاجئين الفلسطينيّين وبناء المنشآت للاعتناء بحاجاتهم، أمّا المناطق الّتي لم يتمّ تخصيصها لتلك الغاية فلا تُعتبر مُخيّمات[1]، هذا المخيّم الّذي صارَ فيما بعدُ قِطعة وَطن لأولئِكَ اللاجِئين إليهِ، فكيفَ تمثّلت صوره في روايات الدّراسة قبل وبعد أوسلو.

1 انظر: https://www.unrwa.org/ar/اللاجئين-الفلسطينيين، استرجع بتاريخ 30|7|2019.

المُخَيّم ... الفَضاءُ المَكانيُّ الطّارئُ.

تسلّلت الحياةُ بمدنيّتها وقرويّتها من بينِ أصابعِ الفلَسْطينيّ لِتصل إلى مَكانٍ أكثرَ تشرّدًا وخيبَةً، مَكانٍ طارِئٍ غير مؤقّت هو المخيّم، الّذي لم يكن خيارًا مطروحًا ضمن خيارات متعدّدة، بل كان حلّا وحيدًا على غالبيّة الشّعب، فرضَه الواقع السّياسيّ بعد نكبة عام 1948، لجأ إليه الفلسطينيّون من المُدن والقُرى كافّة، على خِلاف مستوياتهم الاجتماعيّة والثّقافية والاقتصادية، وتلقائيّا انتقل هذا المكان الطّارئ من الواقع المفروض إلى الواقع المكتوب على الفلسطينيّين أدبًا وهويّة.

وما بين مخيّم داخل حدود الوطن المسلوب ومُخيّمات عَديدة أَلْقتْ بِذارَها في أرْجاءِ الأوْطانِ المُحيطّةِ والبَعيدَةِ، تَشابَهت السّماتُ العامّة للمُخَيّمِ، بِدْءًا منَ الجورِ والظّلمِ وُصولًا إلى قِمّتهِ وَيزيد، مُؤَشّرُ العذابِ في تَصاعُدٍ دائِمٍ، وَحُدود المُخَيّماتِ تَضيقُ على أبنائِها حتّى تَتَجَمّع عِنْدَ أعْناقِهِم بلا رَحْمَةٍ ولا هَوادَةٍ.

ظنّ المنكوب الأوّل أنّ الأمر لن يتجاوَزَ الأيّام، لكنّه مع انْقِضاءِ أيّام الأمَلِ وبدايَةِ ظُهور الصّدْأ على مفاتيح البيوت الّتي حملها، أدركَ أنّ عليهِ أنْ يتأقلَمَ ويرضى بالحياةِ الّتي وَصَلَ إليها، مُحاوِلًا شَقّ طريقٍ تضمنُ بقاء خيمتِهِ شِتاءً وصيفًا، وتحفَظُ الرّمق الباقي فيهِ وبِخاصّته، دونَ الالتفاتِ إلى حياته وأمنه.

ها هُوَ الفِلَسْطينيّ عزيزًا كانَ أمْ ذليلًا في وطنِهِ يقِفُ حافِظًا موقِعَه ورَقْمه من طابورٍ طويلٍ؛ بُغية الوصولِ إلى هِبة وَكالة الغَوثِ (الأونروا) من التّموين، كيسُ طحينٍ، سُكّر، حليب ...، أيّ غذاء تُوَفّره الوكالة يَسُدّ جوعَ وحاجة الأفواه الّتي ستتجمّع حوله لحظة عودَتِه إلى الخيمَةِ، هذه الأفواه الّتي حيّرت كرامته، هل ينتَصِبُ رافِضًا أو ينسَلِخُ راضِيًا؟!

هذه الوكالة ذاتها المسؤولة عن طَعامِهم هي المَسؤولة عن عِلاجِهم وتَعليمِهم وتفاصيلِ حياتِهم، ويوَفّر كُلّ ذلك للاجِئِ ابن المُخَيّمِ بعدَ أنْ تقوم لجنة بإحصائِهِ كفردٍ في هذا المخيّم، وعادَةً ما تَكونُ هذه اللجنة من اليَهودِ، وإنِ التَبَسَتِ الألْسُن والأشكال على أبناءِ المُخَيّماتِ البُسطاءِ، لكنّ الأمر في نهايَتِهِ يؤولُ إلى الجذر ذاته:

"كانَ وجيهًا، ففي البدايةِ رفض أنْ يشملهُ الإحصاءُ، رفضَ أنْ يَتَسَلّم المؤَنَ والإعاشَةَ مِنْ وَكالَةِ الغَوْثِ، ثُمّ بعدَ أنْ صَرَفَ الجُنَيْهاتِ الّتي كانَ يَحْمِلُها، صار عزيز قوم ذل. صار واقعيّا واعترف بالفقر وسوء الحال، وبدأ يقدّم عروض الحال

والاستدعاءات للمستر بول، وينتظر لحظة بلحظة مجيء لجنة الإحصاء؛ لكي تتأكّد أنّنا من اللاجئين، وأنّنا نستحقّ الإعانة"[1]. عاش الفِلَسطينيّ في مِصْيدةِ الجوعِ والفقرِ في المخيّمِ، فقدْ عاشَ رهنَ التقلّباتِ الجويّة الّتي تحكّمت في بقائِهِ داخِلَ الخيمةِ أو في انكشافهِ في حالِ طارَتِ الخيمة:

" تشبّثت خَديجةُ وابنها ماهر بثيابِ حَفيظَة، وكانَ خالِد الزّهر وراضي يدقّان الأوتادَ من جديد ويضعانِ على أطرافِ الخيمةِ حِجارَة ثقيلَةً لكيلا تَطيرَ"[2].

تفاصيلُ المخيّمِ خاصّة في بدايةِ نَشْأتِه لافتة ومتشعّبة، تزايدت كُلّما مرّ يوم إضافيّ على بقائِهِ، حملَ منذُ بداياتِهِ التقائِضَ على خِلافِها، فها هُوَ المُقاومُ يجوبُ الخِيامَ وإنْ تطوّرت فيما بعدُ فصارت شبه بيوتٍ حجريّة في أحسنِ تطوّر لها، كما يجوب الخائِنُ المُسْتَغِلُّ طُرُقاتِهِ ويعبثُ بِأوْتادِهِ:

"عِنْدَما التحَقَ بجيشِ الإنقاذِ، وقاتَلَ في صُفوفِهِ، أرادَ أنْ يَقولَ لَهُم إنّه أصْبَحَ رَجُلًا يُعْتَمَدُ عليهِ"[3].

"نحنُ نُريدُ ثُوّارًا، نُريدُ رِجالا يُجيدون استِعْمالَ السّلاحِ، وَيُقاتِلونَ وَيَعْرِفونَ لِماذا يُقاتِلونَ، ولا يَبْحَثونَ عنْ مُسْتَقْبَلٍ فرديّ"[4].

"الحَقيرُ، إنّهُ يكتُبُ التقاريرَ ضِدّي، تَصَوّروا، لم يكتَفِ بالوِشايَةِ بالمُواطِنين، فَأَخَذَ يُلاحِقُ الشّرطة.

- قال أحد الرّجال.
- أنتم أبناء حُكومة"[5].

وما بينَ المُخَيّمِ سِياسَة وحاجَةً إنسانيّة واجتماعيّة وَمُقاوَمَةً وَخِيانَةً واسْتِغلالَ فُرَصٍ، لَمْ يَغِبْ وَجْهُ التّعليمِ وَالعِلْمِ وإنْ كانَ سَوْداوِيًّا مُهينًا لا يَرْقى:

"قالَتِ السّتّ إنْجيل: نُقْطَة أوّل السّطْر.

---

1 يخلف، يحيى: **تفّاح المجانين**، ط3، دار الآداب للنّشر والتوزيع، بيروت، 2008، ص16.

2 يخلف، يحيى: **ماء السّماء**، ط1، دار الشّروق للنّشر والتوزيع، فلسطين، 2008، ص49.

3 **المصدر نفسه**، ص56.

4 أبو شاور، رشاد: **العُشّاق**، ط7، مكتبة كلّ شيء، حيفا، ص 110.

5 **المصدر نفسه**، ص130.

قالَتِ السّتّ إنْجيل: حَسّنوا خَطّكم.

قالَت: لا تَتَمَخَّطوا في الصَّفِّ. قالَت: لا تَسْعلوا.

قالَت: خَطُّكم مِثل خَرابيشِ الدّجاجِ.

... ممنوع التّباح ... أعصابي لا تتحمّل هذا السُّعال المُرْهِق، لا تتحمّل روائِحكم الكريهة.

ثمّ فقدت أعصابها، فحملت المؤشّر وضربت الأولاد الّذين يجلسون في المِقعد الأوّل"[1].

اتّسع المُخَيّم، وتغَيّرَت سِماتُه الشّكليّة وأُضيفَت إلى مَلامِحِهِ الدّاخليّة نُدوبٌ أخرى، حتّى صارَ فيما بَعْدُ يَتَّسِمُ بِها وَيَمْتازُ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ المُدُنِ والقُرى والأحياء، صارَ عَيْبًا وَدونِيَّةً عنْ غيرِهِ بَعْدَ أنْ كانَ مِحْوَرَ ونواةَ المُقاوَمَةِ والعِزَّةِ، صارَ يَحْمِلُ سِمات العُهر كما يَحْمِل الشَّرف والخِيانَة إلى جانِبِ المُقاوَمَةِ والحاجة الإنسانيّة العلنيّة والخَفِيَّةِ، صارَ يتكَشّف وَيَكْشِفُ عن كُلِّ حاجاتِهِ، صارَ وَحْشًا مُنْقَضًا على الحَياةِ:

"وحين وصلت لم تستطع أن تَكتم صَرْختها. باغَتتها الصّرخة، صَرْخة أَشْبه بالعواء في العَراء، شَعرت كَأَنّها في جَوْفِ العَدَمِ، عِنْدَ الخَطّ الفاصِل ما بَيْنَ الحَياةِ والموتِ. أَحَسّت كَأَنّها تَموتُ وَتُوْلَد في آن ... انْفَجَرت مِياهُ "أبو علي" على وَقْعِ صرخَتِها، وكادَ يَغيبُ عَنِ الوَعْيِ مِنْ قُوَّةِ ضَغْطِهِ على فَمِهِ كَي يَكتُمَ صَرْخته. وَكَيْ لا يَفْقِدَ وَعْيَهُ اسْتَنَدَ إلى الجِدارِ وَنَظَرَ مِنْ ثُقْب في وَسَطِهِ فَرَأى وجه فاطِمَةَ مُكحّلا برائِحَةِ النَّشْوَةِ"[2].

حَمَلَ المُخَيَّمُ كُلّ الأوْجه، وَخَبّأ في ثَناياه كُلّ تفاصيلها، وَلم يكشِف عنها جَميعها، فَها هُوَ في كُلّ سَطْرٍ يَكْشِفُ عَنْ وَجْهٍ وَتَفْصيلَةٍ وَحقيقَةٍ وَيزيد، إنّه المَكانُ الطّارِئُ الّذي فُرِضَ على الواقِعِ الفلَسْطينيّ والرّوايَةِ الفِلَسْطينيّة فَصارَ عالَمًا بِحَدّ ذاتِهِ، فَإنْ أَرَادت الدّراسة الاسْتِرْسالَ فيهِ لَنْ تقف عِنْدَ حَدٍّ؛ لذلِكَ اكتَفَت الدّراسة هُنا بِهذهِ التّمثيلات العامّة والمُخْتَصَرَةِ لصورة المُخَيّم؛ على أن تُفصّل في الصّفَحاتِ المُتَقَدّمَةِ.

إذَنْ، فالأمْكِنَة في الرّواية الفِلَسْطينيّةِ رَكيزَةٌ هامّةٌ وأساسِيَّةٌ، اكْتَفَت الدّراسة بالتّعريجِ البَسيطِ على ثلاثَةِ ذوات أهميّةٍ عالية فيها، القرية والمَدينَة والمُخَيّم، الّتي يَتَّضِحُ من خلالِها اهتِمام الرّوائِيّ الفِلَسْطينيّ بالمَكانِ كونه عُنْصرًا أساسيًّا

1 انظر: يخلف، يحيى: **تفّاح المجانين**، ص 9 – 11.

2 عيسى، سامية: **حليب التّين**، ط1، دار الآداب للنّشر والتّوزيع، بيروت، 2010، ص 23\24.

مِنْ عَناصِرِ بِناء الرّوايَةِ، وليس حَيِّزًا خَصْبًا لِحَرَكَةِ الشَّخْصِيّات وَتَبَلْوُر الأحداثِ، وليس تَجْسيدًا للبِناءِ المِعْماريّ أو التفاصيل المَكانِيَّة للبيئَةِ المُحيطَةِ بِهِم أو الّتي عاشوها.

إنّ اهتمام الفِلَسْطينيّ بالمكانِ أعمقُ وأكثرُ تجَذّرًا؛ إذ إنّه مِحْوَرُ صِراعٍ لا بُدَّ مِنْهُ في تَعْميقِ القَضِيَّةِ الوَطَنِيَّةِ، والتّجسيرِ ما بَيْنَ الأمكِنَةِ والأجيال اللاحِقَةِ، فالشُّعوب المُحْتَلَّةُ بِشَكْلٍ عام تَرتفع بِأَمْكِنَتِها صَوْبَ الإصْرارِ على البَقاءِ، وهذا ما تُبْرِزُهُ الرّوايَةُ الفِلَسْطينيّةُ، خاصَّةً تِلْكَ الّتي اخْتارَتِ السِّجْنَ أو المُخَيَّمَ فَضاءها المَكانِيَّ وَحَيِّزَ وُجودِ شَخْصِياتِها.

الفَصْلُ الثّالِثُ: المُخَيَّمُ في نَماذِجِ رِوايَةٍ قَبْلَ أوسلو

- أوسلو: الحَرْبُ خدعة
- المُخَيَّمُ في الرّواية الفلسطينيّة قبل أوسلو: حَيِّزُ الوُجودِ الطّارِئ

  ⟸ مُخَيَّمُ أمَ سعد

  ⟸ مُخَيَّمُ العُشّاقِ

  ⟸ مُخَيَّمُ الطّوْقِ

  ⟸ مُخَيَّمُ تُفّاحِ المَجانينِ

- عَلاماتٌ فارِقَةٌ لِصورَةِ المُخَيَّمِ قَبْلَ أوسلو

تجرحني غيمةٌ في يدي: لا
أريد من الأرض أكثر من
هذه الأرض: رائحة الهال والقشّ
بين أبي والحصان.
في يدي غيمةٌ جرحتني. ولكنني
لا أريد من الشمس أكثر
من حبّة البرتقال وأكثر من
ذهبٍ سال من كلمات الأذان
أسرجوا الخيل،
لا يعرفون لماذا،
ولكنهم أسرجوا الخيل
في آخر الليل، وانتظروا
شبحًا طالعًا من شقوق المكان...

-محمود درويش-

أوسلو، الحرب خِدعة

انتكاسات عديدة مرّت بها فلسطين، فقارئ تاريخها يجدها تنتقل من وعود إلى انتداب إلى نكبة إلى نكسة فمجازر فاتفاقات، المصطلحات عديدة وأثرها لا يَخفى على أحد، انتكاسات ونكبات لا يقف أثرها عندَ الحدّ السّياسيّ بل يمتدّ ليطال كلّ ما له علاقة بهذه البلاد على الأصعدة كافّة، الوطنيّة والاقتصاديّة والأخلاقيّة والثّقافيّة ...، فالتقسيمات كثيرة والمعاهدات عديدة والثّغرات أوسع والهوات أعمق، ورويدا رويدا يسقط الشّعب الفلسطينيّ في هذه الهوات، فينقسم الشّارع في ردود فعله ومواقفه اتّجاهها.

1993|9|13، لم يكن هذا التّاريخ عابرا في صفحات القضيّة الفلسطينيّة، ولن يكون عابرا في المستقبل، فها هو بعد خمسة وعشرين عاما منه ما زال يؤثّر على القضية الفلسطينية، فليس من الممكن دراسة القضيّة دون الوقوف عند هذا اليوم، يوم توقيع واحد من أهمّ الاتّفاقات الّتي تدعو إلى السّلام، اتّفاق أوسلو أو اتّفاق غزّة – أريحا للحكم الذّاتي الفلسطينيّ، كما يحلو لبعض السّياسيّين والمؤرّخين تسميته، وما بين الاسمين لا نضيع أو تضيق المصطلحات، فالمهمّ أثر هذا المصطلح وإلام يُشير.

معاهدة أطرافها ثلاثة، ومن يقف وراءها لا عدّ لهم ولا حصر، معاهدة أقرّ طرفاها الأساسيّان أنّه "آنَ الأوان لوضع حدّ لعقود عديدة من المواجهات والصّراع والاعتراف المتبادل لحقوقهما السّياسيّة والشّرعيّة ولتحقيق تعايش سلميّ وكرامة وأمن متبادلين والوصول إلى تسوية سلميّة عادلة وشاملة ودائمة ومصالحة تاريخيّة من خلال العمليّة السّياسيّة المتّفق عليها"[1]، وكلّ ذلك يتأتّى كما اتّفق الطّرفان من خلال التّوصّل إلى اتفاقيّات سلميّة وودّية في بنود أساسيّة ونقاط سياسيّة هامّة لكلا الطّرفين منها: المفاوضات وإطار العمل للمرحلة الانتقاليّة والانتخابات والولاية والفترة الانتقاليّة ومفاوضات الوضع النّهائيّ ونقل الصّلاحيّات والمسؤوليّات التّمهيديّة، والنّظام والأمن العام والقوانين والأوامر العسكريّة ولجنة الارتباط الفلسطينيّة الإسرائيليّة المشتركة والتّعاون الإسرائيليّ الفلسطينيّ الاقتصاديّ والإقليميّ، والارتباط والتّعاون مع مصر والأردن، وإعادة انتشار القوات الإسرائيليّة والانسحاب الإسرائيليّ من قطاع غزّة ومنطقة أريحا وحلّ النّزاعات ...، ومن لمحة سريعة على هذه البنود وغيرها ممّا لم يذكر يُستشفّ أنّ الاتّفاق شمل

[1] انظر: http://www.aramaic-dem.org/Arabic/Documents/Oslo.htm، استرجِع بتاريخ 10\2\2019.

أصعدة مختلفة سياسيّة وعسكريّة واقتصاديّة وإقليميّة، وهذا لا يتأتّى إلّا بموافقة الطّرفين والتّوقيع، وفعلا وُقّع الاتفاق وسط تخبّطات وبلبلة في الشّارع الفلسطينيّ والعربيّ.

المُخَيَّمُ في الرّواية الفلسطينيّة قبل أوسلو: حَيِّزُ الوُجودِ الطّارِئ

مُخَيَّمُ أُمِّ سَعد

"أمّ سعد، ليست امرأة واحدة

كان صوتها دائِمًا بالنّسبة لي هو

صوت تلك الطّبقة الفلسطينيّة الّتي دفعت غاليًا ثمن الهزيمة"[1]

لم يَتَساوَ المُخيّمُ في طَرحه في الرّواية الفلسطينيّةِ؛ إذ إنّه تأثّر بالمُدّة الزّمنيّة الّتي تفصِله عن فَرْضِهِ (أي نكبة عام 1948)، فمخيّمُ ما بعد النّكبة بِشهور أو سنوات يختلف بتفاصيل ظاهِرَة عن مُخيّمٍ ما بعد النّكبة بِعَشرات السّنوات، فهو من الأمكنة الّتي كانت وما زالت تتأثّر بكلّ الانتكاسات السّياسيّة، أو على أقلّ تقدير بكلّ التّغيّرات السّياسيّة على السّاحة الفِلسطينيّة من لُجوء ونزوح ومعاهدات واتّفاقات وانتفاضات.

وصفٌ عامّ لمخيّم أم سَعد

اكتسب المخيّمُ صورة نمطيّة له، بلورتها حالَةُ الفقرِ والعوزِ والتّشرّدِ الّتي رافقت نَشأته، وأخذت من جذره (خيم) كُلّ الظّلمة والتّعاسة، حتّى صارت الصّورة الّتي تتبادر إلى الذّهنِ - بمجرّد لَفظ كلمة مخيّم - صورة خيم مُكتظّة متراصّة، وَحْل يدفع بالأوتادِ نحو هزائمَ متتالية، عَوز وفقر يخيّمان على ليلِ المكان ونهاره، انكسارات تتوالى ونداءات حاجةٍ تعلو وتهتزّ: "مُنذُ أبكر الصّبحُ وهي تعتصِرُ الملابِسَ والمماسِحَ تنظّف الشّبابيكَ وتجلو الأرضَ وتنفِضُ السّجاجيد (في بيوت الآخرين، طبعًا، فبيتها في المخيّم غرفة مَشطورة من التّصفِ بحائط من التّنك)"[2]، هذه الغرفة المشطورة بحائِطِ التّنكِ أو المبنيّة من التّنك بكاملها أو من الطّين المسقوف بقَشّ، هي صورة متطوّرة عن خيمة القماش، الّتي بوصفها تُشير إلى

[1] كنفاني، غسّان: **أم سعد**، ط5، مؤسسة الأبحاث العربيّة ش.م.م، بيروت، 2006، ص14.

2 المصدر نفسه، ص56.

الوضعين الاقتصاديّ والسّياسيّ لسّكان المخيّم: "حين تدقّ باب البيتِ وتضع أشياءها الفقيرة في المدخلِ تفوحُ في رأسي رائحة المخيّات بتعاستها وصمودها العريق، وببؤسها وآمالها"[1].

هذه التّعاسة وهذا البؤس مُتشعّبان ومرتبطان بكلّ تفاصيل المخيّم، مُرتبطان بالإنسان والحيوان والمكان، فَتَغَيّر بَسيط يطْرأ على طقسِ المُخيّم قَدْ يودي بِهِ وَبِسُكّانه إلى التّهلكة أو العذاب في أقلّ التّوْصيفات: "طافَ المخيّمُ في الليلِ ... الله يقطَع هالعيشة، ... صرت أتعب. أمضيتُ كُلّ الليل غارِقة في الوحل والماء. عشرون سنة ..."[2]

تُحَمِّلُ الخيم المهترئة والجدران المُهلهلة والشّقوق - الّتي تَكادُ تصير أخاديدَ - كُلَّ مَلامِحها إلى سُكّان المخيّم، فالتّعاسَةُ وحالَةُ الفقرِ والتّرهُّلِ الّتي يتميّز بها المخيّم صارت تنعكِسُ على أفرادِهِ، رجالًا ونساءً، وأطفالًا وشيوخًا: "كانَت كَفّاها مطويّتين على حضنها، ورأيتهما هناك جافّتين كقطعتي حطب، مشقّقتين كجذع هرِم، وعبر الأخاديد الّتي حفرتها فيها سنون لا تُحصى من العمل الصّعب، رأيتُ رِحلتها الشّقيّة مع سعد، مذ كانَ طفلا إلى أنْ شَبَّ رجلًا"[3].

ضنك العيشِ وصعوبة الحال وعسره كانَ يتسرّب إلى طِباع الخَلقِ رويدًا رُويدًا، ينهشهم، يخترقهم، يُوقِظُ الوُحوشَ الكامِنَة داخِلهم، فإمّا أنّهم يتعاظَمون ويكابرون فيتحمّلون المَشاقّ بِصَمْتٍ وإيمانٍ: "أنا مُتعبةٌ يا بن عمّي. اهترأ عمري في ذلك المخيّم. كُلّ مساء أقول يا رب! وكُلّ صباحٍ أقول يا رب! وها قد مرّت عشرون سنة"[4]، وإمّا أنّهم يثورون على كُلّ ما يُحيطُ بهِم كَثورٍ هائِجٍ في حَظيرَةٍ اسْمُها المُخَيَّمُ: "وحينَ كانَ يتعطّلُ عنِ العملِ كانَ يزدادُ فَظاظَةً، ويأخذُ في الذّهابِ إلى القهوةِ حيثُ يشرب شايًا ويلعب الطّاولة وينهر على كُلّ النّاس، وإذ يعود إلى البيتِ كانَ لا يُطاق، وكانَ يَنام واضِعًا كَفّيهِ الكَبيرتين الخَشِنتين، اللتينِ تملؤهما آثارُ الإسمنتِ والتّرابِ، تحتَ رأسِهِ، ويأخذ بالشّخيرِ عالِيًا، وفي الصّباحِ يُشاجِرُ خياله، ويترك أمّ سعد تحضّر أشياءها الفقيرة لتمضي إلى شغلها تحت سِياط نظراتٍ خانقة لا تُفسّر ..."[5]، هذِهِ الثّورة المخبأة بالضّعف وقِلّة الحيلة والخذلان، عجز عن حياة كريمة تضمن بقاء ماء الوجه صافيًا، وهذا لا يعيب مخيّم أمّ سعد ولا أفراده، ولكنّه يحدّد النّظرة إليه ويجعلها أكثر صِدقا وواقعيّة، خاصّة فيما يتعلّق بحياته المعيشيّة.

---

1 كنفاني، غسّان: **أم سعد**، ص 29.

2 انظر: **المصدر نفسه**، ص38\39.

3 **المصدر نفسه**، ص30.

4 **المصدر نفسه**، ص31.

5 **المصدر نفسه**، ص87.

ومن ذا يلومه؟! رجل أصابه الفقد حتّى فقد بندقيّته الّتي كانَ يعتزّ بها، أصابَهُ سوء الحالِ والفقر والعجز حتّى صارَت زوجَته دَعامَة البيتِ، تُدَبّر شُؤونه وترعى أفراده، بينما هو يبحثُ عن موطِئِ عملٍ لقدميهِ في مكانٍ لا يتّسع لوطأة ثلاثة أقدام علّه يَعودُ بالنّزر اليَسير: "في ذلكَ الممرّ المُوحل الضّيّق الّذي لا يتّسع لمرور أكثرِ من شَخْصٍ واحد"[1].

وكالة الغوث "الأونروا" في مخيّم أمّ سعد

امتدّت علاقة وكالة الغوث بالمخيّات منَ الأرض الّتي منحتها الحُكومات المُضيفة للمهجّرين من أوطانهم تحت إشرافِ ورعاية الوكالة، إلى تدبير أمور حياتهم خاصّة في ما يتعلّق بالإعاشة والتّعليم والرّعاية الصّحيّة، وفي كثير من الرّوايات طُرحت الوكالة كيد دخيلة على المخيّم ينطبق عليها المثل الشّعبيّ الشّائع (بضرب كفّ وبعدّل طاقيّة)، ورغم أنّ صدور رواية أمّ سعد كان عام 1963 أي الفترة الّتي صاحبت عمل الوكالة – إذ كان وجودها في المخيّات بارزًا وأساسيّا – إلّا أنّ كنفاني لم يُشر إليها إلّا مُرورًا: "كان مدعوسًا بالفقر ومدعوسًا بالمقاهرة ومدعوسًا بكرت الإعاشة ومدعوسًا تحت سقف الزّينكو وتحتَ بسطار الدّولة"[2]، فعبارة كرت الإعاشة دالّة على عمل وكالة غوث اللاجئين في مخيّم أمّ سعد، هذا الكرت الّذي يحتفظ به اللاجئ لإثبات حاجته وتلبيتها من مأكل ومشرب وعلاج وتعليم.

المُقاوَمَة في مخيّم أمّ سعد

يشير كنفاني من خلال شخصيّاته إلى المخيّم كمقاوِم ينتصر بأفراده للحقّ المسلوب، وينادي بعودته ويعمل لأجلها، إذ خلق من شخصيّات عائلة أمّ سعد: سعد المقاوِم، الأمّ العاملة المقاومة وركيزة البيت، الأب المتذمّر العاطِلة أيّامه أكثر من العاملة، كما أنّه غيّب دور الوكالة ولم يَكْسِر شخصياته ويوقفها في طابور الإعاشة؛ ليبرز اعتزاز أمّ سعد وترفّعها عن كُلّ هبات الغير المشبوهة وليؤسطر شخصيّتها.

---

1 كنفاني، غسّان: **أم سعد**، ص88.

2 المصدر نفسه، ص91.

انتصر مخيّم أمّ سعد على بؤسه وصار في الختام معسكرا يحمل أبناؤه الكلاشينات في أزقّته، لكنّه من صفحات الرّواية الأولى قرّر ألّا يكون بؤرة عجز أو عار، ولا محطّة انتظار عبثيّ للمجهول، قرّر ألّا يكون مخيّمًا عاديّا، ومن بؤسه واضطهاده نادى بالثّورة والعودة الحتميّة للوطن، وعمل وِفق أجندة نداءاته المتكرّرة، فمحاولات سعد ورفاقه لقطع الحدود باستمرار كانت إشارة إلى المقاومة لأجل العودة لا لأجل البقاء في المخيّم: "أتعرف؟ سيعود المختار في الليل ويقول لي: ابنك ولد شقي، أخرجته من الحبس فهرب منّي نحو الجبل وقطع الحدود ...

- يقطع الحدود إلى أين؟

وبدا لي أنّها أشارت بذراعها إلى جهة ما"[1].

شكّلت أمّ سعد المحفّز الأساسيّ لابنها على المقاومة؛ إذ امتلكت وعيًا وطنيّا ذاتيّا دفعت به نحو سعد، الّذي حمله على أكمل وجه هو ورفاقه ليتشكّل فيما بعد مخيّم كامل تسوده الرّوح النّضاليّة الثّوريّة بكلّ فئاتِهِ، وتصير المقاومة بوصلة المخيم وأفراده:

- ماذا قال لك؟
- لم يقل شيئا. فقط ذهب، وقال لي رفيقه في الصّباح إنه ذهب إليهم.
- ألم يذكر لك قبلًا أنّه سيذهب؟
- بلى، قال لي مرّتين أو ثلاث مرّات إنّه ينوي الالتحاق بهم.
- ولم تصدّقي آنذاك؟
- بلى، صدّقت. أنا أعرف سعد، وقد عرفت أنّه سيذهب"[2].

يُشكّل هذا المشهد عظمة الدّور الّذي قامت به أمّ سعد، إذ إنها إضافة إلى ترسيخ الوعي الوطنيّ والمقاومة في روح ابنها سعد، دفعته إلى تطبيق ذلك، فلم يكن وعيها شعارات بل وعي فِعليّ، هذا التّطبيق للمبادئ الوطنيّة بدأ من

---

1 كنفاني، غسّان: **أم سعد**، ص21.

2 **المصدر نفسه**، ص31.

بيتها من ابنها سعد لا بيوت جيرانها، فها هي تردّ على استفسار ابن عمّها الراوي إن كانت حزينة أم غاضبة على انضمام سعد لصفوف المقاومة: "لا. قلت لجارتي هذا الصباح. أودّ لو عندي مثله عشرة"[1].

سعد الرّافض دومًا للبقاء في المخيّم، المدرك أنّ المقاومة هي السّبيل الوحيد للخلاص من وحل المخيّم قبل أن يدفن خيامهم: "كان يقف ويتفرّج على الرّجال وهم يحرفون الوحل، ثمّ يقول لهم: ذات ليلة سيدفنكم هذا الوحل"[2]، هذه الشّخصيّة الثّوريّة مدفوعة بكلّ تفاصيلها من الأمّ، إذ تتطوّر العلاقة بينهما فتصير هدايا الأمومة عمليّات مقاومة: "لقد انتظرت حتّى المساء لأسمع نبأ سقوط سيّارة إسرائيليّة في كمين مقاتلين. وارتقبت بلهفة أن أسمع تلك التّمتمة الرّائعة للخبر: وعاد الفدائيّون إلى قواعدهم سالمين ....، أرأيت؟ قلت لك إنّ سعد سيهدي أمّه سيّارة"[3]، إضافة إلى هداياه فهو الوحيد القادر بمقاومته على فتح شهيّة والدته للحياة والصمود: "أنتظر شيئا ما يفتح شهيّتي ليس للأكل فحسب، ولكن للحياة أيضا ... أتصدّق؟ ليس ثمّة من يستطيع أن يفعل ذلك إلّا سعد"[4]، تخرج أمّ سعد من جلباب الأمّ الحريصة على حياة أبنائها إلى جلباب آخر تصعب تسميته، إنّه جلباب تقديس الوطن وحقّ العودة والمقاومة، إنّه أعظم جلباب قد يرتديه المرء، وها هي أمّ سعد تمتلكه وتمثّله في مخيّمها.

إنّ تركيز كنفاني على الجانب الإنسانيّ الأموميّ من أمّ سعد كان ضئيلا، لا لأنّها لا تمتلكه كباقي الأمّهات بل لأنّه يغيب تحت مِظلّة الوطن العُظمى، فالوطن والعودة أكثر أهميّة وحاجة من الأمومة في هذه المرحلة من حياة الشّعب الفلسطينيّ، والأمّ انحرفت عن مسارها الطّبيعيّ لمفهوم الأمّ في أذهاننا لتحمل مبادئ الوطن والمقاومة، وكأنّ أمّ سعد جبل عظيم يعلو ليلامس السّماء. رغم هذه الصّورة الأسطوريّة لأمّ سعد إلّا أنّ كنفاني أوقعها في صورة نمطيّة للمرأة، وهي أنّ مقاومة المرأة قد لا تتعدّى خدمة المقاومين، فعلى لِسان أمّ سَعد تظهر هذه الصّورة النمطيّة إذ تقول: "لعشت معهم، طبخت طعامهم، خدمتهم بعينيّ"[5]، إذن دور ثانويّ غير فاعل للمرأة في المقاومة وتحرير الأوطان.

لم تختزل شخصيّة سعد المُقاوَمة وإنّما مررتها إلى أهل المخيّم، بدءًا من رفاق سعد الّذين يشكّلون مع من هم أصغر منهم سِنًّا أمل المخيّم في الثّورة والعودة: "أما سعد نفسه، ورفاقه، فيعتقدون أنّ أحسن توصية بهم هي أن يرسلوا على

1 ، كنفاني، غسّان: **أم سعد** ص31.

2 **المصدر نفسه،** ص40.

3 **المصدر نفسه**، ص41.

4 **المصدر نفسه،** ص22.

5 **المصدر نفسه**، ص33.

الفور إلى الحرب"[1]، وصولا إلى سعيد – الأخ الأصغر لسعد – ورفاقه، ومرورًا بكلّ فرد من المخيّم: "واندفعت النّساء، ومن ثمّ اندفع الأولاد، إلى الطّريق المظلم وأخذوا يجمعون قطع الحديد بأيديهم العارية ويقذفون بها إلى الرّمل، وبسرعة انتشروا، كالأشباح، على طول الطّريق، ينظّفونه من العراقيل، وفي كُلّ مرّة كانت الطّائِرة تعود كانوا يقذفون بأنفسهم إلى الرّمل، ثمّ يعودون إلى الطّريق مع ذهابها"[2].

لم تتوقّف شراكة أهل المخيّم في حماية المقاومين ومحاولة مساعدتهم في عمليّاتهم، وإنّما المقاومة في مخيّم أمّ سعد نهج حياة، فالمخيّم مدرسة تمأسِس للثورة والمقاومة منذ الطّفولة، فالتّدريب على المقاومة وحمل السّلاح يوازي تعلّم القراءة والكتابة إنْ لم تكن أهمّ، ويُحتَفى به وسط جمهور عظيم:

"هل رأيته؟ إنّه سعيد!

وأشار إلى الطّفل وهو يقرّب رأسه من رأسها كي ترى جيّدًا إلى حيث يشير، ومضى يشدّ على كلماته: هو هناك، ذلك الّذي يرفع المرتينة. هل ترينه جيّدًا؟ وكي لا تضحك انطلقت أمّ سعد تزغرد مرّة أخرى، وكان التّصفيق مازال يدوي، والطّفل يهزّ البندقيّة في وجه الرّجال المحتشدين هناك"[3].

هذه التّنشئة على المقاومة تضمن استمراريّة المخيّم بصورته الثّوريّة الكفاحيّة، الصّغار على درب سعد ورفاقه، وإن لم يكن في المخيّم إلّا أمّ سعد واحدة؛ إذ لم يطرح كنفاني نسوة أخريات يحملن فكرها وثوريّتها وكأنّها أمّ الجميع، لكنّه في المقابل وضّح الامتداد الثّوريّ لسعد في أخيه سعد وأبناء المخيّم الآخرين؛ وكأنّ الصّورة الرّاسخة في أذهان أبناء المخيّم هي إنّا للوطن وإنّا إليه لراجعون، فالشّهادة وإن لم تُذكر صراحة لكنّها نتيجة حتميّة ومبتغاة في مخيّم أمّ سعد، لكي يستحقّ المخيّم العودة إلى الوطن عليهِ أنْ ينال الشّهادة.

---

[1] كنفاني، غسّان: **أم سعد**، ص33.

[2] **المصدر نفسه**، ص57.

3 **المصدر نفسه**، ص89.

مخيّم أمّ سعد سُلطة عُليا

صار المخيّم سُلطة عُليا منفردة عن غيرها، لا سلطة عليه، جاء هذا المُخرج نتيجة بؤس حال المخيّات على الأصعدة كافّة، والإرادة الدّاخلية للعودة إلى الوطن، فالمخيم ليس مأوى للاجئين فحسب بل هُو الحاضنة المكانيّة للثّورة، مرويّتهم الكُبرى للعالم؛ لذلك عملوا على تدعيمه والتّعامل معه بنوع من القداسة وبكلّ ما أوتوا من وطنيّة، فتحمّلوا مسؤوليّة الثّورة والمقاومة وكانوا أصحاب القرار: "ذهب وأراد أن يأخذ من كُلّ واحد منهم توقيعا على ورقة يتعهّدون فيها أن يكونوا أوادم، ولكنّهم رفضوا وطردوه.

- من هم؟
- سعد ورفاقه. قال لي المختار إنّهم ضحكوا عليه، وأنّ سعد سأله: شو يعني أوادم؟ ... وأنّ سعد قام وقال له: يا حبيبي، أوادم يعني بنحارب، هيك يعني هيك"[1].

من عبارة "أوادم يعني بنحارب" يظهر كيف عمل المخيّم على تفريخ الثّورة، وأنّ أبناء المخيّم هم أصحاب الفِعل وردّ الفعل والقرار، إذ لم يخضعوا لسلطة المختار في طلب التّوقيع ورفضوه، بل وفرضوا رؤيتهم ووجهتهم سواء ضمنيّا في الاستهزاء بالمختار: "وأنهم أخذوا يضحكون جميعا، وأنّ شخصًا لا يعرفه كان بينهم قال: أوادم يعني قاعدين عاقلين؟"[2] أم تصريحيّا: "فقال رجل ثالث: يعني ناكل كفّ ونقول شكرا، وأنّ سعد قام وقال له: يا حبيبي أوادم ..."، إذن ها هو سعد ورفاقه يخرجون بشخصيّاتهم عن الأعراف الاجتماعيّة والسّلطة الأبويّة وينزعون أنفسهم من التّابوهات المتعارف عليها.

العَمالة في مُخيّم أمّ سعد

كما فرّخ المخيّم أبناءً للثورة في مخيّم أمّ سعد، فقد فرّخ خائِنين وعملاء يحاولون تنصيب أنفسهم أوصياء على المخيّم وأبنائِه، ويسعون للخلاص أو الحدّ من أيّ ثورة أو توتّر على الصّعيد الأمنيّ للمخيّم بحجج واهية ترتكز على الحاجة والعوز وعدم تكافؤ القُوى، وقد حمل مختار المخيّم في عدد من الرّوايات هذه السّمة كما ظَهَر في الجُزئيّة السّابقة.

---

[1] كنفاني، غسّان: **أم سعد**، ص23\24.

[2] **المصدر نفسه**، ص24.

أمّا علاقة أبناء المخيّم بالخائِنين فقد كانت مركَّبة، إمّا الاقتراب منهم للحاجة أو معاداتهم كردّ فعل لخيانتهم، لكنّ العلاقة في مخيّم أمّ سعد رفضيّة بكلّ المقاييس: "وأنا أظنّ أنّ ليث قد أوصى سعد. لماذا أكذب عليك؟ ليث قال لسعد إنّه إذا حدث له شيء، وحاول أهله الكتابة لابن عمّهم عبد المولى، فما على سعد إلّا أن يطحّهم"[1].

يتّضح من المشهد موقِفُ ليث من أهله في حال قرّروا أن يلجؤوا لقريبهم عبد المولى، هذا القريب الّذي تسبّب قديما في قتل رجل اسمه فضيل كما ذكرت أم سعد لابن عمّها، إضافة إلى أنّه نائب في البرلمان يعمل مع الإسرائيليّين: "وعبد المولى، مثلما قلت، صار مهمًّا هناك، خاين، ولذلك مهمّ عندهم. في البرلمان، كما قلت. يا حيف!"[2]، وإن كان أهل ليث بدافع حبّ ابنهم والخوف عليه قرروا إرسال رسالة إلى عبد المولى يطلبون منه مساعدة ابنهم الأسير: "يتحدّث عن رفيق له اسمه "ليث" وقع في الأسر، وعلم أنّ أهله قد يبعثون إلى عبد المولى، طالبين منه بحكم علاقات قديمة تربطهم به أن يتوسّط لابنهم الأسير"[3]، فلا مبرر لطلب العون من هؤلاء الخائنين في مخيم أم سعد، فطالب العون محمول على الخيانة موسوم بها: "هذا شيء صعب يا بن العم، صعب، أنت في هذه الحالة تقول لهؤلاء الناس، مهما قلت: "تفو عليكم""[4].

مخيّم أمّ سعد والمَدينة

انفصل المخيّم عن الدّولة في سلطته وخصوصيّته لكنّه بقي محتاجا لها؛ ليحافظ على بقائه، فحاول تجسير علاقاته مع المدينة، بالعمل أو العلم، ومن هنا برزت هذه العلاقة غير المتكافِئة، علاقة سلطويّة مهينَة مُستغِلّة: "ما الّذي أستطيع أن أفعله حين يؤشّر صاحب سيّارة عليّ، وأنا في ملابسي الرثّة وشعري الّذي طيّر ريح الطّائرة غطاءه، ووجهي المُلَطّخ بالرّمل والعرق ... ويقول: رأيتها تسرق سيّارتي؟"[5].

---

[1] كنفاني، غسّان: **أم سعد**، ص65.

2 **المصدر نفسه**، ص69.

[3] **المصدر نفسه**، ص65.

[4] **المصدر نفسه**، ص65.

[5] **المصدر نفسه**، ص58.

هذه النّظرة الدّونيّة تهزّ كرامة ابن المخيّم الّذي حمل الوطن على كتفيه، ورغم هذه الجراح وهذه المسؤوليّة المُلقاة على كتفيه إلّا أنّه يُقابَل بمزيد من الإهانة والاستغلال، فَشُحّ الموارد وندرة العمل في طرقات المخيّم يجعل أبناءه يلجؤون إلى المدينة للعمل، ويحتملون الاستغلال والإهانة؛ للتّغلّب على بؤس الحياة هناك: "وأخذت أمّ سعد تشير بذراعها نحو المدينة الصّاخبة المزدحمة المكوّمة في البعد: ... يريدون ضربنا ببعضنا، نحن المشحرين، كي يربحوا ليرتين ... تلك العمارة الكبيرة تسوى أكثر من ألف ليرة، أكثر بكثير"[1].

البُطولَة في مُخَيّم أمّ سعد

غابت غريزة الحبّ عن مخيّم أمّ سعد، فشخصيّات المخيّم لم تلتفت إليه؛ إذ وجّهت تركيزها على فعل المقاومة، فلا وقت للغرائز الأخرى، المُخَيّم على محكّ الثّورة والمقاومة، فعدم خوض كنفاني في علاقات عاطفيّة قد يؤثّر على سير الأحداث الثّوريّة الّتي انطلق فيها، وكأنّ المخيّم في تلك المرحلة لا يملك إلّا القدرة على المقاومة، إذ غابت عاطفته رجالا ونساء، حتّى أنها لم تصل إلى عاطِفة الأمومة أو الزّوجيّة، وهنا نَقف عند أمّ سعد في الرّواية، وكيفَ مهّدت لجيل كاملٍ من الثّورة بدْءًا من بيتها وتحديدًا من ابنها سعد.

طالما عزا النّقادُ والدّارسون أهميّة عظمى للبطلِ سواء بتقسيمه حسب الجنسِ ومن ثمّ تفصيله أم من حيث دوره في أحداث العمل الفنيّ وتطوّرها، ومنهم من منح البُطولة لأشخاص وآخرون منحوها لحدث أو لغة، فقد توسّع مفهوم البطل في مداركهم، ونكتفي هنا فيما يذكر النّاقد د. فيصل درّاج حول البطل: أنّ البطل لاقى تحوّلات عدّة في مسيرة السّرد العربيّ فالبطل في الرّواية، ظاهريًا شخصيّة مركزيّة، تدور حولها شخصيّات ثانويّة، تُضيئها وتُستَضاء بها، إلّا أنّ التحوّلات الاجتماعيّة لها دور مهمّ في تغيير مفهوم البَطل في الرّواية العربية، لكن يبقى السُّؤال: ما معنى البطل في الرّواية الآن؟ يأتي الجواب الّذي لن يكون أخيرًا، من اتّجاهات مختلفة فقد تكون البطولة للغة كما نرى في أعمال إدوارد الخرّاط، أو أن تكون البُطولة للرؤيا كما في أعمال نجيب محفوظ، أو للسّخرية كما في نصوص إميل حبيبي، أو أن تكون

[1] كنفاني، غسّان: **أم سعد**، ص77

البطولة لحالة التّوثيق والكتابة كما في أعمال ربيع جابر، إنّ بطولة الإنسان الحقيقيّة، لا وُجود لها في صيغة المفرد إنّها مفهوم أوسع من ذلك بكثير[1].

في مخيّم أمّ سَعد البُطولة للمخيّم المنتَصِر على كُلّ الخيبات، للمخيّم الّذي يفرّخ الثّورة، البُطولة لأمّ سعد الّتي حملت على كتفيها الخيمة والبارود والعودة، ففرّخت أبناءً من الوَطَنِ وإليْهِ راجِعون، "وقعت؟ أمّ سعد لا تقع"[2]، بهذه الجملة البسيطة تستطيع الدّراسة أن تستشفّ تلقائيا الهالة التّي حشدها كنفاني لبطلة روايته أمّ سعد، فهي المرأة الأربعينيّة القويّة كما لا يستطيع الصّخر، الصّبورة كما لا يطيق الصّبر، هذه المرأة التّي تنجب أولادها لتأخذهم فلسطين منها، وهي راضية بل فخورة، لقد اكتسبت أم سعد على يدّ كنفاني تكثيفا خاصّا أصبغ عليها ملامح جماعيّة، فلم تعد أمّ سعد الفرد، إنّما الشّعب بأكمله[3]، أو على الأقل فرض هذه الصّورة على نموذج هامّ من نماذج المرأة الفلسطينيّة قبل أوسلو وتبعه في هذا التّحديد الملمحيّ الكثير من الأدباء، "فأمّ سَعد هي أمّ الجميع، إنّها الفلسطينيّة في داخل فلسطين، وهي أمّ الفدائيّ الّذي شبّ على أرض المنفى، وهي –أيضًا- الأمّ الرّوحيّة للمثقّف الثّوريّ الّذي يريد أنْ يكونَ ابنًا بارًّا لفلسطين الثّورة ولفلسطين الكادِحين"[4]، وبذلك يكون كنفاني قد مهّد لجيل سعد بجيل من الأمّهات يكتنزن الثّورة بالفِطْرَةِ، وتنمّي فيهنّ الخيبات المتلاحِقة وعيًا ذاتيّا وطنيّا، جيل مثّلته أمّ سعد، أمّ تعي عبثيّة الاتّكال على القوى الغيبيّة وفساد السُّلطة الدّينيّة، ولها من الإيمان والشّجاعة ما يدفعها لاستبدال حجابها الدّينيّ القديم برصاصة كان سعد قد تركها في البيت، إضافة إلى هذا الوعي الذّاتيّ الوطنيّ فهي ودون أن تدرس نظريّات الاقتصاد والرّأسماليّة انحازت بعفويّة إلى صفّ العمّال ضدّ رأس المال وخدّامه المتمثّلين بصاحب البناية والتّاطور[5].

1 انظر: http://www.alriyadh.com/900911، استُرجِعَ بتاريخ: 20\10\2019.

2 كنفاني، غسّان: **أم سعد**، ص 37.

3 أبو مطر أحمد: **الرّواية في الأدب الفلسطيني، 1950 – 1975**، ط1، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، 1980، ص 250.

4 عاشور، رضوى: **الطّريق إلى الخيمة الأخرى "دراسة في أعمال غسّان كنفاني"**، ط2، منشورات دار الآداب، بيروت، 1981، ص126.

5 انظر: حبيب، نجمة خليل: **رؤى التقي والعودة في الرّواية العربيّة الفِلَسطينيّة**، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنّشر، بيروت، 2014، ص 83 – 85.

المرأة في مُخَيّم أمّ سعد

خلا مُخيّم أمّ سعد من صُوَرِ المرأة غير صورة أمّ سعد، إذ قصر غسّان نساءهُ على أمّ سعد المرأة الفلسطينيّة الإيجابيّة الصّلبة الفاعلة الثّوريّة، بينما اختفت المرأة السّلبيّة والمغتربة، والمستغلّة والمنحرفة، والمتمرّدة والتّابعة، فكلّ هذه صور لم تظهر في مخيّم أمّ سعد لكنّ الدّراسة ستظهرها -لا بدّ- في مخيّمات أخرى من مخيّمات العيّنة، فليس من المنطق تهميش كل نماذج المرأة تحت سطوة المرأة القويّة الصّامدة في مواجهة كُلّ هذه الكوارث دون أن ينكسر لها جناح، تنجب لكيّ تمدّ الثّورة بأبنائها، ورغم هذه الصّورة الصّلبة إلّا أنّ غَسّان: لم يقع في الخطأ الشّائع الّذي يقع فيه العديد من كتّاب العالم الثّالث المرتبطين بحركات تحرّر بلدانهم حين يخلقون صورة مثاليّة للإنسان الكادح ويمجّدون بشكل مُطلق ثقافة الشّعب وأنمطته الحضاريّة، إنّ تمجيد غسّان لأمّ سعد ليس سوى تمجيد لجوهر ارتباطها بالأرض والثّورة، وهي في النّهاية ليست صورة مثاليّة إذ تمسح وتغسل وتكدح، وتعامل من زوجها معاملة فظّة، إذن، ما يمجّده غسّان هو الثّورة يمجّدها كقيمة مطلقة قادرة على التّغيير وعلى خلق روح جديدة في المخيّمات، روح الانبعاث[1].

في أمّ سعد اختلف المخيّم، لم يعد مأوى للاجئين، صار مجتمع الثّائرين، سادت الرّوح التّضاليّة في كلّ فئاتِهِ، فلم يعد دلالة هزيمة واستضعاف وبؤس إذ سُمِعَتِ الثّورة من أزقّته، لكن وعلى الرّغم من هذه التّقلة النّوعيّة للمخيّم كمفرّخ للثورة وداعٍ إلى العودةِ ومُعسكرٍ مقاومٍ، إلّا أنّ أمّ سعد ومخيّمها يخضعون لمجتمع الذّكورة، فالمقاومة عندها درجات في القيمة والأهميّة، أعلى هذه الدّرجات هم الرّجال المقاومون حاملو السّلاح، وهي إنْ لزِمَ الأمر تكتفي بأن تطبخ لهم وتخدمهم بعينيها، فالثّورة ذكوريّة وإن تربّت على يديّ أمّ سعد، وخدمة المقاومة أنثويّة وإن كانت هي أصلُ الوعيِ الذّاتيّ الوطنيّ، وعند هذه الملحوظة تقف رضوى عاشور فتقول: "إنّ أمّ سعد رغم ثوريتها تظلّ صورة للمرأة الأمّ، وعطاؤها العَظيم يعطيها مكانتها كأمّ ثوريّة أكثر منها كثوريّة ذاتها وبذاتها، إنّها تعطي ابنها للثّورة وهي حين تقول كلمتها العظيمة "خيمة عن خيمة تفرق" تلحقها بالقول بأنه لولا مسؤوليّة تربية أطفالها للحقت بالفدائيّين لكي تطبخ لهم وتخدمهم، إذن يظلّ دورها هنا، حتّى في الثّورة، دور المساعد وليس دور الفاعل الأساسيّ"[2].

1 انظر: عاشور، رضوى: **الطّريق إلى الخيمة الأخرى**، ص126 – 127.

2 عاشور، رضوى: **الطّريق إلى الخيمة الأخرى**، ص130.

كَيْفَ خُتِمَت روايَة أمّ سعد؟

"برعمت التّالية يا بن العمّ، برعمت"[1]، هكذا ختم غسّان كنفاني رواية أمّ سعد، في دلالة ظاهرة على نموّ الثّورة وتعاظمها، يؤكّد ذلك استبدال أمّ سعد الحجاب الّذي كان مُعَلّقًا في صدرها بالرّصاصةِ؛ ليثبت على أنّ العودة إلى فلسطين لا تكون بالصّلاةِ والتّمنّي، بل بالمقاومة والعمل الفدائِيّ، إذن، نهاية غير مأساويّة تحمل الأمل وحقّ العودة في طيّاتها.

1 كنفاني، غسّان: **أمّ سعد**، ص92.

مُخَيَّمُ العُشّاق

"في الضّفّة الفِلَسْطينيّة أو عَمّان

أو دِمَشْق أو بيروت، أو تونس...

أنا منفيّ، حتّى لو كُنتُ في جَنّةِ الله!"[1]

أرّخت رواية العُشّاق لرشاد أبو شاور[2] لما بين التّكبة وأحداث أيلول (1948 – 1970)، وقد جرت أحداثها في مخيّمات مدينة أريحا الّتي نزح إليها الفلسطينيّون عام 1948، وتوزّع السّرد فيها على ثلاث مراحل تاريخيّة بالتّداخل لا بالتّناوب؛ ففي المرحلة الأولى تحدّث عن تاريخ مدينة أريحا القديم وقيمتها الجغرافيّة، وأرّخت المرحلة الثّانية للفترة الواقعة ما بين التّكبة والنّكسة، وتفرّدت المرحلة الثّالثة بالحديث عن مخيّمات أريحا بعد وقوعها تحت الاحتلال الإسرائيليّ أي ما بعد هزيمة حزيران.

وَصْفٌ عامٌّ لمخيّم العُشّاق

تعدّدت مَلامِحُ الفقرِ والتّعاسَةِ في المخيّمات الفلسطينيّة لكنّها في النّهاية تتشابهة، فالمخيّمات -أكانت خيمًا أم تنكًا أم طينًا- تتشابه في بؤسها وسوء حالها وانعكاس ذلكَ كُلّهِ على أفرادِها؛ ففي العُشاقِ الّتي وصف بها صعوبات الحياة في مخيّمات عين السّلطان والنّويعمة وعقبة جبر[3] وَصفًا عامًّا في بِداية روايته: "عِندَ سفحِ جبل التّجربة الوقور، الأُسْطوريّ،

---

1 حبيب، نجمة خليل: **رؤى التقي والعودة**، ص305.

2 رشاد أبو شاور: قاصّ وروائي فلسطينيّ من مواليد 1942 في قرية ذكرين قضاء الخليل – فلسطين، انخرط في صفوف المقاومة الفلسطينيّة واستلم عدّة مناصِب في مُنَظّمة التّحرير الفلسطينيّة، من مؤلّفاته القصصيّة: ذكرى الأيام الماضية، بيت أخضر ذو سقف قرميدي، مهر البراري، عطر الياسمين، أرض العسل، ومن مؤلّفاته الرّوائيّة: البكاء على صدر الحبيب، العشّاق، الرّبّ لم يسترح في اليوم السّابع، انظر:
https://www.marefa.org/%D8%B1%D8%B4%D8%A7%D8%AF_%D8%A3%D8%A8%D9%88_%D8%B4%D8%A7%D9%88%D8%B1

3 انظر: **ملحق (3)**.

تتنائرُ ألوف البُيوت الطّينيّة المَسْقوفة بالخَشب والبوص، وهذه البيوت الممتدّة قرابة الكيلو متر، هي بيوت مُخيّم (عين السّلطان)، المُخَيّم الّذي يفصله عن مُخيّم التّويعمة وادٍ عميق، ترتبط ضفّتاه بجسر صغير بناه الإنجليز أيّام الانتداب"[1].

إذن، ألوف البيوت تتنازع الكيلو متر الممنوح لها، حياة كاملة يجب أنْ تُعاش على هذا الكيلو متر بكلّ مواقفها وحاجاتها، لا في المخيّمين السّابقين فحسب بل في مخيّم عقبة جبر كذلك، ثالث مخيّمات الرّواية: "في هذا المخيّم يعيش ثلاثونَ ألفًا من الفلسطينيّين الّذين طُرِدوا من قراهم ومدنهم عام 1948، في المخيّم مدارس أسّستها وكالة غوث اللاجئين، وفي المخيّم مدرسة يشرف عليها حزب الإخوان المسلمين، الحزب السّياسيّ الوحيد المسموح له بممارسة نشاطِهِ العلنيّ في الأردن"[2]، ويسترسل أبو شاور في روايته - فيما بعد - ليعلن أنّ في المخيّم جمعيّة رياضيّة مشكوكا في أمرها، وفي المخيّم أحزاب شيوعيّة وبعثيّة وقوميّة، وعلّ هذه الإشارات الحزبيّة لم تكن ظاهرة في بدايات رواية المخيّم الفلسطينيّ؛ إذ كانت الرّاية الّتي تظلّل شعب المخيّم هي راية الوطن بنكبته ونكسته فيما بعد.

استغنى الفلسطينيّ بعد فترة في هذه المخيّمات عن الخيام، وأقام بيوتا من طوب، بعد أن مزج التّراب والماء والتّبن واستخدم أعواد البوص المجفّفة؛ في محاولة لتقريب مظهر المخيّمات الخارجيّ من أريحا المَدينة:

"وصلنا المخيّم، يا أستاذ إلى أين أتّجه؟

أشار للسّائق

ها هي بيوت الطّين، المسقوفة بالبوص والأخشاب والطّين الجاف هنا، الأرض التّاعمة الّتي تملأ الأنوف والعيون في الصّيف بغبارها ... أمام باب البيت وقف، تحسّس الباب الصّدِئ والإطار الخَشبيّ المتشقّق، قرع الباب، فجاء صوت الحبيب"[3].

في حينِ فاضَ مخيّم أمّ سعد فقتلَ آمال سُكّان المخيّم، وزادَ وحل الحياة وحلًا، فإنّ مخيّمات العُشّاق عانت مُعاناة الصّيف لا الشّتاء: "في أريحا عاش النّاس على ما تنبته الأرض من بقول، وأعشاب، وخضار، لكنّهم فقدوا عشرات

1 أبو شاور، رشاد: **العُشّاق**، ص6.

2 **المصدر نفسه**، ص8.

3 **المصدر نفسه**، ص44.

الأطفال والنّساء، والشّباب، والشّيوخ في صراعِهم الحياتيّ مع العقارب، والأفاعي، والبعوض، والجوع، والأوبئة"[1]، وكأنّ أهل المخيّم لن تنجيهم رحلة الشّتاء ولا رحلة الصّيف؛ فلكلّ واحدة موت يلائمها وبؤس يتماشى مع طقسها، ولأنّه لا مفرّ للاجئ الفِلَسطينيّ من هذه الحياة، ولأنّ حلم العودة أصبح يتلاشى في عيون أبناء مخيمات العشّاق رويدًا رويدًا بعد ربع قرن من النّكبة أو ما يزيد، فقد عمّر اللاجئ في هذه الأرض الترمليّة المتزامية المُهملة، فنمت فيها الحياة والخضرة: "وعامًا بعد عام، أخذت الأفاعي والعقارب والبعوض، وبعض الأنواع الضّارّة الأخرى، في الاختفاء، وَإِنْ لم تنقرض تماما"[2].

المقارن بين مخيّم أمّ سعد في رواية غسّان كنفاني وأمّ محمود - إن جاز للدراسة تمليك اسمها المخيّم - في رواية رشاد أبو شاور العُشّاق، يلحظ أنّ خطّ الرّواية في وصف المخيّم انحرف عن مُجرّد وصف مذلّة المعيشة فيهِ وضيقِ طُرقاتِهِ واهتراءِ غُرَفِهِ، إلى توسيع دائِرة شخصيّاته وأحداثِهِ والاسترسالِ في أثره على الأفرادِ سياسيّا واجتماعيّا وثقافيّا، مع إدخال تفاصيل يوميّة لافتة تدلّ على تأثّر المخيّم وأفراده بالمحيط الخارجيّ، يعود ذلك في غالب الأحيان إلى تطوّر الحياة في المخيّمات على الأصعدة كافّة، وتأثّرها بالمحيط وتأثيرها عليه.

وكالة الغوث "الأونروا" في مخيّم العُشّاق

هذا الفقر وهذا العَوَز لم تَسْتَطِع أنْ تُساهِمَ وَكالَةُ غوثِ اللاجِئينَ الفلَسْطينيّين "الأونروا" في الحدّ منه أو تخفيفِهِ، إذ رغم المعونات الّتي كانت تَصِلُ، إلّا أنّ الحاجَةَ أعْظَم، ويدُ السّارقينَ لهذه المعونات أكثر طولًا، إذ تصِلُ إلى المؤن قبْلَ أن تصِلَ يدُ أصحاب الحقّ إليها، وإن كانَ أهل المخيّم قد أخذ بعضهم على عاتِقِهِ همّ حماية هذه المعونات وإيصالها إلى مستحقّيها، لكنّ الأمر كان بحاجة إلى قوّة أعظم، فها هو المخيّم يجابِهُ بعضَ أبنائِهِ الّذين ترأسوه وسرقوا ماله: "ضربوه لأنّه يحرس مخازن توزيع مؤن وكالة الغوث، إنّه يراقبهم بحزم، لقد رفض أكثر من مرّة أن يسمح لهم بإخراج المسروقات ... لن أسمح لهم بالسرقة حتى لو طردت، ألا يشبعون، إنهم يحصلون على رواتب عالية، ومع ذلك يلاحقون اللاجئين

1 أبو شاور، رشاد: **العُشّاق**، ص9.

2 **المصدر نفسه**، ص11.

على حفنة الطحين، وقطعة الصابون، ولحسة السكر"[1]، من خلال هذا الاقتباس من الرّواية يظهر التّهديد الّذي يتعرّض له أبناء المخيّم في قوت يومهم، فحتّى ما تمنحه لهم الوكالة لا يستطيعون الحصول عليه إلّا بالعناء والمذلّة، إذ إنّ الشّرطة ورئيس المخفر ومدير المخيّم ومساعده يشكّلون عصابة للاستيلاء على هذه المؤن، أضف إلى ذلكَ مخاتير المخيّمات الّذين يعتبرون أنفسهم أوصياء على أهل المخيّم والأعلم بكيفيّة توزيع الحِصص عليهم، بعد أنْ يستولوا على حِصّة الأسد من المعونات المُقَدّمة، ويعيشون حياة مترفّة مقارنة بحياة بقيّة أهل المخيّم: "من أين لكم ألوف الدّنانير، تبنون بها هذه المزرعة الهائلة، وتشترون ألوف الصّيصان، وتربّون الأبقار الهولنديّة، وتمتلكون المحالّ التّجاريّة؟! تسرقون كسرة الخبز من أيدي الأطفال، تلصون البطانيات الرّديئة الّتي يرسلها العالم لتدرأ البرد عن أجساد أنهكها الجوع والبرد وهدّتها الأمراض؟"[2].

العالة في مُخَيّم العُشّاق

هذا الظّلم وهذه المؤامرات الدّاخليّة والسّرقة لحقوق أهل المخيّم غذّت الحقد في نفوس شباب أهل المخيّم، فلم يعد عدوّهم الوحيد في هذه المرحلة هو الاحتلال الصّهيونيّ بعصاباته، فكثرت الجبهات الّتي يُواجهها أبناء المخيّم، فتارة يحاربون العصابات الصّهيونيّة إذا ما استطاعوا الوصول إلى نقاط التّماس بينهم، وتارة أخرى الشّرطة التّابعة للحكومة الأردنيّة في ذلك الوقت، وثالثة مخاتير وظُلّام المخيّم الّذي تفرّدوا بأمواله وحاولوا أن يتفرّدوا بقراراته. هكذا اتّسعت رقعة المواجهة في مخيّم هذه الرواية بالمقارنة مع مخيّم أمّ سعد، فها هم أبناء المخيّم يواجهون أنواعا متعددة من الظّلم وأطرافا عديدة من الأعداء، لكنّهم قادرون على إدارة هذا الصّراع ومواجهته فقد صهرهم الجوع والتّشرّد والفقر في معاناة واحدة، وحّدتهم ومنها انطلقوا: "قبل أيّام انقضّ مجهولون -وهم ليسوا مجهولين- وهاجموا خالي أبو نعمان، وهشّموا رأسه، أتدري السّبب؟ لقد كَشَف سرقاتهم وفضحهم. قال لهم في البداية: هذا حرام، تسرقون المساعدات الّتي ترسل من آخر الدّنيا للفقراء والجوعى من أبناء جلدتكم"[3]، فيحاول الشّيخ أبو نعمان تقديم شكوى لمدير المخيّم والشّرطة وكلّ جهة مسؤولة، والرّدّ يكون ما بين السّخرية منه أو محاولة رشوته أو تهديده، إلى أن وصل الحال بهم بأنْ ينقّذوا التّهديد ويهشّموا رأسه بعد

1 أبو شاور، رشاد: **العُشّاق**، ص60.

2 **المصدر نفسه**، ص77.

3 **المصدر نفسه**، ص117.

أنْ شهّر بهم في المخيّم فيكون الرّدّ على يدي ابن أخته حسن، الّذي يعترف لصديقه محمود ابن أختِ المختار: "وبلا طول شرح، وفي اليوم الّذي خرجت أنتَ فيه من السّجن، قمت أنا بإحراق المزرعة ..."[1].

لقد نظر أهل المخيّم إلى هذه الفئات المستغلّة على أنّها فئات خائِنة للوطن والضّمير والأخلاق، فقد تنازلت عن مبادئها وقيمها وأخلاقيّاتها لأجل المال: "ابن أكابر، الله يرحم أيّام زمان، ما كان يفارقنا، لقد ترقّت الحالة مع والده في الوكالة"[2]. إذن يتنافى العمل الوطنيّ مع العمل في الوكالة، إذ ينظر أبناء المخيّم المقاومون إلى الوكالة وكأنّها يد من أيدِ الحكومة أو الاحتلال، إنّها تستطيع غسل أدمغة الشّباب ونسلهم من المقاومة، وهذا الّذي حصل مع صديقهم قاسم الّذي كان يعمل والده في الوكالة، وقد تأثّر هو بهذا العمل فخفّف من لقاءاته بهم في اجتماعاتهم حتّى تحوّل في آخر الرّواية إلى مسالم يبحث عن حلول ومساومة مع جميع الأطراف المعاديّة، وإن كان هذا الصّوت قد ظهر في الرّواية إلّا أنّه بالمقارنة مع صوت المقاومة والسّلاح يعد صوتا خفيضًا يكاد يُسْمَع.

تفشّت العمالة في المخيّم، من أبناء المخيّم ذاتهم وخاصّة المخاتير الّتي أظهرت صورتهم في كثير من الأحيانِ تواطؤًا مع الاحتلال الصّهيونيّ وداعما له داخل المخيّمات خاصّة في محاولاتهم المتكررة لإخماد أيّ ثورات أو مقاومة، إذ كثيرا من كان يتوسّط المختار لأبناء المخيّم الّذين يتمّ اعتقالهم: "اذهب وأخبر خالك المختار، قال محمّد: ولماذا أخبره، إنّه يعرف، فهو الصّديق الحميم للشّرطة والمخابرات ... يا ولد لم لسانك ... بعد قليل ستقول إنّه سبب حبس أخوك ... أنا لم أقل، النّاس يقولون وأنتِ"[3].

كما وظهرت العمالة في عهد الحكومة الأردنيّة إذ إنّ المخيّم كان في مرحلة من مراحل سرد الرّواية تحت الحكم الأردنيّ، فكان بعض أبناء المخيّم يسهّلون المعلومات للحكومة الأردنيّة الّتي بدورها كانت تهدف إلى إخضاع سلاح المقاومة بالطّرق كافّة:

- "قال حسن: أحمد خطّاب غادر أريحا مع أسرته اليوم، لقد غادرها إلى الأردن. العرص، لقد نفذ بجلده
- قال محمود: رحل بعد أن قدّم خدماته لليهود ...

1 أبو شاور، رشاد: **العُشّاق**، ص117.

2 **المصدر نفسه**، ص103.

3 **المصدر نفسه**، ص 51.

- قال حسن: ربّما يُواصل تقديمها وهو هناك في عمّان"[1].

أضِف إلى ذلِكَ الشّخصيات الّتي كانت تعبر المخيّم تحت لفظة (الخواجا) فهي عمالة أخرى، إذا ما أضيفت عمالة وكالة الغوث الّتي تحدّثنا عنها سابقا، إذن، توسّعت شريحة الخيانة ونماذجها داخل المخيّم، النّماذج الّتي كانت إمّا تعمل لمصالِحَ ذاتيّة أو تعمل لمصالح الحكومة أو العصابات الصّهيونيّة، وكلّها دائِرة واحدة خيطها يبدأ بالذّاتيّة ويعود إليها بعد المرور بالفئات السّابقة الذّكر: "أيّ صيدة تقصد؟ الخواجة داوود، إنّه رجل مخابرات رهيب، يُجيد العربيّة، يجوب أريحا مشيًا على الأقدام، يتعرّف إلى الشّوارع والنّاس والأمكنة والماسونيّون يستقبلونه في بيوتهم، وهو يدّعي أنّه عالم آثار"[2].

"لا أظن، الخيانة الوطنيّة ليست وجهة نظر، والخائن لا يعود عن خيانته بقرار، الخيانة مصلحة وامتيازات وسلوك"[3]، هذه العبارة الّتي يُطلقها محمود في وجه صديقه حسن بعد إحراق مزرعة المختار خال محمود، كافيَة بأنْ توْصِم الخائن بوصة العار ما حَيي، وتُفقد الآخرين الثّقة فيه أبدا، فالسّائر في طريق الخِيانَةِ لا يردَعهُ أمر ولا يعيدُ ضميره الوطنيّ والأخلاقيّ حَدَث، فهي ليست وجهة نَظَر قد يعيد الشّخص التفكير بها، الخيانة منهج يسير عليه الخائن بعد أن يتعرّى من كلّ مبادِئِه ليحلّ الخيانة محلّ كُلّ مبدأ شريف.

المقاوَمةُ في مُخَيّم العُشّاق

أدّى ضعف الحكومة الأردنيّة وتخاذلها في الدّفاع عن المخيّمات إلى أنْ يأخذ المخيّم بأبنائِهِ المقاوِمين زمام الأمور، فهو السّلطة العليا، يسعى للتّخلّص من كُلّ سُلطَةٍ عليه، ففي حين كانت الحكومة الأردنيّة في مخيّم العُشّاق تعارض توجّهم التّضاليّ بقمع شبّانهم بالسّجن والاضطهاد والإبعاد، كان شبّان المخيّم يغتربون عنها ويرفضونها ويؤسسون لثورتهم وإن كانت في بداياتها تلقائيّة غير منظّمة، لكنّهم استطاعوا تشكيل تنظيمات سريّة مقاوِمَة استهدفت فئات الخائِنين من مخاتير ورجال سلطة أردنيّة ظلموا وأساؤوا إلى أبناء المخيّم، وصولا إلى عمليات تسلّل -محدودة- في أراضي الـ48، إلى أن أخذت تتطوّر شيئًا فشيئًا: "قال حسن: الحقيقة أنتَ كنت في السّجن، وقاسم دعوته للاجتماع فلم يحضر، عندئذ

1 **المصدر نفسه**، ص207.

2 **المصدر نفسه**، ص 207.

3 **المصدر نفسه**، ص118.

اجتمعت مع نفسي واتّخذت قراري ونفّذته"[1] هذا القرار بحريق مزرعة المختار يعني رفض كُلّ سلطة عليه، وليس محاسَبة الخائِنين فقط، إذا ما أضيف إلى هذا المشهد مشهد آخر، وهو إسقاط العلم الأردنيّ الّذي لم يُفِد أهل المخيّم بشيءٍ إلّا أنّه تواطأ مع كُلّ الخائِنين ضدّهم، والاكتفاء بعلم فلسطين الّذي اهترأت أطرافه، لكنّه كافٍ ليُشعر ابن المخيّم بوجوده وحقّ العودة الّذي يرتجيه: "ارحلوا، ولكن خذوا معكم العلم. أخذ الشّبان ينزلون العلم عن الصّارية بواسطة الحبل، قال محمّد: هذا العلم لم تدافعوا عنه، أمّا نحن فهذا علمنا، انظر إنه علم فلسطين، هذا العلم مجعّد ممتزئ الحواف ... ولكنّه اليوم سيرفرف عاليا"[2].

رغم انفراد المخيّم بسلطته، والعمل الثّوريّ من داخله إلّا أنّه لم يستَغْنِ عن المدينة في تحرّكاتِهِ لا سياسيّا ولا اجتماعيّا؛ فقد كان أبناء مخيّمات العشّاق يذهبون إلى أريحا يتفرّجون على بناتها "الأنيقات الحلوات اللواتي يرتدين ملابس قصيرة ملوّنة تنحسر عن لحم طازج شهيّ، لوحته الشّمس فاكتسب سمرة مثيرة"[3]، كما أنّ أيدي أبناء المخيّمات هي الّتي عمّرت بيّارات أريحا ودجّنت الأرض الرّملية المترامية المهملة منذ مئات السّنين، فأيدي الفلاحين اللاجئين أضفت الحياة على أريحا المدينة بعد موت، ووسّعت الخضرة وضيّقت الأرض الرّمليّة القاحلة.

المدينة- إضافة إلى أثرها الاجتماعيّ وعلاقتها بأبناء المخيّم باعتبارها مكان عمل ومكانَ تسكّع وترفيه عن التنفس- هي قِبلة سياسيّة لا غنى عنها، فالمقامون في المخيّم يأخذون أوامرهم وخططهم من المدينة أو لا بدّ من وجود تنسيق بينهم: "لأنّ اكتشاف أيّ جثّة سيجعلهم يبحثون عن الفاعلين في منطقة أريحا، نحن لن نقوم بأيّ عمل قبل أن تبدأ العمليات في نابلس والقدس والخليل"[4]، فالمدينة بالنّسبة للمخيّم واجهة للعمل الثّوري ومدّ للمقاومة في سلاحها، إذ ينتمي ابن المخيّم للمدينة كبديل عن الوطن المفقود في ذاكرته: "أنا لا أشعر بالغربة في القدس، ولكنني أشعر بالقهر، القدس عاصمة وطني، ولكنّها مجزّأة، جزء يغتصبه الصّهاينة، وقسم يلجمه الملك، ويعمل بدأب على تغييب اسمه"[5].

رغم محاولات التّيئيس الّتي حاولت الحكومة الأردنيّة في رواية العشّاق جرّ أبناء مخيّمات أريحا إليها، من قمع واضطهاد واعتقال وتعذيب ومحاصرة وكبت حرّيّات، إلّا أنّهم استطاعوا أن يدافعوا عن مخيّماتهم وينادوا بالعودة

1 أبو شاور، رشاد: **العُشّاق**، ص118.

2 **المصدر نفسه**، ص175.

3 **المصدر نفسه**، ص11.

4 **المصدر نفسه**، ص209.

5 **المصدر نفسه**، ص 127.

المسلّحة، فالقارئ للرّواية يلمس مناداة بالعودة منذ بداية صفحاتها حتّى الختام، فلا الأسر ولا الشّهادة ولا الإهانة ولا القمع ثناهم عن التّواصل مع التّنظيمات الأخرى في بقيّة المدن والمخيّمات، ولا عن الاستمراريّة في المقاومة المسلّحة والدّعوة إليها، فأسسوا خليّة تنظيميّة مصغّرة مكوّنة من أربعة شُبان أساسيّين (محمود، حسن، زياد، قاسم)، يُساندهم أنصارٌ سرّيون من بينهم ندى حبيبة محمود وأمّه وأخوه، وأمّ حسن وخاله أبو نعمان، وصاحب المقهى وحارس البستان... وشخصيّات أخرى تتساند لتعلي معهم راية المقاومة وتحوّل الثورة والمقاومة من شخصيّة انفعاليّة إلى جماعيّة واعية تأخذ بالأسباب والآراء.

لعب محمود دور المقاوم المثقّف صاحِبِ الفِكر والثّقافة والتّضج الثّوريّ، هذا المثقّف الّذي لا يملّ قراءة غسّان كنفاني تحديدًا رواية "رجال في الشّمس" وهذا التّرميز ليس عابرًا، فالرّواية تؤسس لرفضِ المنفى أيّا كان، وتوجّه البوصلة إلى الوطن تمامًا، فلو أنّهم اختاروا الوجهة الصّحيحة والطّريق الصّحيح لما انتهى بهم المطاف إلى الموت على مزبلة بعد أن قضوا نحبهم داخل الخزّان: "محمود يجلس في الغرفة، يقرأ رواية غسّان كنفاني "رجال في الشّمس" محمّد يقف بالباب، ويتطلّع صوب الشّرق، إلى الجبال البعيدة الرّماديّة ... هذه الرّواية لا أملّ قراءتها، لقد ماتوا لأنّهم اختاروا الطّريق الخطأ، ميتة رهيبة ... إنني أحزن لأجلهم ... الموت على مزبلة، يا للنهاية الموجعة!"[1].

محمود المقاوم الّذي سُجِن ستة أشهر ولم يعترف بشيء: "ستة أشهر من التعذيب والبهدلة والحبس، لا أرى سوى وجوه الشرطة والمخبرين، ولا ألتقي بغير مهربي الأبقار لليهود، وتجار المخدرات ..."[2]، لم يكن اعتقاله مع هذه الفئات عفويّا وإنّما لتزيد الحكومة الأردنيّة من الإهانة ومحاولة القمع والتّضييق على المقاوِم المثقّف، المُقاوِم الّذي يكتب المنشورات ويوزّعها بالتّعاون مع زملائِهِ على بقيّة المخيّمات والمدن وكلّ مسافةٍ يستطيعون إليها سبيلا: "قال محمود: تركب الدراجة، وتسلم المنشورات لفايز في عقبة جبر، تخبره أن توزيعها الساعة الواحدة صباحا ... وانتبه لا تذهب على الطّريق الرّئيسي، اسلك الطّريق الجانبيّة ... الليلة، ستوزّع المنشورات في القدس والخليل وأريحا ونابلس، وهكذا لا يستطيعون حصر وجودنا في منطقة واحدة ..."[3]، هذه الثّقافة وهذه المنشورات ساعدت محمود كي يدرس خطواته مُسبقا، إذ إنّه في اعتراض دائم على وثبات حسن وردود فعله السّريعة والفرديّة، فهو ينادى دوما بالعمل الجماعيّ

1 أبو شاور، رشاد: **العُشّاق**، ص212.

2 **المصدر نفسه**، ص64.

3 **المصدر نفسه**، ص145.

والمقاومة الجماعيّة لأنّ الخلاص لا يأتي من الأعمال الفرديّة بل يضعف المقاومة والثّورة، وإذا استشرى العمل الفرديّ في المقاومة، فإنّه سيحوّل التّنظيم إلى مجموعة من الإرهابيين، وهذه المنشورات وما فيها من محاولة توعية للشّعب هي الزّاد الّذي تعتمد عليه المقاومة، فسلاح العقل يوازي سلاح اليد، نعم هو المقاوم العاشِقُ لوطنه ولحبيبته ندى، والّذي يكلل هذا الحبّ بطلب يدها للزّواج، هذا الحبّ الّذي يزوّده بالمقدرة على المقاومة: "أخذ يدير فكرة الزواج في ذهنه، يقلبها، يتفحصها، الزواج، الزواج يعني أنا وندى، يعني سننجب أطفالا، ربما أسجن أو أموت. نعم أموت! ولكنّها تستطيع أن تربّي الأطفال الّذين سننجبهم، إذا سجنت ستنتظر (أبوكم رجل أحب الوطن فأعطاه شبابه) سيفخر الأولاد بي عندئذ ..."[1]، هذا الوعي لدى محمود بمصير المقاومين وأبنائهم يبيّن نضجه الثّوريّ وإدراكه أنّ المقاومة مسيرة طويلة وليست مؤقتة محكومة بمرحلة معيّنة، هي واجب فلسطينيّ يرتبط بكلّ تفاصيل حياتهم، وهذه الثّقة بندى تنمّ عن دور المرأة في المقاومة الفلسطينيّة، دورها العظيم الّذي قامت به ثانويّا كان أم أساسيّا.

في حين كانت المقاومة في عينيّ محمود تروّيا ونضجا وفكرا وثقافة مع رفع السّلاح والمناداة الدّائمة بالعودة إلى الوطن، كان حسن صورة المقاوم الشّجاع المقدام والقوّة المنقّذة الوثّابة، منقادٌ لغرائزه متفرّد في قراراته، وقرار حرق مزرعة المختار خير دليل على ذلك: "تطلّع محمود في عينيّ حسن، وأعلن:

- أنت
- أنت دائمًا تدهشني، وأحيانًا أشعر أنّني لا أفهمك
- قال حسن: أما أنا فأفهمك، أنت تسير ببطْء وأنا أرى أننا أثناء سيرنا باتجاه الوطن يجب أن نستخدم الرّصاص والنّار لتطهير الجوّ حولنا.
- قال محمود: ولكن هذا عمل فرديّ، وإذا استشرى لن نكون تنظيما، سنتحول إلى مجموعة من الإرهابيين.
- أطمئنك لن يستشري، لأنّه لا توجد سوى مزرعة واحدة.
- قال محمود بحسم: سيكون هذا آخر عمل تأخذه على مسؤوليّتك"[2].

والتزم زياد بدور رجل الإعلام الّذي ساهم مع محمود في كتابة المنشورات وتوزيعها مع حسن، أيْ صلة الوصل بين القِيادَة المُنَظِّمَةِ والقاعِدَة الفدائِيّة التّطبيقيّة، بينما انحرفَ قاسم عن الخطّ الثّوريّ واتّبع مصالحه الشّخصيّة خاصّة بعد عمل

1 أبو شاور، رشاد: **العُشّاق**، ص 255.

2 **المصدر نفسه**، ص 119.

والده مع الوكالة، فصار ضعيف الولاء للمقاومة، فلم يعد يجتمع معهم ولا يشارك في تخطيط العمليات ولا تنفيذها: "قال محمود: نحن نلتقي لنقرر: من يبقى ومن يرحل.

- قال قاسم وهو يمطّ عنقه: لقد انتهى كل شيء أيّها الإخوة.
- سأله حسن: ماذا تقصد بـ "انتهى كل شيء"؟
- قال قاسم: أقصد الجيوش فشلت، واليهود دخلوا القدس، والليلة أو غدا يدخلون أريحا، أحلامنا انتهت.
- ... ردّ زياد: نحن لم نكن نحلم، باختصار، وطننا اغتصب، وشعبنا شتت في الدّنيا كلّها ... نحن نكافح كي لا نندثر"[1].

إلى جانب هذا الرّباعيّ كانَ هُناك عدد من المساندين للمقاومة في مخيّمات العُشاق، فأمّ محمود وأم حسن وندى ووالدها وآخرون انضمّوا وساهموا في العمل الثوريّ وسهّلوا مهمّة المقاومين حتّى تتكلّل بالنّصر، ففي العمليّة الأخيرة وهي الهجوم على دورية في مخيّم النويعمة، بعد استشهاد الشّيخ أبو نعمان خال حسن، تتوزّع المهام تلقائية وتزداد شريحة المشاركين، فمحمود ينظّم ويخطّط وحسن يقود الدّورية وينفّذ العمليّة بمشاركة أبو سمير السّائق الّذي عمل مع الفدائيين عام 1955، وقاتل عام 1948، والعجوز أبو جمال صاحب اليد الواحدة الّذي يجيد رمي القنابل وقد صفّى اثنين من جنود الاحتلال قبل يوم واحد من نيّتهم تنفيذ العمليّة وأخفى سلاحهما، بتعاون خفي من الشّرطيّ عطوة "الشّخصيّة النموذجيّة الّتي حملت الخصائِص التّوعيّة للأمّة من طيبة وبساطة وسرعة بديهة ووجدان وطنيّ صادق"[2] هو شرطيّ فلسطينيّ في مخفر أريحا لا يرضي رئيسه والرّئيس يتحاشاه كي لا يخبر عن سقطاته الجنسيّة، ولم تكن هذه العمليّة الوحيدة الّتي يشارك بها عطوة، بل شارك في كلّ العمليات الّتي قام بها المقاومون، فقد كان المسهّل لسير عملياتهم بالاستفادة من وظيفته ولباسه.

أبرزت رواية العُشاقِ وجهًا مُقاوما جميلا لم تعهده المقاومة الفلسطينيّة، وهو المقاومة الفنيّة الّتي اختارها محمّد أخو محمود، الّذي كان يدندن على عوده ويغنّي في كلّ مناسبات المخيّم من زواج وإفراج وتجمّعاتِ فرح، ورغم احتقار المجتمع

1 أبو شاور، رشاد: **العُشّاق**، ص170.

2 حبيب، نجمة خليل، **رؤى النفي والعودة**، ص319.

لهذا الدّور وتلقيبه بالمغنّواتيّ لكنّه بقيّ مصرًّا أن يشقّ طريق المقاومة بعوده وغنائِهِ: "لكن هذا العود لن يجعلك تحيا حياة لائقة ... هذا العود يا أمي هو السّراط الّذي سأسير به إلى الوَطَن"[1]

اتّحد أهل العُشّاق في البؤس والاضطهاد الّذي عايشوه يوميّا في مخيّماتهم حول المقاومين، فأخذ كُلّ منهم على عاتقه مسؤوليّة سواء بخطيط أو دون، فها هو الشّيخ أبو نعمان حارس الوكالة المُهان والمضروب بسبب حمايته لحقوق الفقراء، ينتقل إلى حراسة المخيّم بعد نزوح أهله منه في حرب حزيران، فيقف شوكة في وجوه العصابات الصّهيونيّة يمنعها من هد بيوت المخيّم، وينجح في ذلك، يساعد الثّوار في نقل الأسلحة وإخفائها إلى أن استشهد حارسًا في الجامع الّذي كان يؤذّن للصلاة منه، هذا شيخ المخيّم وعلى غراره كان أبو المخيّم الكاهن إلياس الّذي بقي في مخيّم عين السّلطان بعد فراغ أهله منه، يضلّل العصابات الصّهيونيّة ويحمي الفدائيّين وينقل رسائلهم ويطمئنّ على أحوالهم، يناصِرهم في مهامهم أبو ميخائيل صاحب الخمّارة الّذي أعطى الفدائيّين سيارته ليستخدموها في عملياتهم وشرع أبواب خمارته في وجوههم كي يختبئوا فيها عند الحاجة، وأبو خليل الّذي حاول حماية عقول أهل المخيّم من الخواجات والمدسوسين والمخابرات الّذين حاولوا تخريب عقول أهل المخيّم بأكاذيبهم، وأبو فوزي حارس البيّارة الّذي ساعد المقاومين في إخفاء جثّتي جنديين خطفهما المقاومون في بئر مهجورة في البيارة الّتي يعمل بها حارسا.

المتتبّع للرّواية من بداياتها إلى آخر صفحة فيها لا يستطيع أن يهمل أو يغضّ الطّرف عن تكرار المناداة بالعودة، إذن، فالعمل الثّوري والمقاومة لم يكن يهدف للحفاظ على المخيّم أو البقاء فيه، إنّه عملٌ لأجل العودَةِ إلى أرض الوَطَنِ، فطالما شعر الفلسطينيّ اللاجِئُ بأنّه لا ينتمي إلى هذه البقعةِ الممنوحة إليه، وإنّما ينتمي إلى مكان تجذّره: "هذا الكلام يا أمّي تعلّمته من رجال تعلّموا من استشهاد أبي وغيره من الرّجال، رجل يعرفون ويوقنون أنّ لا مستقبل لهم إلّا على أرضهم"[2]، فالشّهادةُ والمقاوَمَةُ وحتّى عزف الأغنيَة في المخيّم كُلّه تمهيد للعرسِ الكبير المنتَظَرِ، عُرس العودَةِ لكامل التّراب الفلسطينيّ: "ولدت على هذه الأرض، وأغنّي في أعراس أهلها، وذات يوم سأغنّي في عرسها الكبير، يوم تعود واحدة"[3].

1 أبو شاور، رشاد، **العشّاق**، ص83.

2 **المصدر نفسه**، ص84.

3 **المصدر نفسه**، ص55.

المرأة في مُخَيّمِ العُشّاق

أسهَمَتِ المرأة في مُخَيّمات العُشّاق إسهامًا فاعلًا في المقاوَمَةِ؛ فقد تنقّلت وتنوّعت أدوار نِسْوَةِ العُشّاق، فبالنّظَرِ إلى النّسوة الرّئيسات في العُشّاق: أم محمود، أم حسن، ندى، نجدُ أنّ كُلًّا منهنّ اتّخذت دورًا فاعلا وأساسيّا على الصّعيدين الاجتماعيّ والوطنيّ، فَأُمّ محمود عند خروج ابنها محمود من السّجن أخذت الدّور الأموميّ المتعارف عليه بامتياز: "أخذت تهزّ جذعه، كأنّما للتأكّد من وجوده، وتتحسّس عنقه، وأنفه، ومنكبيهِ، احنِ قامتك يا ولد، أتريد أن أحضر السّلّم لأبلغ رأسك، هاتِ جبينك أقبّله"[1].

هذه الأمّ الّتي أوصلت محمود إلى الشّهادة الجامعيّة، وحاولت أن تؤمّن مستقبله بما يكفل له العيش الكريم، إضافة إلى الوعي والتّضج الوطنيّ الّذي تسلّح به، ربّت فنانًا مرهف الحسّ يقاوم بعودِهِ ولحنه وغنائِهِ، رغم اعتراضها على ابنها محمّد ووصفها له باستمرار بالمغنّواتيّ كتقليل من شأن الأغنية واللحن اجتماعيّا في تلك الآونة، كلّ ذلكَ قامت به أمّ محمود بيدٍ واحدَةٍ لم يلْوِها الزّمان ولم يُثْنِها عن تقدّمها، كانت وحيدة مع ابنيها بعد استشهاد والدهما في محاولة للعودة: "لقد استشهد والدي، وتركنا صغارًا، وتركك بلا مال، وبلا بيتٍ، وبلا أمانٍ ... بكيت حزنًا في مرات كثيرة إذ تذكرت والدنا الّذي اغتاله حرس الحدود الأردنيّ، وهو يعود من الأرض بعد أن قاتل مع رفاق له ضدّ الاحتلال"[2].

لم يتوقّف دور أمّ محمود عند الاعتناء بالأبناء وتنشِئتهم على حُبّ الوطن والسّعي الدّائم للعودة، فبعد انتقالها مع ولديها إلى مخيّم عقبة جبر حتّى تهدأ الأمور في مخيّم عين السّلطان خلال حرب عام 1967، تحوّل بيتها إلى ملتقى للفدائيّين يناقشون الوضع السّياسيّ العام ويخطّطون لعمليّاتهم الّتي سيقومون بها بعد التّواصل مع التّنظيم ووصول الأوامر التّنفيذيّة لهم، برعاية الأب إلياس الّذي كان يتفقّد البيت ويساند من فيه من مقاومين، فعلى لسان الأب إلياس: "عندي أخبار طيّبة، زياد وبعض الرّجال في بيتكم الآن، وصلوا في الليل، ولكنني التقيت بهم في النّهار ... أحضرت لهم طعاما، وأعددنا الشاي ..."[3].

1 أبو شاور، رشاد: **العُشّاق**، ص44.

2 انظر: **المصدر نفسه**، ص82-84.

3 **المصدر نفسه**، ص233.

إذا ما تتبعت الدّراسة حياة أمّ حسن، فإنها تلمح طيف أم سعد يحيا بها، فهناك تشابه إلى حدّ لافت بين الشّخصيّتين، امرأة تحمّلت ظلم الزّوج وإهانته: "لعنة الله عليه، والله ما رأيت معه إلّا العذاب"[1]، كان زوجًا مهينا يكثر من ضربها ومزواجًا لا يهمّه من الدّنيا إلّا لذّته، وربّت ابنها -الّذي فضّل المقاومة والعمل الفدائيّ على الوَظيفة- على حُبّ الوطن وساندته في عمليّاته وقراراته هو ورفيقه في العمل الفدائيّ محمود: "يا فتى، تستطيعون أن تضحكوا على الحكومة، ولكن عليّ أنا، أم حسن، لا تستطيعون، أتريد أن تقنعني بأنكم أبرياء من التّهمة؟"[2]، إضافة إلى العمل الشّاق الّذي كانت تمارسه وهو صناعة الطّوب من التّراب والتّبن والماء وتجفيفه تحت الشّمس ليبنيَ النّاس بيوتهم، وهذا عمل شاق على امرأة: "يا لتلك المرأة، رآها، ساقاها، وقد شمّر الثّوب من حولها، مغروستان في الطّين، وهي تنتزعها، وتغوص بهما، متنقّلة، في بركة الطّين الكبيرة، تقدّمت وحملت كيسًا رشّت منه التّبن على وجه الطّين، ثمّ نقلت بعض الماء من البركة الّتي احتفرتها، ونقلت إليها الماء من الجدول، وعادت تمزج بقدميها الطّين الطّريّ"[3].

وثالث النّسوة الرّئيسات في العشّاق هي ندى، حبيبة محمود، الصّبيّة الّتي عملت على تثوير المجتمع ضدّ العادات والتقاليد البالية من خلال علاقتها بمحمود، الّذي لم تجد عيبًا في الإفصاحِ عنها أمام الجميع والسّير معه في الطّرقات عند خروجه من السّجن وملاقاته في الأزقّة وفي بيت أمّ حسن، في وقت كانت المدُن لا تتسّع للحب وتضيق به فماذا عن المخيّمات: "ألا تخافين أن يرانا النّاس معًا؟ قالت: ليرانا النّاس معًا. مدّت يدها، وفي عينيها تفجّر عشقٌ، كأنّه وجد الصّوفيّ في الحضرة"[4]، هذا الحبّ الواضح الصّريح الّذي استمر في صفحات الرّواية كاملة، وانتهى بطلب محمود يد ندى للزّواج في ثقة عميقة وثابتة منه أنّها ستساندهُ حتّى لو استشهد أو سُجِنَ فهي قادِرَةٌ على حمل مسؤوليّة البيت والأبناء من بعده بل وتنشِئتهم على حبّ الوطن والعمل المقاوِم.

لم تكتفِ ندى بدور العاشِقة المَعْشوقَةِ والزّوجة المستقبليّة، فقد أخذت دورًا فاعلا وأساسيّا في الحركة النّضاليّة، فأصدرت تصريحًا للسّفر إلى عمّان؛ كي تحمل أخبار العمل الفدائيّ في مخيّمات العُشّاق إلى التّنظيم: "ستخبرينهم بتصفية الجنود الصّهاينة على طريق القدس، والبحر الميت، وبعملية مهاجمة دورية في مخيم النويعمة، وقتل وجرح كل عناصرها واستشهاد المناضل أبو جمال، وأيضًا، ستخبرينهم باستشهاد الشّيخ أبو نعمان الّذي اغتيل في المسجد، وستطلبين إليهم

1 أبو شاور، رشاد: **العُشّاق**، ص62.

2 **المصدر نفسه**، ص59.

3 **المصدر نفسه**، ص 57-58.

4 **المصدر نفسه**، ص66.

تزويدنا بتوجيهاتهم، فضلًا عن السّلاح، ووسائل الاتّصال"[1]، وهذه مسؤوليّة ليست باليسيرة ألقيت على كاهل ندى لتحملها إلى عمّان، في مساندة واضحة لدور الرّجل المقاوم في العمل الفدائيّ دون أن تحلّ محلّه.

كيف خُتمت رِواية العُشّاق؟

"تمتم أبو خليل وهو يسير بمحاذاة الجدول، مصغيًا للخرير، (تزوّجا، يا محمود أنت وندى، وأنجبا كثيرا من الأطفال)، أنا أعرف أنّها موافقة. سمع ضحكة طفل جذلى، مرحة، ولكن الرّصاص كان يقطع تلك الضّحكة، الّتي كانت تعود لتنطلق من جديد، حلوة، مرحة"[2]، هكذا ختم أبو شاور روايته، بعد أن فقأ أبو خليل والد نَدى عينيّ الخواجا داوود رجل المخابرات الّذي يدّعي أنّه عالم آثار، في إشارة واضحة وصريحة إلى استمرار المقاومة والعمل الفدائيّ في سبيل العودة إلى الوطن، فهذه المقاومة لن تنتهي عند هذا الجيل وإنّما ستمتدّ إلى الأجيال المقبلة من الأبناء والحفدة.

1 أبو شاور، رشاد: **العُشّاق**، ص275.

2 **المصدر نفسه**، ص281.

مُخَيّمُ الطّوقِ

"دالية من كروم بربرة

هل يخنقها غبار البارود؟"[1]

وَصف عامٌّ لمخيّم الطّوق

"بيوت المخيّم مُتراصّة مثل علب الكبريت، غيّبت الآدميّين في جوفها حتّى الانتفاخ، فيما الرّياح تضرب الجدران في الأزقّة الضّيّقة ... تصْغُر، تتلوّى أصوات شيطانيّة حول السّقوف الواطئة، تُغربلها شَبابيك الزّينكو وفرجات القرميد فحيحًا جليديّا يجثم على الأجساد المحشورة في الغرف، تتلوّى الأجساد وتتقلّص على ذاتها، تقنع الرّبّ في السّماء بإمكانيّة تحوّلها إلى ديدان تجيد الاختفاء في عروق الأرض..."[2]

هذا الوصف الّذي يُقارب الصّورة النّمطيّة للمخيّم، اختاره الرّوائيّ غريب عسقلاني في الصّفحات الأولى من روايته الطّوق، الّتي توزّعت على ثمانية فصول، تدور جميع أحداثها حول فرض طوقٍ أمنيّ على مُخيّم الشّاطئ[3]، ورفع هذا الطّوق لمدّة ساعة كُلّ بضعة أيّام، في هذا الطّوق تدور كُلّ الأحداث وتتبلْور كُلّ الشّخصيّات، هذا الطّوق الأمنيّ الّذي صارَ عادَة يُفْرَضُ على أهل المُخَيّمِ، حتّى أنّهم لم يعودوا يعرفون سبب فرض الطّوق، وكأنّه نمط حياة وفكّهُ هُوَ الّذي يحتاجُ إلى طَرْحِ تَساؤُلات.

يطرح العسقلانيّ في وصفه العام للمخيّم كيفَ صارت له حُدود ظاهرة لا يتخطّاها أفراده، بل ويعرفها صغيرهم قبل كبيرهم: "حدودنا بين السّلك والبحر يا جدّتي، فالأسلاك على امتداد الإسفلت شرقًا حتّى قهوة كريزم، ومع الإسفلت أيضا جنوبًا وحدود ساحة السّوق شمالا، أمّا البحر فيكونُ ظهرنا الغربيّ"[4]، هذه الحدود الّتي تنطوي على حدود أكثر ضيقًا بطبيعة حال المخيّم ومعيشته تضيق أكثر فأكثر بسبب الطّوق الأمنيّ المفروض، فتعيش العائلة في غرفة واحدة

---

[1] عسقلاني، غريب: **الأعمال الرّوائيّةُ الكامِلة**، ط1، مج1، سمير منصور للطّباعة والنّشر والتوزيع، فلسطين\غزّة، 2016، ص 87.

2 **المصدر نفسه**، ص28.

3 انظر: **مُلحق (3)**.

4 عسقلاني، غريب: **الأعمال الكاملة**، ص39.

بانتظار ساعة التّجوال كي تُنَفّس عن روحها وتحرّر عِظامها، وقد يتطوّر الأمر لِتُشاركها الحيوانات (بغالا، أحصنة، دجاجًا) هذه الغرفة أو المِساحة الصّغيرة الّتي تحياها.

أبرز الطّوق حالة الذّلّ والفَقر الّتي يَعيشها أهل المخيّم، فلا عمل بفعل الطّوق ولا طَعام داخل البيت للسبب ذاته، فمساحة الغضب تضيق على سُكّان المخيّم، عَوَزٌ وفقر يفوق مقدرتهم: "أمّ صابر: لا يعرف المحروم غير المحروم ... عادَ بأرغفة الخبز المتبقّية لديه وخلطها ببقايا شعير وفتات كسب قديم تيبّست في قاع الجردل، بللها، ووضعها أمام البغل، إطعام البهيم أولويّة، تمدّد على فِراشِه وشدّ اللحاف على رأسِه لا يَأبه بِأمعائِهِ الّتي أخذت تتلوّى، ضحك بمرارة، لو تدري أنّ أمّ صابر قد عجنت وخبزت للبغل، وهي التي دائِمًا تقول: لا يذوق طعم النّوم الجائع والبردان والخائف"[1].

إذن، لا نوم يُظلل بيوت المخيّم، كُلّهم يتوزّعون على الأقلّ بين جائع وخائِف من غدٍ لا يُبَشّر بخير، فَكُلّ فرد يدرك تمامًا أنّه ليس ببعيد عن العقاب، فكما هو البحث عن خلاص جماعيّ، ووفاق تامّ في دعم الفدائِيّين، فالعقاب جماعيّ والرّقاق واحِدٌ والمُخَيّمُ وَحيد.

لم يتفرّد مخيّم الطّوقِ بهذا الوصفِ فهو مشاركٌ في معاناته لمخيّم أمّ سعد والعشّاق، من هذه الرّوايات وغيرها في الأدب الفلسطينيّ بل العربيّ تكوّنت صورة المخيّم المقرونة بشكل مباشر بالتّعاسة والفقر وسوء الحال، ورغم وجود وكالة الغوث إلّا أنّ ذلك لم يخفف وطأة المعاناة ولم يحدّ من نسبة الفقر في المخيّمات، فالمعونة الّتي كانت تقدّمها الوكالة كانت مغموسة بالمذلّة، لا تُؤخذ بعين الاعتبار زيادة عدد الأفراد؛ إذ تعاملهم على أساس إحصائِهم الأوّل، وكأنّ لا حقّ لهم بالتّكاثر والازدياد: "وكالة الغوث وزّعت البيوت قبل مجيء الأولاد، وهي غير مسؤولة عن مصانع تفريخ الأولاد"[2].

وكالة الغَوث "الأونروا" في مُخَيّمِ الطّوق

لا تتوقّف خدمة وكالة الغوث في مخيّمات اللاجئين على تقديم المسكن والمعونة من الطّعام، بل تمتدّ لتصلَ إلى العلاج، ولا يختلف العلاج كثيرا عن المعونة، فكي يحصل ابن المخيم على معونة عليه أنْ يقف في طابور عظيم ينصاع فيه لإمْرة المسؤولين هناك، يصل في نهايته إلى المعونة الّتي يحددونها، وهكذا العلاج التّابع للوكالة فهو مقرون بالإهانة

1 عسقلاني، غريب: **الأعمال الكاملة**، ص43\44.

2 **المصدر نفسه**، ص44.

وشعور الطّبيب بالقرف ودوام التّنظير على المراجعين خاصّة فئة النّساء والأطفال، فها هو يعيب على نسوة المخيّم عدم الاهتمام بأبنائهنّ، ويطلب منهنّ أنْ يعوّدن أبناءهنّ على تمديد الأجساد في التّوم كي يسري الدّم في العروق، ومن أين له أن يسري في عروق وأجساد مكوّمة في غرفة واحدة تكاد تفيض بهم: "خطر في رأسها طبيب العيادة الأنيق المتأفف، وهو يوجّه إرشاداته للنّساء:

- عوّدوا أولادكم أنْ يمدّوا أجسادهم على راحتها أثناء التّوم حتّى يسريَ فيها الدّمُ ويوزّع الدّفْء.

ومضى الطّبيب يومها متقزّزا من الذّباب الّذي يحطّ على أنوف وعيون الأطفال الرّضّع"[1].

امتدّت خدمات الأونروا لتشمل تأمين بعض الوظائِف اليسيرة لسكّان المخيّم، فها هو عليّ المقاوِمُ خِفيَةً يعمل كموظّف لتسيير طوابير النّاس يوم توزيع التموين عليهم في موعده الشّهريّ، والأستاذ فهيم عوض الله يعمل معلّما في مدرسة الوكالة، وهنا تجد الدّراسة نقيضين؛ فعليّ لم يُلزمه العمل في الوكالة للانصياع إلى توجّهاتها، بل ظلّ مقاوِمًا مُشتبِكًا يدافعُ عن أرضه ويؤمن بحقّ عودته، في حين أنّ الأستاذ فهيم أخذ منذ بداية أحداث الرّواية دور الخائِف الّذي لا يشارك سُكّان الزّقاق في المخيّم أيّا من نشاطاتهم، ويعترض على تدخّل زوجته في تفاصيل مؤازرة الشّباب المقاومين ويحاول باستمرار أن يثني ابنه حسام عن اللعب مع الطّفل اليتيم يونس؛ إذ كان لعبها تجميع حجارة وقذفها على الدّوريات، غطّى هذا الدّور المساحة الأكبر من الرّواية لكنّه انجلى في ختامها ليحمل دورًا آخر تفصّله الدّراسة عند الحديث عن الخواتيم.

العَمالَة في مُخَيّم الطّوق

لم يبرز العسقلانيّ العمالة، وإنّما وظّفها فيما يتلاءم مع أحداث الرّواية؛ إذ أشار لها بشكل عامّ في وجه واحد وهو عندما يجمّع جنود الاحتلال رجال المخيّم في ساحَةِ المدرسةِ يبحثون عن المطلوبين من بينهم، وإذ يجد الضّابط مطلوبا تبعا للصّورة أو الوصف الّذي يحمله يمارس ضدّ المطلوب أيّ شكل من أشكال الإهانة والعذاب يجده ملائما للحظة الاعتقال، ثمّ يعتقله، كما حصل لحظة اعتقال محمّد موسى: "هل هي الوشاية وهل يضيع الرّجل بوشاية، قبل أيّام رأى

1 عسقلاني، غريب: **الأعمال الكاملة**، ص48\49.

الشّاب بصحبة عليّ، كان عليّ يضحك والشّاب مقطّب لا يستجيب للدّعابةّ الجنود يطوّقونه، بنادقهم مصوبة إلى صدره: أنت محمّد موسى؟ نعم. لكمة قويّة نالت وجه محمّد موسى"[1]، بلا أيّ ردّ فعل من أهل المخيّم فما بيدهم حيلة في هذه اللحظات، وخالد صاحب نظريات المقاومة يتمنّى لو تنشقّ الأرض وتبتلعه ويتحوّل لسانه إلى إصبع سادسة في كفّ محمّد مرسي، كلّ ذلك وسط تزايد الرّفض والحقد في صدور أهل المخيّم على هذه الوشاية، تاركا لهم محمّد مرسي جملة يتفكّرون بها: "من يصبر على النّجاسة بدنه يتسمم"[2].

المُقاوَمة في مخيّم الطّوق

هذا القهر وهذه الإهانة ولدّت روابط اجتماعيّة متينة؛ إذ سدّ المخيّم ثغرة غياب السّلطة عليه فصار سُلطة بحدّ ذاته، يدرك كيف يتصرّف في أيّام فرض الطّوق وكيف يتصرّف في ساعة فكّه، فتتوزّع المهام على جميع أبناء المخيّم ذكورًا وإناثًا، أطفالا وشبابا وعجائز، ففي ساعةِ فكّ الطّوقِ كانت الفتياتُ تؤمّنَ مرور المقاومين عبر السّياج، وكان شُبّان المخيّم ينسّقون تمرير المعونات من خارجِ الطّوقِ إلى داخِلِهِ؛ إذ لم يشمل الطّوق كُلّ الأزقّة، ها هو عليّ قبل أنْ يتسلّل إلى مخبَئِهِ يخبر خالد: "كلّ بيتٍ خارج الطّوق، مُكلّف بإطعام بيت داخله"[3]، كانت استجابة من خارج الطّوق عفويّة غير مخطّط لها، كلّ من يملك فائِضًا عن حاجته يحضره ويمدّه لأيّ يدّ تلتقطه، لا أحد يحضر شيْئًا لأجل أحد بأمّ عينه، هذا التّكافُلُ يفرض سلطة المخيّم على ذاته.

المقاوَمة في الطّوق نهج حياةٍ، لا تكتمل صورة المخيّم إلّا بهذا الإطار المتين الّذي يحكِمُ إغلاقهُ عليها، فمنذ الصّفحة الأولى وأحداث الرّواية تعتمد على الاشتباك المُسلّح الّذي يُسَبّب الطّوق فيما بعد، هذا الاشتباك الّذي يشارِكُ فيه أهل المخيّم على خلافهم، لكلّ منهم مهمّة، إن لم يكُن مُشتبكًا فسيكون مراقبا أو حاميا.

---

[1] عسقلاني، غريب: **الأعمال الكاملة**، ص37.

2 **المصدر نفسه**، ص37.

3 **المصدر نفسه**، ص 56.

رأس المقاومة في مخيّم الرّواية هُوَ عليّ يليه خالد، يأخذ عليّ دورًا قياديّا في عمليات المقاومة والاشتباك المسلّح ويصبح مطلوبا للعدوّ، ويستلم خالد دور التّوعية والتّثقيف إلى جانب دور المقاومة، بدعم من أهل المخيّمِ بِكُلّ ما أوتوا وما استطاعوا.

يدركُ شُبّان المخيّم أنّ نهاية الاشتباك في غالبيّتها العُظمى تكون باستشهاد فرد من أفراد الاشتباك المقاومين، ومع ذلكَ لا يُثنيهم شَيْء عن الاستمرار في هذا الطّريق الّذي اختاروه وآمنوا به، فالشّهادة لا تُعَرْقل الطّريق بل تزيدهم إصرارًا ورغبة في الاستمرار، إذ إنّ الشّهيد المقاوم يُزَفّ كعريس بين أهله، خاصّة أولئِكَ المقامون الّذين تركوا عرائِسهم خلفهم:" قال الضّابط باختصار:

- مخرّب

صرخت أمّ صابر، وصرخ الرّجل الّذي هزمته الصّبيّة، وصرخت سميرة: هذا بطل، هذا عريس"[1].

لم تُثْنِ الشّهادَةُ عليّا المقاوم عن استمراره في العمل المقاوم والاشتباك الدّائم، إذ أخفى مقاومته عن الجميع بمن فيهم خطيبته سميرة بادِئَ الأمر، حتّى يتمّ اكتشاف ذلك لحظة البحث عنه في إحدى مرّات التّفتيش: "يد خشنة تنزع الصّورة في مكانها وصوت يفحّ:

- صورة من هذه؟
- قال أبو محمود: هذه صورة ابن أخي عليّ.
- يقلّب الضّابطُ في أوراقه، أبو محمود لا يصدّق عينه، صورة أخرى لعليّ مثبتة على ورقة في يد الطّالب، ترتجف سميرة "عليّ" مطارد للجنود!"[2].

يحاول الجنديّ التّأثير على "أبو محمود" كي يعترف بمكان وجود عليّ، وأبو محمود يصرّ بأنّه لا يعلم شيْئًا وأنّ عليّا موظّف وكالة يستحيل أنْ يكون مطلوبا ربّما هو شخص آخر، لكنّ هذه المراوَغة لا تجدي نفعا إذ ينتهي المشهد باعتقال "أبو محمود" وابنته سميرة خطيبة عليّ: "بنتٌ عنيدة، سبّتهم، بصقت عليهم وهي تحت الضّرب"[3]، إذن ككلّ المخيّمات

[1] عسقلاني، غريب: **الأعمال الكاملة**، ص24.

[2] **المصدر نفسه**، ص66.

3 **المصدر نفسه**، ص68.

تمتدّ المقاومة بأثرها لكلّ من يمتّ بصلَةٍ للمقاوم الأساسيّ، حتّى يحملوا معه عقوبة المقاومة، إمّا بحجّة التّعاون معه أو التّستّر عليه.

في كُلّ مخيّم لا بدّ أنْ يرتبط الدّور التّوعويّ للعودة إلى الوطن والتّحرير بالمقاومة أو الاشتباك، إذ يرافق المقاوم المُثَقّف المقاوم المُشْتبك، ففي مخيّمات العُشّاق مثلا كان الاشتباك على عاتق حسن ويؤازره محمود، لكنّ الثّقل الأكبر لمحمود كان المقاومة التّوعويّة وزرع هذه القيم في نفوس الشّباب، وكذلك الحال في مخيّم الطّوْقِ، فقد أخذ عليّ على نفسه المقاومة المسلّحة والاشتباك المستمر وتنظيم العمليات بالتّعاون مع بقيّة المقاومين، بينما أُوكلت مهمّة التّوعية والتّثقيف لخالد: "أين خططك يا خالد، وأين هي نظرياتك كي تخلص الشّاب من حصارهم، وأنت من يطلقون عليك روح التّظريّة"[1]، هذا الدّور التّظريّ التّخطيطيّ لا يغني بتاتا عن الدّور المسلّح بل هو مكمّل له وأساس له.

لم يَكُنِ المقاوِمون وحدهم في ساحَةِ المقاومة، فبشكل غير مخطّط شارك أهل المخيّم في مقاومتهم، فهم ليسوا بحاجة إلى التّظريات والكتب في وضع الطّوق أو الاشتباك، النّاس هم من يضعون التّظريّات في هذه الأوقات، التّجربة تفرض نفسها عليهم، فلم يعودوا بحاجة ليخبرهم أحد ماذا يفعلون عند الطّوق، ينتظمون وحدهم يتقدّمون بهدوء يسمحون بالمقاومين بالتّسلل بينهم والخروج من الطّوق، ويغادرون بهدوء وسط دهشة الجنود، هذا المشهد الّذي لفت خالد عن الطّوق ساعة فكّه: "ينمو شيْء في داخله، تتبرعم الجماهير خامات أصيلة، وفعل الجماهير أُسس لم يدرسها في الكتب، وها هو يتعلّمها من النّاس الّذين قفزوا من بطن الخوف إلى دائرة العطاء"[2].

لم يتوقّف تعاون المحيط مع المقاومة لحظة فكّ الطّوق، بل تماشى معهم في جميع الأحداث، فبيوتهم مفتوحة دوما للتفتيش، والرّجال مجهّزون للتّجمّع في المدرسة والاعتقال، وأبوابهم متروكة كلّ مساء في حالِ احتاج المقاومون الاختباء أو المرور منها، فقد تكرر هذا الطّلب في العديد من صفحات الرّواية حتّى أنّ الأستاذ فهيم عوض الله بكلّ خوفه انصاع والتزم لهذا الطّلب: "- الجماعة قالوا الأبواب تظل مفتوحة.

- مين إللي قال؟
- كل النّاس بتقول الأبواب مفتوحة.

[1] عسقلاني، غريب: **الأعمال الكاملة**، ص37.

[2] **المصدر نفسه**، ص55.

بحذر فتح الباب، وتفقّد المطبخ، وغرفة الضّيوف، وأغلق غرفة النّوم من الدّاخل بالمفتاح والمزلاج، وانسلّ إلى الفراش"[1].

امتدّت مقاومة المخيّم إلى الأطفال في نبوءة إلى أنّها مستمرّة متوارثة، فها هو الصّبيّ اليتيم يونس الّذي تربّى عند جدّته أمّ صابر بعد وفاة والده وزواج والدته يطمئِنُ سميرة على عليّ، ويرصُدُ حركات المقاومين منبهرًا منفّذا كُلّ ما يوكل له، يجيب عن تساؤلات سعديّة، ويُذَكّر جدّته بوجوب ترك الأبواب مفتوحة كما تريد الجماعة، يؤثّر على بقيّة الأطفال ومنهم حُسام ابن الأستاذ فهيم يُشاركه في رشق الحِجارة رغم تهديدات الأستاذ فهيم ولومه الدّائم لزوجته على السّماح لحسام بمرافقة يونس: "فاضية للحكايات وناسية ابنك يلحق الولد اليتيم عند السّلك يرشقوا الحجارة، وإنت بسلامتك مبسوطة، وكإنه بطل زمانه، أنا خايف من عواقبها ... وانطلق حسام، لا يأبه لأبيه الّذي يصرخ"[2].

المَرْأة في مُخَيّم الطّوق

آزرت إناث مخيّم رواية الطوق ذكوره في المقاومةِ، بدْءًا من جيلِ الجدّاتِ المتمثّل في أمّ صابر وأمّ خليل وامتدادًا إلى الجيل الأصغر المتمثّل في سميرة وسعديّة وحسنة، وما بين الجيلين جيلُ الأمّهات اللواتي حملن على عاتقهنّ دورًا لا يُستهانُ به في تربية الأبناء ومحاولة زرع قيم الوطن فيهم.

بعد إبعادِ أبو صابر إلى الأردن ورحيل صابر إلى أريحا كي يعمل ويرسل إلى أمّه وإخوته ما يعينهم على الحياة، أخذت أمّ صابِر دورًا بارِزًا في مُساعَدَةِ المقاومين، فلم تقتصر مساعدتها على ترك باب بيتها مفتوحًا لهم في الليل كبقيّة أهالي المخيم، بل ساعدتهم في إخفاء السّلاح وفي توصيل كلّ ما يحتاجونه بالتّعاون مع الجدّة أمّ خليل، كانت مُدافعة عن المقاومين دومًا مؤمنة بأنّ الخلاص في المقاومة والاشتباك: "أمسكت عن الكلام ... ركزت نظراتها في وجه الضّابط ولسان حالها يقول: فتّشوا الدّار إذا وجدتم شيْئًا فخذوه وخذونا، نعرفُ كيفَ نخفي الأشياء عنكم"[3]، وكذلك أمّ خليل فبعد موت ابنها خليل وزواج أرملته، أخذت تُرَبّي حفيدها يونس، ربّته على المقاوَمَةِ وسمحت لها برشق الجنود

1 عسقلاني، غريب: **الأعمال الكاملة**، ص32.

[2] **المصدر نفسه**، ص77.

3 **المصدر نفسه**، ص65.

بالحجارة، كانت تتابع نموّه بفخر رغم خوفها عليه، لكنّها مدركة أنّ الطّريق الّذي يسير فيها هذا الطّفل هو طريقُ الحريّةِ والوَطَنِ، تعاونت مع أمّ خليل في مساعدَةِ الشّباب، الأمر الّذي اتّضح لمعظم أهل المخيّم من خلالِ تحرّك المرأتين خاصّة في ساعة فكّ الطّوق ومغادرتها الدّائِمة خارج الطّوق كُلّما سنحت لهما الفرصة: "أم خليل وأم صابر غادرتا الزّقاق لسبب ما، لم يصدّق حينما أخبرته زوجته أنّهما تعملان مع الشّباب، زجرها فانكمشت ..."[1].

أمّا عن عاشِقات ومعشوقاتِ المخيّمِ الثّلاث (حسنة، سميرة، سعديّة)، فقد تفاوتت أدوارهنّ، فحسنة حبيبة الجعباص تعلم أنّ أمّها تعمل مع الجماعةِ فتأخذ دورًا ثانويّا وهو سدّ الفراغ مكان أمّها في حال غيابها، تعتني بإخوتها وبالبيت، وتعمل إنْ احتاجهما الشّبانُ في دور المراقبة إلى جانِبِ سعديّة بنت الغاوي، تلتزم الصّمت وكأنّها لا تعلم شَيْئا عن العمل المقاوم كما أوصتها أمّها أمّ خليل، في حين أنّ سميرة ابنه أبي محمود وخطيبة عليّ تدافع عن خطيبها المطلوب بعد أن وافق الموقف حدسها، إذ كانت تشعر دومًا بأنّ عليّا يعمل مع المقاومين ويخفي عنها الأمر، إلى أنْ أكّده الجُنْدِيُّ، فتُعتقل بسبب عليّ وضربها وإهانتها أمام الجميع، لكنّها ترفض أن تخبر عن مكان وجوده أو أيّ معلومة عنْهُ، وفي نهايَةِ المَطافِ تَخْرُجُ من الاعتقال مُهانة، ها هو الجعباص يستفسر منها دونَ ردّ: "ربط لسانه، وقد رأى الرّضوض والكدمات على وجه سميرة، ورم العين أزرق لا تخفيه خصلات شعرها المنفوش"[2].

استَحْوَذت سعديّة على الدّور الرّئيسيّ بالقياس مع النّسوة الأخريات، فهي ابنه الغاوي ابنة المدارس الّتي ينتظر والدها أنْ تُنهي تعليمها وتتوظّف علّها تساعده قليلا في توسعة البيت الّذي يكادُ يختنق بكثرة أهله، لترحل فيما بعد إلى صاحب النّصيب، سعديّة ابنة المدارس المثقّفة الّتي تنساب خصل الذّهب على شعرها، الّتي يتمنّى كُلّ من في الحيّ أن تبادِلَهُ الحديث، الفتاة القويّة الجريئة أوقعت خالدًا في حُبّها، وبادَلَتْهُ هذا الحُبّ وسط تعاونها مع المقاومين بعد أنْ رفضته مُسْبَقا، هذِهِ الفتاةُ الّتي تُلفت نظر أهل الطّوقِ جميعهم، أخذت على عاتِقها مُراقَبَة المقاوِمين حتّى يجتازوا السّياج: "عادَت سعديّة إلى الدّار كانت حَسْنَةُ تنتظرها، انسلّتا تحت الغِطاء غفت حسنة، وبقيت سعديّة يؤرقها سؤال الصّمت، هل اجتازوا؟"[3].

---

1 عسقلاني، غريب: **الأعمال الكاملة**، ص76.

[2] **المصدر نفسه**، ص85.

3 **المصدر نفسه**، ص75.

استطاعت سعديّة أنْ تفرِضَ عملها ووجودها في صفوف المقاومين، فها هم يعتمدون عليها ويوكلون لها المهامّ فتسلّم الرّسائِل الّتي ترسلها أمّ خليل إلى خالِد وتستفسر عن سير العمليّات وعن الحاجَةِ لوجودها، فعند إعطاء خالد مهمّة نقل السّلاح من دار محمّد موسى إلى دار أخرى همس الملثّمون المقاومون لخالد: "اعتمد على سعديّة"[1]، هذا الاعتماد ينقل دور سعديّة إلى دور أساسيّ فاعِلٍ في المقاومةِ.

اشتبكَ الشّبان مع الجنودِ صدفة لحظة نقل السّلاح من دار محمّد موسى، كانت سعديّة معهم، أخذت على نفسها دور الحِماية والاستمرار في العمل المقاوم توسّطت الشّارع أخذ الشّبانُ يزحفونَ حولها يقتربون من الطّرف الآخر للشّارع، يختفي المقاوِمون وأهل الطّوق يراقبون سعديّة وهي تسقُطُ شهيدَةً في مشهدٍ يُدْمي المُقَل، صدرُ أمّها ينفَجِرُ والغاوي يتحوّل إلى صرخة، يُؤخَذُ الجَسَدُ الغَضّ المعشوق العاشق بعيدا، لينتهي المشْهَدُ بِدّفنِ سعديّة على يد والدها الغاوي وبحضورِ الجعباصِ فقط.

هذه النّهايَةُ المؤلِمَةُ للمرأةِ في المقاومة والأدبِ الفِلَسْطينيّ بعدَ مُساندتها للمقاومين ليسَت مُستَحْدَثَة؛ فقد سبَقت سميرة عزّام العسقلانيّ إليه في قِصّتها خبز الفداء؛ إذ كانت بطلة القِصّة الممرِّضة سعاد تعمل مع المقاومين في علاجِهم وخياطة الثّياب لهم، لينتقل دورها إلى تأمين الطّعام لهم ونقل الأخبار إن لزم الأمر، وآلت إلى النهاية ذاتها: "التفت إلى باب الحديقةِ فرآها تمرق منه، وصرّتها بيدها أمّا الأخرى فكانت على صَدْرِها، لم يُصَدّق أنّ بها شَيْئًا وقد كانت واقِفة على قدميها، ولكنّها ما لبثت أن ارتمت عليه، وبدأ الدّم يندلق من صدرها، فسدّ جرحها بيده ... وفتحت فمها لتقول شَيْئًا، ولكنّ الحشرجة خنقت كلماتها، ثمّ انتهى كُلّ شيْءٍ بشهقة!"[2]، إذن عاشِقة مُقاوِمَةٌ سابِقة تستشْهِدُ في ساحةِ اشتباكٍ؛ لتمضِيَ هِيَ إلى حتفِها ويَمْضِيَ هُم إلى اشتِباكٍ آخر، هي وهم مَضوا لأجل الوطن.

1 عسقلاني، غريب: **الأعمال الكاملة**، ص73.

2 عزّام، سميرة: **وقصص أخرى**، دار العودة، بيروت، 1982، ص88.

كيفَ خُتِمت رواية الطّوق؟

بعدَ مشْهَدِ اعتقالِ سميرة و"أبو محمود" وإهانتهما، وبعدَ استشْهادِ سعديّة ودفنها بلا جَنازَة، يأتي دورُ العِقابِ الجماعيّ لأهلِ الطّوْقِ المُشارِكين في حماية المقاوِمين، بيوت خمسة تُحَدّد بعلامة مُشْتَرَكَةٍ، وفجْأة انفجار مكتوم يحوّل الزّقاق إلى مساحة عريانة وكوم رُكامٍ، هذا الانفجارُ سمحَ لداليةَ أنْ تَصْعَدَ من بينِ الرّكامِ يعفّرها التّرابُ والغبارُ، فيبتسم لرؤيتها أبو محمود قائلا: "دالية من كروم بربرة هل يخنقها غبار البارود"[1]، إذن سيعود الزّقاق بأهله، أمّ يونس تَصْرُخُ وتعضّ على اللحاف بانتِظارِ أن يَخْرُجَ مولودٌ جديد من رحمها، حسام ابن الأستاذ فهيم يسحب يونس من كمّ قميصِهِ ويخبره أنّه حوّش الحجارة ليرشقا الجنود، الأستاذ فهيم يردع زوجته وهي تصرخ على حسام كي يعود: "اتركيه يفشّ غله يا امرأة"[2].

بِهذِهِ المشاهِدِ مُجتمِعَةً ختم العسْقلانِيُّ رِوايتَهُ ليثبت استمراريّة المقاوَمَةِ المُسَلّحَةِ، وأنّها الطّريق نحو الأوْطان، المقاومة الّتي لن تنتهِي بشهادة أو باعتقال، إذ يرتقي شهيد ويولد مُقاوِمٌ، يُعتقل مقاوِمٌ ويرشق طِفْلٌ حجرًا، يُهْدَمُ بيتٌ فتبرعم داليةٌ، هذه النّهايَةُ الّتي توجِب العودة.

---

[1] عسقلاني، غريب: **الأعمال الكاملة**، ص87.

2 **المصدر نفسه**، ص87.

مُخَيَّمُ تُفّاحِ المَجانين

"إنّه يَعودُ إلى هُناكَ

مِثلما تَعودُ الطّيورُ إلى أعشاشِها"[1]

أرّخت تفّاح المجانين للفِلَسطينيّ يحيي يخلف[2] للمخيّم الفِلَسْطينيّ في الخمسينيات، واحتفت بصمود الشّعب الفِلسطينيّ أمام المِحَنِ الّتي واجهته في المَنفى، ففي القسم الأوّل من الرّواية بعنوان "النّقطة الرّابعة" يُمَجّد جيل الآباء والأمّهات ويفتخر بصمودهم رغم المعاناة، وَيطرح النّماذج السّلطويّة الّتي زادت من وَطْأة ذلّ المخيّم كالنّقطة الرّابعة المتمثّلة بالفورمن والأونروا والمخفر الأردنيّ متمثّلا بالشّاويش حسن والسّتّ إنجيل، كما احتفى بالطّفولة المُتَّقِدة الّتي تبحث عن القُوّة والثّورة وسط الضّعف، الطّفولة المتمثّلة في بدر العنكبوت والرّاوي، ولم يهمل ذكريات أهل المخيّم في بلادهم أيّام عزّهم.

في حين وصف في الفصل الثّاني الّذي يحمل عنوان الرّواية حال اللاجِئين في موسم صيفٍ جافٍ وقاحل لحق بهم، الّذي كان سببا في أكل بعضهم تفّاح المجانين لتدبّ فيهم القوّة ومنهم الرّاوي وبدر العنكبوت؛ كي يتمكّنا من ضرب الشّاويش حسن؛ لإهاناته المتكررة لتحصيل دار والد بدر العنكبوت، وفي هذا الفصلِ زادَ تمرّد بدر العنكبوت وشقاوته إذ واجَه السّت إنجيل ووضع لإهاناتها وعنفها حدًّا رافِضا البقاء في خيمة الصّفّ، ليكتمل الفصل بملامح العودة، عودة الخال الفدائيّ عمران.

---

[1] يخلف، يحيي: **تفّاح المجانين**، ص 97.

[2] يحيي يخلف من مواليد بلدة سمخ الواقعة على الشّاطئ الجنوبيّ لبحيرة طبرية، والّتي احتلّها ودمّرها الإسرائيليّون عام 1948، عاشر مع أسرته في المنافي، تلقّى دراسته في مدارس إربد، لتحق في صفوف الثّورة الفلسطينيّة عام 67، شغل منصب وزير الثّقافة في السّلطة الوطنيّة الفلسطينيّة ما بين الأعوام 2003 – 2006، أخذ هذا التّعريف عن غلاف روايته ماء السّماء.

أبرز أعماله الروائية: نجران تحت الصفر – دار الآداب بيروت (خمس طبعات) 1976-2005، تلك المرأة الوردة – 1980، تفاح المجانين – دار الآداب (ثلاث طبعات) 1983-2008، نشيد الحياة – دار الآداب (طبعتان) 1985-1990، تلك الليلة الطويلة – دار الآداب الطبعة الأولى 1992، بحيرة وراء الريح - دار الآداب (طبعتان) 1991-2008، نهر يستحم في البحيرة – دار الشروق عمان 1998، ماء السماء - دار الشروق عمان – الطبعة الأولى 2008، جنة ونار - دار الشروق القاهرة – الطبعة الأولى 2011، راكب الريح - دار الشروق عمان – الطبعة الأولى 2015 الطبعة الثانية 2016 ، اليد الدافئة – الدار المصرية اللبنانية – الطبعة الأولى 2017الطبعة الثانية 2018، رباعية البحيرة – دار البحيرة الطبعة الأولى 2019، ريحانة سيدة السعادة (تحت الطبع)، النتاجات الأخرى: مجموعتان قصصيتان (المهرة) 1973 و (نورما ورجل الثلج) 1978، يوميات الاجتياح والصمود شهادة ميدانية - (كتاب توثيقي) 2002، مجموعة من قصص الأطفال: ساق القصب" (قصص للأطفال)، 1981، إكليل العروس – كفر برعم (قصص للأطفال) – دار البحيرة – رام الله 2014، ميسي وكرة القدم والجدار (قصص للأطفال) – دار البحيرة – رام الله 2014، ماء وعسل (قصص للأطفال) – دار البحيرة – رام الله 2014، النغمة الصحيحة (قصص للأطفال) – دار البحيرة – رام الله.

تفرّد الفصل الأخير بعنوان "عودة الخال"؛ للحديث عن الخالِ عمران الفدائي الّذي شارك في الثّورات عام 1948 الّذي يزرع الرّعب في قلوب المستعمرات وينصب الكمائن للعدوّ، ومن ثمّ وقع في كمين وسجن وأبعدَ، والآن ها هو يعود إلى أهل بلدته وأقاربه في المخيّم كبطل مقاومٍ ثائرٍ في المنفى، لتخمد مقاومته قليلا ويفسد أخلاقيّا؛ فيخوض علاقة جنسيّة مع زوجة الفورمن، وتعيده الأحداث من جديد إلى مقاومٍ أسطوريّ قُدْوَةٍ.

وَصْفٌ عامٌّ لمخيّم تفّاح المَجانين

رُبّما لم يسترسل يحي يخلف في وَصفه للمخيّم بيئة ومكانًا في رِوايَةِ تُفّاح المَجانين؛ لِأنّ صورَة المُخَيّمِ تشكّلت ملامحها إلى حَدّ ما في أذهان قُرّاء الرّواية، إذ ارتبطت بكلّ الخيبات والأحداث السّياسيّة، رغم ذلك فقد وصف المخيّم البائِس الّذي عاشت فيه شخصيّات الرّواية: "حوش يمتلئ بحبال الغسيل والمَلاقط، والملابس المشبوحة، والذّبول والانكسار وكثير من الوجع ... ينطّ الأطفال، وعند البوّابة الكبيرة تصطفّ تنكات الزّبالة، تغطّيها قشور البطّيخ ويحوم حولها الذّباب"[1].

بعد مرور أعوام على المُخَيّمِ تبدّلت الخيمة بجدران بالية آيلة للسّقوط عند أيّ ردّة فعل غاضبة لهذا المكان، لكنّ بؤس الحال لم يتغيّر وملامح الإنهاك لم تتبدّل بل تزايدت وتيرتها، فقد ازداد عدد سُكّان المخيّم، وحدوده لا تتسع ولا تتجاوز المسافة الضّيّقة خطوة واحدة نحو الاتّساع: "حوش واسع، الأطفال يطنطنون، امرأة ترضع طفلا من ثديها الضّامر، وأخرى تغسل ببقايا صابونة تكاد تتلاشى، رجال يعبرون عابسين، يجرجرون أقدامهم، رجال عاطلون"[2].

صار عزيز قوم ذل، وتساوت المذلّة بين عدد كبير من اللاجئين في المخيّمات، فالجميع ينتظر فضل وكالة الغوث عليه في استلام المؤن والإعاشة، والقليل من يجد عملًا، والنّادر من يستمرّ في عمله ويؤمّن قوت بيته يوميّا: "لذلك أقلع العم عن هذا العمل الّذي وجد أنّه من غير اللائق الاستمرار به، وامتهن بيع القهوة الحلوة ... أمّا والدي فقد كانَ عاطِلا يتلقّى المال بين الحين والآخر من أقارِبِهِ في سوريّة، يشكو ويزداد شكوى"[3].

1يخلف، يحي: **تفّاح المجانين**، ص 13.

2 **المصدر نفسه**، ص 12.

3 **المصدر نفسه**، ص16.

هذه المِساحة الضّيّقة الّتي فرضتها المحنة السّياسيّة على الأرض، حملت أوجاع أهل المخيّم وتفاصيل حياتهم المقيتة، فلم يكن المكان هامشيّا ولا عابرًا، حمل الشّعب وجَرّأه وغيّر تفاصيله وشوّه دواخله وجمع نقائض لا تخطر على بال أحد، فالخيمة أو صفائح السّكن ضمّت الخائن قبل المقاوم، والأمّيّ قبل المتعلّم، والعِصاميّ قبل المتسلّق، فالمكان في المخيّم تعدّى مفهومه ومساحته وشكله في أذهان النّاس ليحمل تفاصيلهم وملامحهم وحيواتهم.

وكالَة الغَوث "الأونروا" في مُخَيّم تُفّاح المجانين

تفاوتت علاقة أهل المخيّم بوكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين، فمنهم من انضَمّ إليها وقبل الإحصاء فورًا ومنهم من رفضها وعاداها، لكن لا شيْء في المخيّم يبقى على حاله، ففي الوقت الّذي كان يصلُ التّموين إلى بيت تحصيل دار كانَ جاره والد الرّاوي ينتظر لجنة الإحصاء كي تعيد إحصاءه كلاجئ فيستحقّ التّموين وكرت الإعاشة، بعد أن كان رافضا رفضًا شديدا أن يتمّ إحصاؤه؛ علّ ذلك من منطلَقِ إيمانِهِ بأنّه سيعود إلى وطنه، سيعود وجيها عزيزًا كما كانَ يمتطي فرسه الشّقراء الّتي حاول البعض سرقتها بعد رفضه بيعها.

حاول والد الرّاوي بعد أنْ نفدت النّقود الّتي كانت بحوزته، ولم يعد يكفي البيت ما يرسله له أقاربِه من سوريّة أن يقدّم عرض حال واستدعاء للمستر بول على أمل أن تأتي اللجنة فتتأكد بأنه لاجئ ويستحقّ الإعانة، هذا الأمل طال، وزاد من شكوى الوالد الّتي لا تنتهي، حتّى تبدّد الحلم في النّهاية عندما ضُبِطَ الخال عمران ينتحل شخصيّة العم تحصيل دار بعد أن توفّاه الله؛ حتّى تستمر المعونة والإعاشة.

عاش الوالِد ساخِطًا لاعِنًا الوكالة، لكنّه بحاجتها، فلم يعد وجيه قومه: "كان والدًا ذا كبرياء، رفض أن يشمله الإحصاء، ورفض أن يتسلّم بطاقة الإعاشة، وها هو بعد أعوام من الخروج، يتقدم بطلب إلى الوكالة لكي يشمله الإحصاء ويحصل على البطاقة"[1].

[1] يخلف، يحيى: **تفّاح المجانين**، ص 13.

العَمالة في مُخَيّم تُفّاح المّجانين

تدور الرّواية في منتصف الخمسينيات، في أحدِ مخيّمات الأردن، في مرحلة كثيرة التّحوّلات، بدايات نضوج حركة وطنيّة فلسطينيّة في الأردن، ورحيل استعمار قديم وهو الاستعمار البريطانيّ، واستعمار جديد يتهيّأ للدخول من خلال مشروع ايزنهاور[1]، هذا الأمْرُ مهّد لتدَخّلات عديدة في المخيّم جُلّها مَرْفوض لأهله؛ كونها مارست الإهانة بنوعيها النّفسيّ والجسديّ على اللاجِئين الفلسطينيين، فعدّ اللاجئون الفلسطينيّون في المخيّم هذه التّدخّلات أوْجُهًا من وجوه العمالة، الأونروا أوّلها والنّقطة الرّابعة المنشأة الأمريكيّة والسّتّ إنجيل الّتي تعتبر وَجْهَ البعثات الغربيّة لتعليم اللاجئين والشّاويش حسن الّذي يمثّل الحكومة الأردنيّة، وقبل كُلّ هذه الأوْجُهُ رَجل الكيس.

ففي الصّفحات الأولى من الرّواية يصوّر يخلُفَ مشهد إدخال رجل الكيس إلى المخفر بكيس على وجهه مثقوب من ناحية العينيْن، يدور بين مجموعة رجال ليختار منهم المطلوب للشّاويش حسن، ولسوء حظّ العم تحصيل دار فقد كان في تلك اللحظة متوَجّهًا إلى المخفر، وبعد أن وقع الاختيار على غيره سأله الشّاويش حسن عن سبب مجيئه فأعلمه أنّه يريد إسقاط الشّكوى عن الفورمن، لكنّه لم يسلم من كرابيج الشّاويش حسن؛ فالمساس بالفورمن مساسٌ بالمخفر، هذه الإهانات المتكرّرة من الشّاويش حسن للاجئين جعلتهم يضعونه في موضع الرّيبة، فازداد حقدهم عليه حتّى وصل هذا الحِقد إلى أن أكل بدر العنكبوت والرّاوي من تفّاح المجانين؛ كي يهجما على المخفر ويوسعا الشّاويش حسن ضربًا انتقاما للعم تحصيل دار والد بدر وغيره ممّن أهينوا من أهل المخيّم على يديه.

"الفورمن ابن حرام ويشتغل مع الاستعمار ويجب أن تشكوه لكيلا يتطاول مرّة أخرى"[2]، كانت هذه النّصيحة الّتي أعطاها الدّكتور باز للعم تحصيل دار بعد أن ضرب الفورمن ابنه بدر العنكبوت إثر حادثة الزّير، لكنّ الشّكوى عادت على المظلوم بالمزيد من ضربات الخيزران على يد الشّاويش حسن لإرضاء الفورمن، هكذا كانت تجري الأمور، الفورمن بسلطته الواسعة وعمله في النّقطة الرّابعة يمارس المهانة والظّلم على أفراد المخيّم لكن لا أحد يستطيع أنْ يردّ له الصّفعة وإن حاول فيأكل على وجهه صفعات.

1 عيد، حسين: **قضيّة فلسطين والأدب يحيى يخلف نموذجًا**، ط1، دار الأسوار، عكّا، 2010، ص56.

2 يخلف، يحيى: **تفّاح المجانين**، ص25.

انسلخت السّيّدة إنجيل بشكل صريح عن دورها التّربويّ كمعلّمة، فلم تفلح فيه، حتّى أنّ الكاتب لم يُعْطِها فُرْصَةَ مخاطَبَةِ أطفال الحيّ بـ "يا طُلّاب، يا تلاميذ" كان الخطاب دوما بِـ "يا أولاد"؛ فهي لم تكن معلّمة كانَت ممينة نفسيّا وجسديّا، تعامل الأطفال بقسوة وفوقيّة واضحة ومدرسة، وقد تحمّل الأطفال إهاناتها المتكَرّرة: "حسّنوا خطّكم، لا تمخّطوا في الصّفّ، ممنوع الكحّة، ممنوع التّباح، أعصابي لا تتحمّل روائحكم الكريهة، ثمّ فقد أعصابها، فحملت المؤشّر، وضربت الأولاد الّذين يجلسون في المقعد الأوّل"[1]، إلى أنْ تمرّد عليها بدر العنكبوت، إذ حاولت تعنيفه بعد أنْ فقد جحشه طريف الّذي أطعمه من تفّاح المجانين في الصّيف القاحل؛ ليحافظ على قوّته، فعاث خرابا إلى أنْ طعنه أحد الثّور، هام بدر على وجهه ولم يعد إلى بيته يوم مقتل طريف، وفي اليوم التّالي ذهب إلى المدرسة شاحب الوجه متّسخًا فسحبته السّت إنجيل محاولة ضربه بالمسطرة؛ لأنّه بلا منديل ومتّسخ الرّأس والأظافر، ولم يكن يحمل حقيبة كُتبه، إلّا أنّه لم يسمح لها بإهانته فثارَ بدر العنكبوت وكسرَ مسطرة المعلّمة، هذا الفعل الثّوريّ له دلالات عميقة في العودة وتمهيد هذا الجيل للكفاح المُسلّح فيما بعد: "من أين تدفّق كُلّ هذا الدّم؟ أمسك يدها، أمسك بالمسطرة، ثمّ سحب المسطرة من يدها وكسرها إلى نصفين، وتقدّم خطوة من السّت إنجيل الّتي تراجعت وتراجعت وتحوّل احمرار وجهها إلى شحوب"[2].

المُقاوَمة في مُخَيّمِ تُفّاح المَجانين

رغم أنّ شخصيّات الرّواية منشغلة بتدبير أمورِ حياتها اليوميّة الأساسيّة وأهمها إيجادُ عمل يكون باب رزق للبيت، إلّا أنّها في لا وعيها باستمرار كانت منشغلة بحلم العودة، هذه العودَة الّتي تتمثّل في الذّكريات الّتي كان ينبشها تحصيل دار ووالد الرّاوي في سهراتها الدّائمة ولا يملّان، فكان تحصيل دار يروي لوالد الرّاوي عن حصانه الّذي كان يركبه أيّام العِزّ ويجمع الضّراب من النّاس، وحكايات فرس والد الرّاوي الشّقراء الّتي ملأ صيتها سمخ وصولا إلى النّقب، ورفض والد الرّاوي الإحصاء في بادئ الأمر، كلّ ذلك إشارات إلى تمسّكهم وإيمانهم بالعودة، نضيف إلى ذلك المشط الّذي أصرّ على الخال عمران أن يعلّمه كيفيّة استخدام السّلاح.

---

[1] يخلف، يحيى: **تفّاح المجانين**، ص 9\11.

2 **المَصدر نفسه**، ص47.

هذه الإشارات الضّمنية في السّير في طريق العودة لم تظهر على الشّخصيّات الأبويّة أو الجيل الأكبر الّذي ولد وعاش في البلاد فحسب، بل امتدّ إلى الجيل الأصغر، جيل الطّفولة، فلم يأكل بدر العنكبوت والرّاوي من تفاح المجانين إلّا ليكتسبا قوّة ويثورا على الشاويش حين تعبيرا عن رفضهما لواقع اللجوء الّذي يحياه المخيّم كاملا والعودة إلى ما قبله، إلى فلسطين، ولم يكن ترحيبهما بالخال عمران وخاصّة بدر العنكبوت إلا ترحيبا بالفدائيّ الأسطوريّ الّذي سيعيدنا للوطن ويعيد الوطن، فرأى بدر نفسه في ثوب الخال الفدائيّ ولم يحتمل منه أيّ انكسار أو ضعف.

طرح يحيى يخلف في تفّاح المجانين نموذجًا واضِحا للمقاومة والعمل الثّوري وهو الخال عمران، وأسس لبذرة أخرى يكاد يتفجّر منها ثورة وهو الصّبي بدر العنكبوت، في إشارة إلى الاستمرارية والتّحوّل إلى مستوى أعلى في المقاومة المسلّحة المُنَظّمة، فالخال عمران انضم إلى جماعة مصطفى حافظ في غزّة في نكبة عام 1948، وصوّره الرّاوي على لسان شَخْصِيّاته بأسطورة يدبّ الرّعب في المستعمرات وينصب الكمائن: "عمران، له قوّة أربعة رجال، يهدم الحائِط بضربة من يده ... إنّه من الفدائِيّين، من جماعة مصطفى حافظ في غزّة ... قطع الصّحراء بليلتين ومعه رشّاش وسكّين حادّة، ينصب الكمائِن لأفراد العدوّ، وينتقل من قرية إلى قرية ومن مدينة إلى أخرى ... يزرع الرّعب في قلوب سكّان المستعمرات، وظلّ سنة كاملة يختفي ويجاهد دون أن يكشفوه"[1]، هذا الوَصف المُبَجّل ساهم في تكون صورة عظيمة مهيبة في عيون شخصيّات الرّواية ممّن لا يعرفون الخال عمران، وأضفى رهبة لدور الفدائيّ المقاوم الّذي تنظر إليه العيون بالجلالة والاحترام.

عاد الخال عمران والعيون ترتقبه، وسط حفاوة وزغاريد وافتخار، وكأنّ الأمل في العودة عاد في عودته، المشط يحاول أن يتقرّب منه ويتودّد له، فيمدّه بالتّقود كي لا يحتاج أحدًا، ويطلب منه أن يعلّمه كيفيّة استعمال السّلاح، وبدر العنكبوت يراقب تفاصيله ويطابقها مع الصّورة الّتي رسمها له في خياله منذ أن علم بأنّ لصديقه الرّاوي خالا فدائِيّا سيتحرر، فيسأل بدر الرّاويّ: "كيف يكبّلون أيدي الجبال الهائِلة، كيفَ يشدّون وثاقها؟"[2]، قاصِدا في هذا التّساؤُلِ الخال عمران، وحين وصول الخال عمران ينتكس بدر العنكبوت لأنّ الخال انصاع لأمر الدّكتور باز وسمح له بأنّ يفحصه، وكأنّ الصّورة المكوّنة صورة أسطوريّة لا يسمح للإنسانيّة بالاشتراك معها، كما وأنّه لا يتقبّل عمله في رصف

[1] يخلف، يحيى: **تفّاح المجانين**، ص 58.

2 **المصدر نفسه**، ص65.

الطّرق: "يجوع الفدائيّ ويأكل التّراب والحشيش والأفاعي ولا يشتغل مثل هذا الشّغل"[1]، لتكتمل انتكاسته عندما علم أنّ الخال أقام علاقة مع زوجة الفورمن.

سرعان ما أعيدت الصّورة الثّورية إلى ذهن بدر العنكبوت عندما انتحل الخال عمران شخصيّة والده للإحصاء ورآه في اللثام فانبهر به، فهذه صورة الفدائيّ الّتي يحملها الطّفل الصّغير، هذا الطّفل الّذي مثّل استمراريّة المقاومة منذ اللحظة الأولى في الرّواية، وتأججت هذه الصّورة عندما علّمه الخال أجزاء السّلاح فصار بدر العنكبوت يحلم بها ويتخيّلها ويعلّمها لأبناء المخيّم: "وفي الحارة أخذ بدر العنكبوت يعلّم الأولاد صنع بنادق الخشب، كيف يتقنون صنع الماسورة، والقبضة، والزّناد، والأخمص، والمخزن"[2]، سرّ القوة الّتي بحث عنه بدر العنكبوت منذ بداية الرّواية ها هو يكتشفه، إنّه السّلاح والمقاومة، وبذلك تكون الرّسالة نُقِلت من جيل إلى آخر، من الخال عمران إلى بدر العنكبوت إلى أبناء جيله في المخيّم؛ لتصير الرّسالة فِعلًا ثوريّا.

المَرْأة في مُخَيّمِ تُفّاح المَجانين

لم يبرز يحيى يخلف في تفّاح المجانين دوْرًا مميّزا لأيّ من النّسوة، فلم يُشْرِكُهنّ في فعل المقاوَمةِ أو في التّحريضِ عليه، فأمّ أمين مالكة الحوش وطبيبته الشّعبيّة، تعامل المستأجرين حسب حالتها الصّحيّة، فإن مرضت نزعت الحدود بينهم، وأمّ الرّاوي امرأة عاديّة لم تبرز لها صفات استثنائيّة، وزوجة الفورمن الّتي كان جمالها محطّ إعجابٍ لكلّ من في المخيّم صغيرهم قبل كبيرهم، ربّما تستطيع الدّراسة القول إنّها شكّلت دخيلا على فعل ثورة، دخيلا حاول إفسادَه وتنحيته عن الطّريق، عندما أوقعت الخال عمران في حبّها أو الإعجاب بها فمارس معها علاقة في الزّاروب ورآه الرّاوي وأعلم بدر العنكبوت والمشط الّذي أخذ يبرر فعله: "على كُلّ حال يجب أن يفعل شيئًا مع زوجة الفورمن لا ليمتّعها وإنّما من أجل أن يكسر عينها وعين زوجها"[3].

---

1 يخلف، يحيى: **تفّاح المجانين**، ص75.

[2] **المصدر نفسه**، ص85.

[3] **المصدر نفسه**، ص86.

كَيْفَ خُتِمَت رِوايَة تُفّاحِ المَجانين؟

لم يحتمل الخال ما آل إليه، عندما اكتشف انتحاله لشخصيّة والد بدر العنكبوت على يد زوجة الفورمن، والإهانة الّتي وجهها له موظّف الأونروا، لم يتمالك نفسه فانقضّ على الموظّف المترجم ودحرجه وداسه بقدميه واندفع نحو الهواء والمدى، حاول الرّاوي وبدر العنكبوت والمشط اللحاق به، لكن لم يستطع أحد اللحاق بهِ، كان قد صار نقطة بحجم الدّبوس وهو يصعد الجبل المقابل، الجبل الّذي يوصل إلى فلسطين، ظلّ يصعد إلى أنِ اختفى.

"إنّه يعودُ إلى هُناكَ مثلما تعودُ الطّيور إلى أعشاشِها"[1] هذه الهناك اسمها فلسطين، عاد الخال عمران من حيث أتى، عادَ ثائِرا مملوءا بفعل العودَةِ، يُشارِكه الحلم بدر العنكبوت والرّاوي وتمتمة المِشط بأنّه سيذهب ذات يوم إلى هناك إلى وطننا المحتلّ، بهذه الخاتِمَةِ المؤمِنة بحقّ العودَة المؤسسة لها، ختم يخلف روايته تفاح المجانين.

[1] يخلف، يحيى: **تفّاح المجانين**، صـ97.

عَلاماتٌ فارِقَةٌ لِتمثيلات المُخَيَّمِ قَبْلَ أوسلو

بعد عرض نماذج الدّراسة الرّوائيّة لا بدّ منَ الوقوف عنْدَ أهمّ السّمات الّتي امتاز بها المخيّم في الرّواية الفلسطينيّة قبل أوسلو، تبعا لعيّنة الدّراسة الّتي قد تُوافق العديد من الرّوايات الفلسطينيّة قبل الاتفاق وقد تتعارض مع القلّة القليلة، لكن قبلَ الوقوف على هذه العلامات الفارِقة، على الدّراسة الإجابة عن تساؤُلٍ مطروح، ما المقصود بما قبل أوسلو؟ وما أهم المفاصِل السّياسيّة لهذه الفترة؟

تستطيع الدّراسة أن تشمل فترة ما قبل أوسلو بما بعد النّكبة، فكلّ هذه الفترة على امتدادها وتقلّباتها السّياسيّة ومنعطفاتها شكّلت ملامِح ما قبل أوسلو، وأثّرت على الحالة المجتمعيّة للشّعب الفلسطينيّ المُهَجّر والباقي، وبطبيعة الحال فقط أثّر على الخطاب الأدبيّ بأشكاله كافّة، الشّعريّة والنّثريّة، وعلّ الرّكيزة الأساسيّة الّتي تستطيع الدّراسة أن تنسل منها فترة ما قبل أوسلو هي تأسيس منظّمة التّحرير الوطني الفلسطينيّة "م. ت. ف"، وإذا تتبعت الدّراسة سلسلة الأحداث السّياسيّة المرتبطة بالقضيّة الفلسطينيّة مباشرة تجدها كثيرة على رأسها: حرب حزيران 1967 "النّكسة" الّتي من أهمّ نتائجها احتلال إسرائيل لباقي الأراضي الفلسطينيّة، وأحداث أيلول 1970 في الأردن وهي التّصادم المسلّح مع النّظام الأردني وإخراج المقاومة الفلسْطينيّة، والحرب الأهليّة في لبنان الّتي بدأت عام 1975، والاعتداءات الإسرائيليّة على مواقع المقاومة الفلسطينيّة والمنظّمة في لبنان طوال فترة السّبعينيات حتّى غزو لبنان وحصار بيروت وإخراج منظّمة التّحرير من لبنان في أيلول 1982 عقب مجزرة شاتيلا وصبرا، واتّفاق كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل سنة 1978، والانشقاق في حركة فتح والمنظّمة سنة 1983، وإعادة توحيد المنظّمة في عام 1987، وبدء الانتفاضة الفلسطينيّة في أواخر العام ذاته وحرب الخليج في أواخر عام 1990 وبداية عام 1991، وبدء مفاوضات مدريد في خريف السّنة نفسها، والتّوصّل أخيرا إلى اتّفاق أوسلو عام 1993، وهنا بعد التّوصّل إلى هذا الاتفاق مع الممثّل الشّرعي للفلسطينيين وهو م. ت. ف، انقسمت المَنَظّمة الّتي خاضت مختلف أشكال النّضال من أجل الاستقلال، في أكثر من مرحلة تاريخيّة، إذ تحوّل جزء منها إلى سُلطة، وجزؤها الآخر إلى معارضة قبل أن تُنجز مشروعها الوطنيّ[1].

إنّ اكتظاظ السّاحة السّياسيّة بكلّ الأحداث السّابقة وغيرها مما لم يذكر أدّى إلى تغيّرات جذريّة سيّاسيّة ومجتمعيّة على الفلسطينيّين وعلى العلاقاتِ الدّوليّة العربيّة وغيرها، كما جُبِلَت من هذه الأحداث مسيرة نضاليّة

1 انظر: هلال، جميل: **النّظام السّياسيّ بعد أوسلو دراسة تحليليّة نقديّة**، ط2، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2006، ص 2...74.

فلسطينيّة سقط فيها عشرات الآلاف من الشّهداء ومئات الآلاف من الجرحى والمعتقلين، وتخلّلها تدمير مخيّمات وتهجير وعمليّات إبعاد وحصار وإفقار، وهنا يأتي التّساؤل الهام: ما هي العلامات الفارِقة لتمثيلات المخيّم الفلسطينيّ في رواية ما قبل أوسلو؟

1. اعتمدت روايات ما قبل أوسلو على نمط واحِد من أنماطِ البُطولَةِ، وهو البَطَلُ الفِدائِيّ المُنتَصِرُ المُخَلِّص، سَعد في أمّ سَعد، وحسن ومحمود في العُشّاق وعليّ في الطّوق والخال عمران في تُفّاح المَجانين، فلم يكن في الرّواية متّسع لأنماطِ بطولة أخرى إذ كانت الشّخصيّات تتزاح أمام وهج المُقاوِمِ البَطَل، هذا البَطَل امتداد لبطولات أخرى في روايات لاحقة يحمل بذورها أطفال الرّوايات الآتيّة، كما كان بطل اليوم امتدادًا لماضي بطل البارحة: "جعل غَسّان، في زمن الكِفاحِ المُسلّح، من الصّبيّ الّذي يمتدّ في مستقبله ويمتدّ مستقبله فيه، مرجعًا كتابيّا تحريضيّا متوالدًا، فالشّاب الّذي يتدرّب على السّلاح موجود في عائد إلى حيفا، فهو مستقبل والده الّذي عطّله ماضيه، وله كُلّ المكان في أمّ سعد، إذ في اندفاع سعد إلى خيمة أخرى ما يمسح المهانة الّتي جاءت بها الخيمة الأولى"[1].

هذا المرجع التّحريضيّ المتوالد تمثّل في شخصيّة البطولة عند غسّان وعند غيره من الرّوائِيّين الفلسطينيّين قبل أوسلو، إذ احتفظ الرّواة بالحلم وعهدوا بتحرير فلسطين إلى بطل مختلف خلقته التّجربة اليوميّة القاسيَة في مخيّمات اللجوء، الّتي علّمته الفرق بين الذّلّ والكرامة وأنّ الاصطدام المباشر هو السّبيل الوحيد لاستعادة الكرامة المفقودة[2]، إذ خلاصة البطولة فيما قبل أوسلو بطل إيجابيّ فدائيّ وجهته الوطن وحلمه العودة من خلال الكفاح المُسلّح.

2. انهزامُ العُملاء على أيدي المقاوِمين وأهل المُخَيَّمِ، فقد حمل العملاء -على خلافِ الوجه الّذي دخلوا فيه إلى المخيّم وسواء أكانوا من أهله أم دخلاء عليه- العارَ، وقوبلوا بالرّفض والعدائِيّة، ووضعوا في خانة العدوّ، ففي مخيّم أمّ سعد يرفض سعد ورفاقه التّوقيع للمختار على ورقة يقرّون بها أن يكونوا "أوادم"؛ ليخرجوا من السّجن، فالمختار في عيونهم خائن، وكذلك ليث زميل سعد في صفوف المقاومة يرسل رسالة لأهله ممدّدا إياهم بعدم الكتابة لابن عمّهم الخائن المسؤول في البرلمان عبد المولى، وفي حال كتبوا له فما على سعد إلّا أنْ يطخّهم، وتكرر موقف رفض العملاء وإن كان في مشاهد مختلفة في الرّوايات الأخرى، فالعميل منبوذ ينهزم في النّهاية ويتمّ التّغلّب عليه وتستمرّ المقاومة، ففي العُشّاق حرق حسن مزرعة المختار واستمر في مقاومته.

---

[1] درّاج، فيصل: **الرّواية الفلسطينيّة من الزّمن الرّسوليّ إلى زمن مفتوح**، من مجلّة أوراق فلسطينيّة العدد 13 صيف 2016، مؤسسة ياسر عرفات، فلسطين، ص129.

[2] درّاج، فيصل: **رواية التّقدّم واغتراب المستقبل تحوّلات في الرّواية العربيّة**، ط1، دار الآداب للنّشر والتّوزيع، بيروت، 2010، ص201.

3. المتتبع لخواتيم الرّوايات الأربع الّتي تمّت دراستها في هذا الفصل يجد أنّها خواتيم متفائلة آملة حالمة بالعودة والتّحرير، فلا مكان في نهايات روايات ما قبل أوسلو للنّهايات المأساويّة، فأمّ سَعدٍ خُتِمَت ببرعمةِ الدّالية وإطلاقها، والعُشّاق في حلم إنجاب ندى ومحمود لأطفال صغار يحملون حُبّ الوطن بعد أن فقأ جدّهم "أبو ندى" عيني الخواجا داوود، وفي الطّوق كان المشهد الختاميّ مركّبا في دالة صارخة وواضحة على الأمل بالعودة والعمل لأجلها آخره أن انضمّ الأستاذ فهيم إلى صوت المخيّم المقاوم، وفي تفاح المجانين، عادت الطّيور إلى أعشاشها في الخاتمة، في عودة الخال عمران إلى أرض الوطن، الحلم الّذي يحمله أهل المخيّم جميعهم.

4. الآخر في رواية ما قبل أوسلو إمّا غير ظاهر ولا مكان لوجوده أو أنّه عدوّ لا انفتاح عليهِ ولا حوار معه، تبعا لمن يعمل معه من أهل المخيّم، فنموذج الآخر ظهر في مخيّم العُشّاق في شخصيّة الخواجا داوود رجل المخابرات المدّعي أنه عالم آثار، الّذي لم يكن مقبولا على أحد من أهل المخيّم بمن فيهم الرّجل البسيط أبو خليل الّذي فقأ عيني الخواجا في نهاية المطاف، معلنًا رفضه لأي وجود صهيونيّ.

5. الهمّ الوطنيّ الفِلَسْطينيّ هو الهمّ المُسَيْطِرُ على المخيّم وأفرادِهِ، والهموم الاجتماعيّة ثانويّة جدّا يمكن التّغلّب عليها، فلم تتوقّف الرّوايات عند قضايا اجتماعيّة ولا حتّى شخصيّة، بل سار أربعتها في همّ واحد وهو الهمّ الفلسطينيّ الغالب والحلم الدّائم بالعودة وسبيله الوحيد الكفاح المُسَلّح والمناداة الدّائمة بالانضمام إلى صفوف المقاومة.

6.الاندفاع نحو العودة، هدف واحِدٌ من المقاوَمَة في الرّوايات المطروحة وهو أن يعودَ اللاجؤون إلى أعشاشِهم في أرض الوطن، فلم يكن حمل السّلاح في مخيّمات ما قبل أوسلو لسبب شخصيّ ولا لتصفيَة حسابات داخليّة، وإنّما سبيل واضِح ووحيد لاستعادة الكرامة المفقودَةِ، فقد امتاز أدب ما قبل أوسلو بأنّه أدب نَفَقٍ، في نهايَتِهِ الخلاصُ من كُلّ العتمَةِ الّتي مرّ بها.

6. ارتبط الاندفاع نحو العودة بالانسلاخ عن المخيّم كمكان بديل، فالمخيّم ليس الوطن، والوحل كما قال سعد سيغمر أهل المخيم يوما ما، في دلالة على رفض هذا المكان المغصوبِ عليهِ أهله: "اعتبر كنفاني أنّ الخروج من الوطن عار، وأنّ المخيّم صورة عن العار وتجسيد له، وأنّ الإنسانَ الحقيقيَّ هو الّذي يختار ويقرّر ويرفض ما فُرِضَ عليه وينتصر"[1].

[1] درّاج، فيصل: **رواية التقدّم واغتراب المستقبل**، ص201.

الفَصْلُ الرّابِع: المُخَيّمُ الفِلَسْطينيّ في نَماذِجِ رِوايَةِ بَعْدَ أوسلو

- تمهيد
- المُخَيّمُ في الرّواية الفلسطينيّة بعد أوسلو: حيّز بديل للوطن.

⇐ مُخَيّمُ ماء السّماء

⇐ مُخَيّمُ حليب التّين

⇐ مُخَيّمُ حياة مُعَلّقة

⇐ مُخَيّمُ مُخمل

- عَلاماتٌ فارِقَةٌ لِصورَةِ المُخَيّمِ بعد أوسلو

وهل يا أبي مثلما يزعمون:
المدينةُ تسقطُ؟
أم أهلها وحدهم يسقطون تباعًا
إذا ابتعدوا عن جوانحها
ثم هاموا وضلوا الطريق؟
المدينة تَسقطُ يا ولدي
تتلاشى وتضمرُ
تهوي إلى قعر جُبٍ عميقْ
يسقط يا ولدي
يسقط الناس من روعِهمْ
بعد أن يتهاوى المكان
الذي كان مأوىً يظللهم
وإليه يفيئون
ماذا سيبقى لهم بعد ذلك
غير السقوطِ السقوطِ
إلى قعر هاويةٍ ما لها من قرار.

-محمود درويش-

تمهيد

يعد توقيع اتّفاق أوسلو في أيلول 1993 منعطفًا نوعيًّا للنّظام السّياسيّ الفلسطينيّ، إذ تمخّض عن هذا الاتّفاق قيام سُلطة فلسطينيّة على مساحة محددة (مجزَّأة ومقيّدة) عام 1994، فتولّد صراع آخر تبعًا لذلك وهو رسم حدود هذا الإقليم وشكل السّيادة الوطنيّة عليه[1]، خاصّة بعد التّوقيع على بنود الاتّفاق الّذي اعتبره المؤرّخ الإسرائيليّ إيلان بابِه "سلامًا ممزومًا، مُندّدًا بعنف صهيونيّ متوارث يعترف بأرض فلسطين ولا يعترف بوجود الفلسطينيين"[2].

ظهرت بعد اتّفاق أوسلو تبعات على الصّعيد السّياسيّ والقانونيّ والاجتماعيّ والثّقافيّ، كغيره من الاتّفاقات، فقد أثّرت على محيط الصّراع الفلسطينيّ الإسرائيليّ عربيّا وعالميّا، فمنظّمة التّحرير الوطنيّ الفلسطينيّة البارحة وقَعَتِ اليوم (1993) في ازدواجيّة تاريخيّة فيما يتعلّق بدور قيادتها الّتي صارت في جزء كبيرٍ منها قيادَة للسّلطة الفلسطينيّة المستجدّة بعد أوسلو، وعليها كذلك أن تُساهم في التّشكيلات المجتمعيّة والسّياسيّة الجديدة من المناطق الّتي انسحبت منها إسرائيل في الضّفّة الغربيّة وقطاع غزّة[3]، باتت السّلطة ظاهرة أساسيّة لا يمكن تجاهل تطوّرها وتأثيرها في المستقبل السّياسيّ المجتمعيّ في فلسطين والشّتات.

تبعًا للوضع السّياسيّ الجديد، فإنّ بنية الخطاب الفلسطينيّ اختلفت واشتملت على محاور جديدة لم تكن مطروحة من قبل على لسان م. ت. ف، فلم يعد النّضال الفلسطينيّ وحقّ العودة وحلم التّحرير والكفاح المسلّح هو الخطاب المطروح على الطّاولة، صارت بنية الخِطاب تشتمل على "الدّيمقراطيّة، والمواطنة، وحقوق الإنسانِ، والانتخابات، والعلاقة بين السّلطة التّنفيذيّة والسّلطة التّشريعيّة، واستقلاليّة القضاء، وحريّة الصّحافة والإعلام، والتّنمية الاقتصاديّة وبرامج التّعليم، والعلاقة بين السّلطة والمعارضة، وتوسيع رقعة الانسحاب الإسرائيليّ والمفاوضات، والمعابر ... وغير ذلك"[4]، إذن مصطلحات دولة بلا دولة ولا شعب، بالإضافة إلى ذلك ما تبع هذا الخطاب من مفردات داعمة بدءًا من سيادة الدّولة مرورًا بمكتب الرّئاسة وشرطة فلسطينيّة ووصولا إلى ضرائب على مواطني دولة فلسطين!، إذن الإقليم يصير دولة مستقلّة، وحقّ العودة والنّضال لأجله يتراجعان عن سلّم الأولويات في الخِطاب وفي التّنفيذ.

---

[1] انظر: هلال، جميل: **النّظام السّياسيّ الفلسطينيّ بعد أوسلو**، ص 74\75.

[2] درّاج، فيصل: **"رباعيّة البحيرة" وصور الهويّة الفلسطينيّة**، من مجلّة الدّراسات الفلسطينيّة العدد 118 ربيع 2019، ص200.

[3] انظر: هلال، جميل: **النّظام السّياسيّ الفلسطينيّ بعد أوسلو**، ص 1\4.

4 **المصدر نفسه**، ص74.

إنّ هذا التّغيير السّياسيّ بكلّ مفرداته انسحب إلى الأدب، خاصّة وأنّ عددًا من مثقّفي الوطن، أدبائِهِ ونقّاده ومفكّريه، كانوا من مؤسسي وأعضاء منظّمة التّحرير الوطنيّ الفلسطينيّة، ومنهم من رفضَ هذا الاتّفاق واستقال من المنظّمة الّتي صارت سلطة مع استمراريّة دعمه وعمله لأجل فلسطين كإدوارد سعيد مثلا، ومنهم من عارضه من منطلق مسؤوليّته الثّقافيّة لكنّه عاد مع من عادوا، ومنهم من قبله وأقبل على العودة دون معارضة، هذا التّحفّظ على الاتّفاق لم يكن عند المثقّفين فقط بل عندَ القادَة أيضًا، فالرّئيس الفلسطينيّ الرّاحل ياسر عرفات كان من المتحفّظين على هذه الاتّفاق، لكنّه يراه الحلّ الوحيد في ذلك الوقت، وفي هذا يقول عبد الباري عطوان: " أذكُر أنّه انتحَى بي جانبًا، عندما خرجنا من مكتبه في حي يوغرته في تونس بحُجَّة التَّمشِّي، وللابتعاد عن أجهزَة التَّنصُّت، وقال لي أريد أن أقول لك أمرًا أرجوك لا تذكره أو تنسبه إليّ إلا بعد وفاتي، فتنهَّد وقال : "أنا ذاهب إلى فِلسطين عبر بوّابة أوسلو، رَغم كُل تَحفُّظاتي، من أجل ان أُعيد المُنظَّمة والمُقاومة إليها، وأعدك أنّك سترَى اليهود يهربون من فِلسطين مِثل الجرذان التي تهرب من السَّفينة الغارِقة، هذا لن يتحقَّق في حياتي، ولكن في حياتِك أنت، وأكَّد لي أنّه لا يَثِق بالإسرائيليين مُطلقًا، وأجزِم أنّه كان صادِقًا، وأنا أحكُم هُنا على الظَّواهِر، والله أعلم بالبَواطِن"[1].

رغم هذه المحافظة الّتي نُسِبَت إلى الرّئيس كما يذكر عبد الباري عطوان إلّا أنّ الرّئيسَ لم يتوانَ في إقناعِ المثقّفين الفلسطينيّين الّذين ترددوا في العودة بالعودة معه، وفي هذا تحدّث الرّوائيّ الفلسطينيّ يحيى يخلف في مقابلته الأخيرة على صفحة وزارة الثّقافة الفلسطينيّة، إذ يقول إنّه ومحمود درويش ورشاد أبو شاور وحسن خضر كانوا من الرّافضين لبنود الاتّفاق وعبروا عن ذلك في بيت يحيى يخلف في تونس، حتّى أنّ يحيى يخلف كتب مقالا في الحياة اللندنية يعبّر فيه عن موقفه المعارض للاتّفاق من مواقع الالتزام كمثقف، وقد عاتبه ياسر عرفات على ذلك وأزعجه الأمر وطلب منه حينها العودة إلى الوطن رغم كلّ المآخذ على الاتّفاق، وقد قبل يخلف إذ كان شغوفا للعودة ولو حبوًا، وبعد يخلف بشهور أعاد ياسر عرفات محمود درويش من باريس إلى الوطن، في رغبة من الرّئيس الرّاحل بعودة المثقّفين بأفكارهم لخلق فكر فلسطيني واع على أرضها[2]. أمرٌ طبيعيّ عودة المثقّفين على خلافِهِم إلى الوطن، فوجودهم هامّ وأساسيّ للدّولة، لكنّ الأسئِلة الّتي تُطرح في هذه العودة كثيرة:

[1] انظر: https://www.raialyoum.com/index.php/ربع-قرن-على-مصيدة-أوسلو-لماذا-عارضناها/، استرجِع بتاريخ: 15\3\2020.

[2] انظر: https://www.facebook.com/ministryofculturep/videos/294568124859385/، استُرجِع بتاريخ: 7\4\2020.

هل خدمت الكتابات الرّوائيّة أجندة سياسيّة بعد اتّفاق أوسلو؟ هل سلّمت الرّواية الفلسطينيّة سلاحها بعد أوسلو كما سلّمه الواقع؟ هل فاوضت الرّواية ونحّت العلم المقاومَ وراجَعت دور المؤسسة الوطنيّة؟ كلّ هذه الأسئِلة تحللها الدّراسة وتجيب عنها في هذا الفصل من خلالِ تتبّع تمثيلات المخيّم في الرّواية الفلسطينيّة تبعًا لعيّنة الدّراسة؛ لتحدّد في نهاية الفصل الإجابة عن السُّؤال الأهمّ والملخّص: ما هي العلاماتُ الفارِقَةُ لتمثيلات المخيّم بعد أوسلو تبعًا لعيّنة الدّراسة؟

المُخَيَّمُ في الرّواية الفلسطينيّة بعد أوسلو: حيّز بديل للوطن.

مُخَيَّمُ ماءِ السّماءِ

"كنت أودّ أن أعود إليك قبل أن تجفّ عروقي،

وأتحوّل إلى غصن سقط عن شجرة، فجفّ،

وتحوّل إلى مجرّد عصا ملقاة على قارعة الطّريق"[1]

ينتمي يحيى يخلف إلى المؤسسة الوطنيّة الأولى في فلسطين بعد النّكبة 1948، وهي منظّمة التّحرير الوطني الفلسطينيّة، الّتي تحوّل قسم منها إلى سلطة إثر اتّفاق أوسلو 1993، وقد عكست أعمال يخلف الأدبيّة التِزامه المؤسّساتيّ، فأرّخت للقضيّة الفلسطينيّة بما يتناسب ورؤى المؤسسة الّتي يمثّلها.

يتألّف مَشروع يخلف الرّوائيّ حتّى كتابة هذه الدّراسة من إحدى عشرة رِواية إضافة إلى إنتاجات أخرى، لم يعتمد في رواياته التّناسق ما بين زمن الإصدار وزمن السّرد، ضمّ أربعا من هذه الرّوايات في مشروع منفصل تحت عنوان "رباعيّة البحيرة"، في جزئها الأوّل "بحيرة وراء الرّيح" تجري الأحداث قبيل النّكبة وما بعدها من تهجير وصولا إلى المخيّم في إربد، وفي الجزء الثّاني "ماء السّماء" روى رحلة التهجير واصفا الشّقاء والمذلّة في المخيّمات منذ الخروج من سمخ والمرور بالحمّة والمخيبة حتى إربد، هذه المرحلة الّتي طحنت أجسادهم وكرامتهم حتى بداية السّتينيات، وربط هوية اللاجئ والأرض الّتي جاء منها في رواية "جنّة ونار" وهي الجزء الثّالث من الرّباعيّة، وعكس الجزء الرّابع "نهر يستحمّ في بحيرة" مناخات ما بعد أوسلو، وأفصحت الرّوايات الثّلاث الأولى: "رمزيّا عن منفى ينتهي إلى عودة وأعلنت الأخيرة عن رحيل التّفاؤل وحضور الأمل: ففي الأول زمن مستقيم يقينيّ الانتصار، وللثّاني زمنه المتقطّع المسكون بأكثر من انتظار ومفاجأة"[2].

---

[1] يخلف، يحيى: **ماء السّماء**، ص282.

2 درّاج، فيصل: **"رباعيّة البحيرة" وصور من الهويّة الفلسطينيّة**، ص201.

حمل الجزء الثّاني من الرّباعيّة اسم "ماء السّماء" هذا الاسم الّذي بدأت ملامحه تتخلّق في "بحيرة وراء الرّيح"؛ إذ يعود الاسم للطّفلة الّتي وجدها السّائق أبو حامد ذات يوم وهو في الطّريق بين بحيرة طبريا وباب التّمّ عائِدا مشيًا إلى سمخ[1] بعد أن انقطع الوقود من التّاكسي، فانتظر ليجد أهلها وبحث حوله وحين فقد الأمل، أخذ الطّفلة معه وتعهّدها بالتّربية هو وزوجته[2]، واعتبرها هبة من السّماء كونه لم ينجب أطفالا، وأطلق عليها فيما بعد اسم ماء السّماء: "قال أبو حامد لجلسائه: ماء السماء اسم عربي أصيل، ألا تذكرون في كتب التاريخ الأمير العربيّ، أمير الغساسنة[3] المنذر، لقد كانت أمّه تسمّى بهذا الاسم، وكانوا يقولون: المنذر بن ماء السّماء".[4]

وَصْفٌ عامٌّ لمخيّم ماء السّماء

قسّم يخلف روايته إلى ثمانية وثلاثين فصلا، حكى بها قصّة اللجوء الفلسطينيّ من عام 1948 وحتّى بداية السّتينيات، من خلال تتبّع مسيرة عائلة الحاج حسين وجيه قرية سمّخ، وزوجته خديجة، وابنيها راضي وماهر، إضافة إلى سُكّان القرية الّذين كانت تربطهم بهم علاقة في سمخ واستمرت في رحلة اللجوء والشّقاء، العمّة حفيظة وزوجها، أمّ إبراهيم وابنتها بدرية وطليقها نجيب، أبو حامد سائق التّاكسي وعائِلته، منصور بائع التّذاكر في محطّة القطار، خالد الزّهر راعي الفرس البيضاء، وعبد الكريم الحمد صاحب دار الأمان، وفطيمة زوجة الشّهيد قاسم التّايف، شخصيّات عديدة خرجت من سمخ، منها ما بقيَ في مخيّم إربد ومنها من ترك المخيّم لينتقل إلى مخيّمات أخرى، أو يحاول العودة إلى الوطن، تتزايد الشّخصيّات فيما بعد، لتنضم لها شخصيّات جديدة جمّعتها المأساة ورحلة اللجوء الفلسطينيّ.

---

[1] قبل عام 1948، كانت سمخ كبرى القرى في قضاء طبرية، من حيث المساحة وعدد السّكان، كان بها محطّة قطار لسكّة الحديد الّتي تصل حيفا بسكّة حديد الحجاز، كان سكّانها يتألّفون من 3320 مسلمًا، و130 مسيحيّا، و10 من ديانات أخرى، كانت أكثريّتهم من قبيلتيّ عرب الصّقور وعرب البشاتوة البدويّتين، اللتين استقرّت فيها سنة 1945، خلت القرية من السّكّان في نهاية نيسان، عقب الاستيلاء على طبريّة في 18 نيسان 1948، أقيمت على القرية مجموعة مستعمرات منها مسادة وهغولان ...، لم يبق من معالم القرية اليوم إلّا محطّة قطار سكّة الحديد وخزّان مياه، وقد أنشأ سكّان مستعمرة دغانيا ألف في موقع القرية متنزّها للسّياح، ومحطّة للوقود، ومصنعًا، أمّا الأراضي المجاورة، فمزروعة، انظر: الخالدي، وليد: **كي لا ننسى**، ط1، مؤسسة الدّراسات الفلسطينيّة، بيروت، 1997، ص 396 ... 394.

[2] انظر: يخلف، يحيى: **بحيرة وراء الرّيح**، ط2، دار الآداب للنّشر والتّوزيع، بيروت، 2008، ص235 ... 245.

3 وقع الكاتب هنا في خطأ تاريخيّ، فالمنذر بن ماء السّماء هو ملك الحيرة وأمير المناذرة، وليس الغساسِنة، ولقّب بذي القرنين، انظر:
https://www.taree5com.com/المنذر-بن-ماء-السماء/

[4] يخلف، يحيى: **ماء السّماء**، ص200.

خرجت النّسوة من سَمَخ تارِكة وراءها الرّجال يواجهون العِصاباتِ الصّهيونيّة بأرْدَأ الأسلِحَةِ وأقلّ الذّخيرة، يملؤهم حبّ الوطن والتّمسّك بهِ، خرَجت النّسوة تترأسهم العمّة حفيظة ولا ذكور سوى راضي الصّغير وخالد الزّهر الّذي تولّى قيادة العربَة، تنقّلت النّسوة من سمخ إلى الحمّة ومن ثمّة المخيبة شرق النهر، ليلتحق بهم الرّجال محزومين في المخيبة، ومن ثمّ الانتقال بمساعدة الخال عبد الكريم الحمد إلى مخيّم إربد، ويحظى كُلّ منهم بقطعة أرض ينصب عليها خيمة وتصير الخيمة فيما بعد بيتًا، هذه القطعة الّتي لا تتسع لبيت الشّعر خاصّةِ العمّة حَفيظَة: "يا جماعة ... منظّمة خيريّة أجنبيّة خصصت قطعة أرض في ضواحي إربد لتكون مأوى للاجِئين، وقد سجّلت أسماءكم هناك، وعليكم أن تذهبوا سريعا لاستلام الخيام وموادّ التّموين، والحصول على قصبة واحدة من الأرض لكلّ عائِلة لكي تنصِبوا فوقها خيامكم ... أرجوكم، ليس هناك وقت نضيّعه، وإلّا فقدتم هذه الفرصة"[1]، وسواء أكان الشّتات والتّيه في الحمّة والمخيبة مؤقّتا أم في مخيّم إربد دائما فقد كانت المعاناة واحدة، فقر وضيق حال وجوع وقلّة حيلة تبعها تفشٍ للأمراضِ كالملاريا الّتي أصابت بدريّة، وعدم استطاعة أهل المخيّم مواجهة كلّ هذه الدّوائر الّتي تشدّ حلقاتها عليهم، إضافة إلى بحث دائم عن أيّ عمل مهين أو كريم لكنّه يؤمن قوت اليوم للعائِلَة، العائِلة الّتي كانت عزيزة في وطنها أو مكتفية، صارت اليوم تعيش في نزاع دائم لأجل البَقاء، وخير مثال على ذلك مشهد العراك لأجل الحصول على القليل من الماء في كُلّ مرة يحضر خزّان الماء للمخيّم، أو العراك لأجل قصبة الأرض مسبقا، والعراك لأجل التموين الشّهريّ لاحِقا: "تدافع النّاس وتعاركوا حول خزّان الماء وعجز سائِق الشّاحنة عن السّيطرة، ففتح الباب وانسلّ من بين الجموع، وازداد في الوقت نفسه الصّراع من أجل الحصول على الماء"[2].

المُؤسسات الأجنبيّة في مُخَيّم ماء السّماء

رافقت المؤسسات الأجنبيّة سُكّان المخيّم، وقد توسّع عملها فلم تعد مسؤولة كالأونروا عن تأمين الطّعام لأفراد المخيّم فقط بل قفز عملها إلى توجّه آخر في أخذ بعض أبناء المخيّم وترحيلهم إلى إنجلترا لتتولاهم عائِلات إنجليزيّة ويعود الأطفال كِبارا بشهادات علمية كما حصل مع حسن الشّاطر، الطّفل الذّكي ابن التّركمليّ، الّذي تنازل عنه والده لصالح مؤسسة الكويكرز الأجنبيّة حتّى يتلقّى تعليما متميّزًا في إنجلترا وليخفف الأب من لقمة وسط تعداد اللقم وضيق الحال، لكنّه

[1] يخلف، يحيى: **ماء السّماء**، ص37.

[2] **المصدر نفسه**، ص42.

سرعان ما أصيب بصدمة بعد أن منح ولده للمؤسسة، فتوالت المِحَن عليه، الّتي ستعرضها الدّراسة لاحِقا: "التّركماني كان في بداية الأمر فرحًا لأنّ حسن الشّاطر سيذهب ليلتحق بمدرسة إنجليزيّة، ويتلقّى تربية نموذجيّة، ويتعلّم اللغة، ويعود طبيبًا أو مهندسًا، الأولاد يملؤون البيت، ماذا لو غاب أحدهم؟"[1]، هذا التّساؤل في الفراغ، كانَت إجابته مملوءة بالانكسار والضّياع، ماذا لو غاب أحدهم؟ وحين غاب حسن الشّاطر هام التّركمانيّ على وجهه في أزقّة المخيّم ولم يعد هُو.

اختلفت توجّهات أهل المخيّم ونظرتهم للمؤسسات الأجنبيّة، في غالبيّتها كانت نظرة رافضة شاعرة بالدّونيّة والخجل أمام هذه المؤسسات، ففي حين فتح التّركمانيّ باب بيته لهذه المؤسسات، صُدّت أبواب أخرى في وجهها، وتعاملت معها في حذر شديد، وإن كانوا لم يتعفّفوا عن خدمات هذه البعثات، من مأكل ولباس رغم أنّ هذا اللباس لا يتلاءم مع طبيعتهم وعاداتهم وتقاليدهم، إلّا أنّ الحاجَةَ كانت أعظم من العِفّة، هذا القبول بالخدمات ارتبط في دواخلهم بانكسار، ونظرة دونيّة إلى ذواتهم وإلى هذه البعثات الّتي كانت مشاركة من وجهة نظرهم في الكارِثة، والآن تمدّ لهم يد العون والكرم: "شعر كلّ واحد منهم أنّه يُهان أمام الآخر، فهذه أوّل مرّة تعرض عليهم الصّدقة في واقعهم الجديد، لم يستطع أيّ منهم أن يتحمّل مسؤوليّة رفض هذه المساعدة، يتذكّر راضي ذلك، وسيظلّ يتذكّره لفترة طويلة، دار حوار عصبيّ، فقد قال عبد الكريم الحمد: كلّ مصائبنا من الإنجليز، وقالت العمّة حفيظة: منذ أن رأيت هذه المرأة تذكّرت النّساء اليهوديّات في طبرية، وقال أبو حامد: يصنعون الكارثة ثمّ يظهرون لنا إنسانيّتهم ..."[2]، رغم هذا الموقف الرّافض من البعثات إلا أنّ أهل ماء السّماء يرتدون اللباس الّذي أحضرته لجنة المعونات، اللباس الّذي لا يشبه أحدًا منهم، على العكس يثير سخرية العابرين من سكّان القرية أو المناطق المجاورة، فيكتمون ضحكاتهم كما يكتم أهل ماء السّماء الإهانة وشعور الغربة في هذا اللباس بعد أن دجّنهم الفقر والعوَز.

[1] يخلف، يحيى: **ماء السّماء**، ص 204.

[2] **المصدر نفسه**، ص30.

الهُموم الاجتماعيّة في مُخَيّم ماء السّماء

تخطّى أهل مخيّم ماء السّماء مرحلة التّيه الّتي عاشوها بفعل التّكبة واللجوء والتّشرّد وما تبع ذلك من انكسارات، فبعد أن كانوا محبطين يائِسين يتيهون عن وجودهم، مكتفين بالنّواح والتّحسّر على الوطن الضّائع، مستذكرينه ببكاء دائم على أطلال العزّ الّذي كانوا يحيونه في سمخ أو في قرى أخرى، كون مخيّم ماء السّماء شمل غير أهالي سمخ، استفاقوا إلى ذواتهم وإلى حقيقة الحال الّتي وصلوا إليها، وسعوا إلى تحقيق نجاحات على الأصعِدَةِ كافّة، فأخذوا يبحثون عن أعمال تضمن لهم كرامتهم ورزقهم، فتوَجّهوا إلى المدينة باحثين عن عمل، فالحاج حسين عمل بائِعا للملابس المستعملة (البالة) وعمل في رصف الطّرق كعامل مياومة، وفي بيع الحبوب في أسواق الجمعة، ومن ثمّ حارِسًا لمزرعة الدّكتور طلعت وبعدها حارِسًا لعمائر قيد الإنشاء إلى أنْ صار مالكًا لمزرعة بفضل مال عبد الكريم الحمد، ومحمّد أنيس العريس الّذي لم يكتمل عرسه على بدريّة باع العنبر لأطفال المدينة، وبدريّة عملت خيّاطة عند السّيّدة فتحيّة إلى أن اشترت ماكينة وصارت تعمل إضافة إلى عملها لحسابها الخاصّ، والأستاذ رياض عمل داخل المخيّم معلّم رياضة في إحدى مدارس الوكالة، إضافة إلى العمل على تنمية الوعي الوطني بتثقيف الأفراد المحيطين به سياسيّا وضمّهم إلى حركة القوميّين العرب كما فعل مع راضي، وكان للتّركمليّ نصيب في العزف على الرّبابة في أيّام الشّتاء، وفي الصّيف يعمل في معمل الثّلج: "عمل الآباء في شتّى المهن الوضيعة، عملوا عتّالين، وباعة متجوّلين، وعملوا في ورشات الأشغال العامّة، حرّاسًا وراصِفي طرق، عملوا في مدّ الرّفتة، وفي نضح الحفر الامتصاصيّة، بل وعملوا ماسحي أحذية"[1]، إذن عملوا بكلّ ما يمكن العمل بِهِ ليصارِعوا البَقاء، ويبقوا، هذا كانَ همّهم، كيف يستمرون في هذه الحياة، وكيف يتغلّبون على كمّ هذه المِحَنِ الّتي يختبرهم بها اللجوء.

إذن واجه أهل مخيّم ماء السّماء هذه الظّروف، فبالإضافة إلى بحثهم عن الأعمال في شتّى الطّرقِ ليُحَقّقوا ذواتهم، أصرّوا أيضًا على إلحاق أبنائِهم بالمدارِسِ، فالحاج حسين أكمل تعليم ابنه راضي حتّى تخرّج عام 1962 محاميّا من دمشق، والتّركمليّ منح ابنه للبعثات الأجنبيّة كي يعلّموه ويثقّفوه، وإن كان قد ندم فيما بعد ندمًا شديدًا، كما أصابت أهل المخيّم صحوة وطنيّة ملحوظة برزت من خلال المشارَكَةِ بالمظاهرات والاحتفاء بالوحدة بين مصر وسوريّا، والانخراط في الأحزاب المتوافرة آنذاك، فراضي انخرط في حركة القوميين العرب، وبدريّة انجذبت إلى الحزب الشّيوعيّ

[1] يخلف، يحيى: **ماء السّماء**، ص72.

وحضرت لقاءاتِهِ: "لست عضوة في الحزب، ولكنني أشارك في الحلقة كنصيرة، لم أطّلع على أهدافهم كاملة، وإنّما الّذي جذبني هو اهتمامهم بقضايا المرأة وبالفقراء من عمال وفلاحين وصغار الكسب، في الواقع هذا هو الّذي يهمّني"[1]، وعلّ هذا التنوّع في شخصيّة المرأة وإعادة تمثيل أدوارها هو التّسامي الأهمّ في الرّواية.

كما حمل يخلف أبناء سمخ إلى المخيّم فإنّه حمل معهم حيواناتها بأبهى صورها وأكثرها إنسانيّة، حتّى جعلها جزءًا لا يتجزّأ من أهل سمخ تحديدا عائِلة الحاج حسين، فها هي الفرس البيضاء والكلب أبو فروة الّذين يطلقون عليه اسم الذّيب والبغل لاجِئون كما لجأ الحاج حسين وعائِلته وجيرانه، ينفق في بداية اللجوء البغل العجوز ربّا من الجوع أو لتقدّمه في العمرِ كما خمّن المحيطون، فقد وجدوه جثّة هامِدَة: "ينام على جنبه ويريح رقبته الطّويلة على التّراب، استراح من العناء والمكابدة"[2]، بهذه الصّورة الإنسانيّة العميقة يُصَوّر يخلف نفوق البغل كأنّه فرد من أفراد العائِلَة، فيبكيه خالد الزّهر الّذي كان يولي كلّ الرّعاية للحيوانات وعلى أخصّها الفرس البيضاء، لتبقى بعد ذلك الفرس البيضاء وحيدة مع خالد الزّهر بعد أنْ تخلّى الحاج حسين عن الذّيب لإلحاح أهل المخيّم عليه بسبب انزعاجهم وخوف الأطفال منه، فقد صار بعدها الذّيب كلب شوارع يقود بقيّة الكلام، كأنّ يخلف أعطاه صلاحيّة التّمرّد على الواقع ورفضه بعد أن تخلّى الجميع عنه، فصار يؤذي المحيطين ويبثّ الرّعب في الأمكنة الّتي يتواجد بها، حتّى أنّه في ليلة الثّلج انقضّ على قِطّة في ساحة بيت الحاج حسين ومزّقها إربا، فأصاب بدريّة وراضي بالذّهول عندما خرجا ورأياه: "انحنى الكلب وحمل الضّحيّة بين فكّيه وولى هارِبًا، كانت بدريّة منفعلة، هزّها المشهد، فكأنّها تُشاهِدُ جريمة قتل في عتمة الليل، ضرب راضي كفًا بكفٍّ، وقال وقد غمرته الدّهشة: إنّه الذّيب، انظري إلى فروته البيضاء، إنّه الذّيب الّذي تحوّل إلى كلب شرس"[3]، لينفق الذّيب في نهاية الأمر بوساطة السّمّ الّذي وضعه له رجال البلديّة في قطعة لحم ألقوها له في المقبرة مكان تواجده الدّائم، بعد أن فشلت محاولاتهم في قتله، بهذه الأنسنة للحيوان يوضح يخلف أنّ الشّتات والتّشرّد بسبب النّكبة لم يقتصر على أبناء الوطن فحسب بل امتدّ إلى حيواناتهم، الحيوانات الّتي كانت وديعة وهي تعيش في دفْء الوطن وصارت شرسة عندما تشرّدت خارج أوطانها، تماما كما حصَل مع كثير من أبناء الوطنِ، الّذين استشرسوا على ذواتهم وعلى الآخرين؛ ليضمنوا البقاء.

---

[1] يخلف، يحيى: **ماء السّماء**، ص147.

[2] **المصدر نفسه**، ص33.

[3] **المصدر نفسه**، ص94.

أولى يخلف أهميّة عظمى ووصفًا مميّزا للفرس البيضاء، لما للخيل من علاقة نادِرة بينها وبين صاحِبها، إذ إنّها تشتاق له وتفتقده وتشعر به، وهذا تماما ما فعله مع الفرس البيضاءِ، فقد عايَشَ صهيلها شوْقًا في غياب الحاج حسين والرّجال في بداية اللجوء، وصهيلها فرحا عند عودتهم، فكانت كُلّما انهارت وجمحت أخذها خالد الزّهر إلى الماء القريب كي يخفف عنها ويشعرها بالرّعاية، لقد كانت تربط خالد الزّهر بالفرس البيضاء علاقة أقرب إلى الإنسانيّة، فهو متعلّق مفتون بها يوليها كلّ رعايَة، حتى إذ ماتت انفجر الصّوت بداخله وأخذ يبكيها وهو يشكو للخال عبد الكريم الحمد وفاتها وكأنّها أعزّ عزيز لديه: " قال الزّهر وسط البكاء والذّهول، ماتت البيضاء، الشّهباء، الضّامرة، الأصيلة، وسكت قليلا وهو يندب، ماتت ذات العنق الطّويل، والعينين السّوداوين، والجسد الجميل، ذات السّيقان العالية، والبطن الضّامر، والكفل المكتنز والشّعر الطويل .."[1]، ويسترسل في وصوفها وبكائِها، ليتكمل قهره عندما يخبر الخال عبد الكريم أنّ النّور سلخوا جلدها وصنعوا منه ربابة، هذه الرّبابة الّتي سبّبت قطيعة بين التّركمليّ والحاج حسين؛ لأنّ منذر الحيفاويّ أقنع التّركمليّ أنّ الرّبابة الّتي اشتراها من النّور صُنعت من جلد الفرس البيضاءِ خاصّة الحاج حسين، إلى أن جُلِيَت الأمور بينهما وصارَ كُلّما عزف التّركمليّ على الرّبابة سمع الحاضِرون صهيل الفرس البيضاء تعدو في سمخ، هذه العلاقة الإنسانيّة بين اللاجِئ وحيوانه تجسّد المعاناة في أسمى أشكالها: :لم تكن الدّواب كائِنات بكماء في تلك اللحظة، كانت فلذات أكباد تستحقّ البكاء"[2].

تكَسّر النّسيج الاجتماعيّ في مخيّم ماء السّماء وتخلخل ترتيب الطّبقات، فمع مرور الأيام تساوى فقراء سمخ مع أغنيائها في المخيّم، وصاهرت العائلات الّتي كانت تعتبر نفسها مرموقة أيّام البلادِ العائلات الوضيعة في نظرها، وجزء لا بأس منه هاجر مرّة أخرى إلى مناطق مجاورة للبحث عن لقمة العيش؛ لضيق الحال في مخيّم ماء السّماء أو محاولة للبحث أنْ فرصة حياة أكثر كرامة، كما فعل أبو حامد وعائِلته، إذ هاجر إلى لبنان وصار يعود إلى مخيّم إربد زائرا بين الفترة والأخرى وقد بدا عليه يسر الحال والرّاحة، وقد حلّل أهم المخيّم ذلكَ بأنّه كرامة من الله لرعايته الطّفلة ماء السّماء، وكذلك فعل زوج العمّة حفيظة فقد ضاقت به الدّنيا بعد موتها ورحل عند أقاربه في مخيّمات سوريّة، ومن قبلها رحل منصور إلى درعا ليحيا بالقرب من سكّة الحديد، وفطيمة زوجة الشّهيد قاسم التّايف عادت أدراجها إلى النّاصِرة،

[1] يخلف، يحيى: **ماء السّماء**، ص 107.

[2] **المصدر نفسه**، ص109.

وسيطر همّ واحد ووحيد على أهل مخيّم ماء السّماء: كيف يتدبّرون قوت يومهم ويعيشون حياة كريمة بشتى الإمكانات وسط كُلّ هذا الذّلّ؟ هذا الهمّ الّذي سخّر أهل المخيّم طاقاتهم لأجله.

لم يتوَقّف تخلخل النّسيج الاجتماعيّ عنْدَ تفكك العائِلات وتشعّبها في المناطق المجاورة، بل تعدّى إلى تحوّلات لافتة ألمّت بأهل فلسطين في شتاتهم وما أصابهم من عطب في ذواتهم، فأهل مخيّم ماء السّماء سواء من سمخ أم غيرها، البسطاء الطّيّبين الّذين كانوا يلتفّون حول بعضهم البعض ظهر بينهم المشعوذون والمتطرّفون دينيّا حتّى وصل الأمر لافتتاح عيادة قرآنيّة على يدي أحمد بيك الّذي صار الشّيخ أحمد زوج الشيخة أمينة الّتي حملت لقب البسّة قبل زواجها منه، وصار يروّج لها منذر الحيفاويّ ويدعو البقيّة للانضمام إليها كحزب دينيّ، ويحلّل ويحرّم ما يفعله الآخرون، هذه العيادة القرآنية الّتي كانت تمتهن ضرب النّاس وتعنيفهم بحجّة إخراج الشّياطين من أبدانهم، كما فعل شيوخها مع التّركمليّ بعد أن صار سكّيرا على إثر سفر حسن الشّاطر، فأوسعوه ضربًا وإهانة حتّى علمت زوجته بما يتعرّض له، وفضحت أمرهم، فأغلِقت العيادة القرآنية واعتقل شيوخها ذوو اللحى الملوّنة: "ونقل التّركمليّ إلى المستشفى، شفيت جراحه بعد أيّام، لكنّ جراحًا عميقة في روحِهِ لم تندمل، ولم يطالها الشّفاء"[1]، وقد كان روّاد العيادة القرآنية يتعرّضون لروّاد المقاهي بدعوى أنّ الغناء ولعب الورق حرام، وهذه الدّعوى الّتي حملها منذر الحيفاويّ للتّركملي كيْ يعزف عن العزف على الرّبابة، فأخبره أنّ جلدها هو جلد الفرس البيضاءِ خاصّة الحاج حسين، هذه الانكسارات سَبّبها التّطرّف الدّيني سواء للتّركمليّ أم لغيره وإن كانَ التّركمليّ صاحِبَ النّصيب الأكبر بالإهانة.

ولكي يبرز يخلف ما أصاب النّسيج الاجتماعيّ من عطب، فقد لجأ إلى الأحداث الغرائبيّة والخرافات الّتي تداولها الأفراد: "حدثت أعاجيب وأشياء غريبة في جحيم المأساة، امرأة أنجبت طفلًا برأسين، وتحوّلت فوزيّة إلى ذكر وصار اسمها فوزي، وسرت شائعة عن قطّ يسكنه جنيّ ينطق بالكلام الفصيح، وظهرت في المخيّم شيخة تقرأ الطّالع، وتفكّ السّحر، وتفتح بالمندل"[2]، وسط هذا التّفكك الاجتماعيّ والغرائبيّة انسحب أهل المخيّم من الهمّ الفلسطينيّ العامّ إلى الهموم الاجتماعيّة الخاصّة الّتي أثّرت على سيرورة الحياة ونسيجها.

وكما كان للغرائبيّة والمِحن مكان متّسِع من حياة المخيّم الاجتماعيّة فقد كانَ للحبّ والفرح مكان آخر وانجذب أهل ماء السّماء له في مُحاولة لبثّ الأمل في نفوسهم، فقد أرضعت خديجة زوجة الحاج حسين الطّفلة ماء السّماء واعتنت

[1] يخلف، يحيى: **ماء السّماء**، ص209.

[2] **المصدر نفسه**، ص71.

بها بعد أن لسعت عقرب أمّ حامد فتورّم جسدها وأصابها الهذيان وغابت مدّة عن وعيها، والتفت النّساء جميعهنّ حولها كما التففن حول بدريّة عندما أصابتها الملاريا، وزَيّنّا بكلّ الحبّ والفرح عنْدَما زُفّت لمحمّد أنيس بائِع العنبر في عرسهما الّذي لم يكتمل بسبب عودة نجيب في ذات الليلة، وشارك سُكّان المخيّم عائِلة الحاج حسين في فرح نجاح راضي في امتحان المترك، كانت هذه محاولات دائِمة لمشاركة الفرح والإنسانيّة لاستمراريّة هذا البقاء الإنسانيّ ذي الأحقيّة الأولى.

الرّجل في مُخيّم ماء السّماء

تزاحمت الشّخصيّات في مخيّم ماء السّماء ولكلّ منها دورٌ هامّ في سرد المرْوِيّة، ولا تستطيع الدّراسة أن تطلق لدور البطولة على واحدة منها فقد تزاحمت الشّخصيات على هذا الدّور ولم تحظَ بها حظوة كاملة أي شخصيّة، وقد نوّع يخلف في شخصيّاته، فالقارِئُ للرّوايَة يجِدُ بها الفدائِيّ والعائِد إلى الوطن والمتردّد والمهزوم والتّفعيّ والهامشيّ.

تستطيع الدّراسة أنْ نقسّم شخصيّات رواية ماء السّماء الذّكوريّة، إلى شخصيّات قرية سمخ وإلى شخصيّات تخلّقت في المخيّم ووطدت علاقاتها بأهل سمخ، فالحاج حسين وجيه سمخ وعزيزها، قاوم مع رجال سمخ بعد أن أمّنوا النّسوة مع راضي وخالد الزّهر، ذُلّ بعد أن هُزِم هو ومن معه من الرّجال وعادوا إلى المخيبة باحثين عن أهاليهم، عادوا منكسرين ببنادِقهم الصّدِئة ولا ذخيرة يملكونها ليدافعوا عمّا تبقّى من كرامتهم، فأخذ الحاج حسين كغيره من الرّجال يتسامى ليطهّر شعوره بالدّونية، فعمل في شتّى الأعمال إلى أنْ أسس مزرعة من مال عبد الكريم الحمد، وعمل جاهدًا على تعليم ابنه راضي ليدافع بشهادَتِهِ عن وطنه، بهذه النّظرة الّتي تكررت كثيرًا في الرّواية سواء على لسان الحاج حسبن بعد الهزيمة أم على لسان راضي الّذي تعلّم على يدي الأستاذ رياض يلحظ أنّ النّظرة إلى العودة هي نظرة ثقافيّة، فالعودة في عيونهم غير مشمولة بالكفاح المسلّح بل بالعلم: "يجب أنْ نستعدّ لهذه العودَةِ ... يجب أنْ نُعِدّ شبابنا لمعركة التّحرير، يجب أنْ ندرس ونحصل على الشّهادات الجامعيّة، ويجب أن يكون لشبابِنا بنى قويّة، حتّى يكون لهم عقل سليم وجسم سليم"[1]، هذه الرُّؤية للعودة والتّحرير سيطرت على فِكْر راضي الّذي أخذه من معلّمه الرّياضة في مدرسة الوكالة

[1] يخلف، يحيى: **ماء السّماء**، ص139.

الأستاذ رياض الّذي عمل على تثقيف وزيادة الوعي السّياسيّ الوطنيّ لدى أهل المخيّم، والّذي كان سببا -أيضا- في انضمام راضي لحركة القوميين العرب في بداية الأمر ومشاركته في المظاهرات.

تطوّر وعي راضي الوطنيّ والثّقافيّ بتطوّر مهاراته، فلم يعد طالب مدرسة يستقي فكره السّياسيّ من معلّمه، نضج وتخرّج من جامعة دمشق عام 1962، حاصلا على إجازة الحقوق مستعدّا للتّدرّب عند أحد المحاميين في المدينة، عندَها تغيّر انتماؤه وإيمانه من حركة القوميين العرب وأنّهم الخلاص والطّريق إلى تحرير فلسطين، إلى الانخراط في منظّمة التّحرير الوطني الفلسطينيّة الّتي يشرف على تحرير مجلّتها خليل الوزير، وقد أحضرها لبدريّة كي تطّلع عليها، لكنّها كانت قد ملّت الكلام والشّعارات والأحزاب كما قالت لراضي وأغاظته بقولها، وردّ فعلها هذا عائد لانكسار قلبها في علاقة حُبّ خاضتها مع الأستاذ رياض من طرفها فقط، فبخسارتها هذا الحبّ فقدت إيمانها وثقتها بالشّعارات الوطنيّة والحزبيّة، وفي انخراطه في المنظّمة يعلن لبدريّة أنّ أسمى أهداف المنظمة هو تحرير فلسطين بالكفاح المسلّح: "إنّها حركة فلسطينيّة جديدة، تعتبر أنّ الوحدة بين أبناء الشّعب الفلسطينيّ تقتضي نبذ الحزبيّة، وتعتبر أنّ الكِفاحَ المُسَلّح هو الطّريق الوحيد لتحرير فلسطين"[1].

لم يوَجّه يخلف بوصلة المخيّم صوب الكِفاح المسلّح، بل صوّبها نحو الهموم الإنسانيّة والمجتمعيّة الّتي أصابت النّسيج الفلسطينيّ في رحلة شتاته المُجبر عليها، لكنّه في الوقت ذاته أورد نماذِجَ بطوليّة بكامل الشّفافيّة والإنسانيّة علّ أبرزها نجيب، طليق بدريّة الّتي أمضت فترة طويلة من غيابه في شوق دائِمٍ له، إذ تركها لينضمّ إلى ركب أحمد بيك ليلتحق معه بجيش الإنقاذ وجماعة حافظ مصطفى، غاب فترة طَويلة يقاتل في البلاد، وصار النّاس يتحدّثون عنه بإعجاب وبطولة بعد أنْ كانَ عاطلا عن العمل، لا يلتفت إليه أحد.

عادَ نجيب من الوطَنِ ليلة زفاف بدرية على محمّد أنيس، وأعلن عن عودته بطلقة رصاص من بندقيّته العتيقة، عادَ مثخنا بالهزيمة والضّياع واكتمل ضياعه بضياع بدرية من بين يديه مرّة ثانية، وما لبث أن اعتقل ليلتها هو وصديقه عبد الرّحمن العراقيّ، ليعود تارة أخرى في رحلة شتات جديدة، تصل أخبارُه أنّه في مخيّمات سوريّة تحديدا في حلب، ومن ثمّ أنّه عادَ إلى أرض الوطن، ليتأكّد اعتقاله في سجن شطّة من رسالة تَصل متأخرة عن طريق الصّليب الأحمر يطمئن بها الأهل أنّه بخير ومسجون في سجن شطّة، ليهرب فيما بعد هو ومجموعة من الفدائيين المعتقلين من السّجن ويعود في ختام

[1] يخلف، يحيى: **ماء السّماء**، ص 272.

الرّواية إلى المخيّم، يعود منحنيًا منهزما هذه المرّة أمام عينيّ بدريّة حامِلا غُبار المعارِك على كتفيه مُخَبّئا بندقيّته العتيقة، بالرّغم من ذلك فبدريّة تقبل بهذه العودة لأنّ قلبها مازال يخفق بحبّه وإن كان الغبار على سطح قلبها لسنوات عديدة، لكنّ هذه العودة استطاعت أن تنفض الغبار عنها لتعود مشرقة كما هي في ذاكرة راضي وأهل سمخ، في حين أنّ نجيب لم يفقد الأمل رغم الانكسار الّذي فيه لا بالثّورة ولا بالعودة، فهو يؤمن بجيل ماهر وماء السّماء وأنّ الثّورة ستنطلق منهم، وذلك من منطلق إيمانه براضي وثقته بحديثه عن المنظّمة أو الحركة الجديدة الّتي أعلنت، وفي هذا الإيمان يبرز فِكر يخلف السّياسي الّذي حمّله لشخصيّات روايته: "ستفهمين ذات يوم عندما تندلع الشّرارة من المخيّات ... حدّثني راضي ووثقت بحديثه ... إذا ما حدث ذلك، سأكنّس التّراب تحت أقدامهم"[1]، وفي هذا إشارة إلى أنّ نجيب سيكتفي بدور هامشيّ إن عادت الثّورة والكفاح المسلّح، فأين شعلة الكفاح والثّورة في روح الفدائيّ القديم؟ ما الّذي أخمدها؟

كان عبد الكريم الحمد من الشّخصيات الّتي قاومت وحملت السّلاح في وجه العِصابات الصّهيونيّة، بعد أنْ كان مالكًا لدار الأمان وعزيز قومٍ، صارَ لاجِئا منهوما، تارِكًا كنزه الثّمين في أرض دار الأمان تحت شجرة الليمون على بعد ثلاث خطوات من الباب، دفن ماله والذّهب، بشهادة قاسم التّايف الّذي استشهد ليلة التهجير، وقد أخبر عبد الكريم الحمد بعد ذلك فطيمة بما حصل بخصوص ثروته، عاش وحيدا في المخيّم بلا عائلة حقيقيّة، كان كثير المناوشات مع "أبو حامد" حول خيانة الحكام والانتقاد الدّائم للحاج أمين، الأمر الّذي كان يغضب "أبو حامد"، وعلى إثر مشادات كثيرة وضيق حال قرّر أبو حامد أن يترك الحمّة ويتّجه إلى مخيّات لبنان بين ليلة وضحاها دون أن يخبر أحدا وأقام في مخيّم البراجنة، أمّا عبد الكريم فقد حاول أن يترك الحمّة وابتعد لمدّة من الزّمن، عندها اختفت آثار فطيمة الّتي أوجعها غياب عمّها عبد الكريم الحمد -كما كانت تطلق عليه - ، عاد عبد الكريم بعد فترة إلى الحمّة ليأخذ أقاربه ومعارفه إلى مخيّم إربد بعد أن سجّلهم في وكالة الغوث وحصّل لهم حصصا من الخيام للسّكن فيها، علم برحيل فطيمة وآلمه ذلك جدا، لتعود فطيمة بعد سنوات طويلة تسأل عنهم عبر برنامج إذاعيّ وتطمئنهم على أحوالها وتخبرهم أنها في التّاصرة، وهنا ضجّ المخيّم بإشاعة أنّ فطيمة عادت إلى سمخ وسرقت مال عبد الكريم الحمد وتنعّمت به.

بعد ذلك يتّضح صدق الإشاعة، لكنّ فطيمة لم تتنعّم بالمال، بل أعادته لعمها عبد الكريم الحمد بوساطة طبيبة أطفال مسيحيّة استطاعت أن تسافر إلى عمّان عبر بوّابة مندلبوم، وأخبرته أنّ فطيمة بخير وصارت ممرّضة عندها وها هي ثروتك تعيدها لك كما وعدتك، وهنا أعطى الثّروة لشقيقته خديجة أمّ رضي بعد أن أكله الذّنب لشكّه بفطيمة، غاب

[1] يخلف، يحيى: **ماء السّماء**، ص283.

بعد فترة من هذا الحدث، لم تعرف أخباره، أعيا فقده خديجة، وأقنعت نفسها بموته، كالغزلان وحيدا، وهنا تقف الدّراسة عند سيناريو موت عبد الكريم الحمد الّذي أقنعت خديجة نفسها به:

" قالت خديجة إنّ عبد الكريم ذهب إلى مكان قصيّ؛ ليموت كما تموت الغزلان، فالغزال عندما يشعر بدنوّ أجله، ينتحي مكانا قصيّا؛ ليموت بعيدا عن الأعين، وليحظى بقيلولة هادئة قبل الموت، وحتّى يتمتّع بالسّكينة عندما يسلم الرّوح.

وكانت خديجة تقول: إنّه أخي، وأنا أعرفه.

وكثرت الشّائعات حول غياب عبد الكريم الحمد واختفائِه، كما ذكرت روايات متعددة غير قابلة للتّصديق، غير أنّ رواية واحدة تطابقت مع ما حدست به خديجة، رواية نقلت على لسان أحد سكّان الأغوار الشّماليّة من عشيرة العجم، قال: إنّ عبد الكريم الحمد مرّ بديارهم، وأكل من طعامهم، وشرب من مائهم، وأخبرهم أنّه سيعبر النّهر ويذهب إلى الضّفّة الأخرى، ويتوجّه إلى بلدته سمخ، وإلى داره الّتي سمّاها دار الأمان، ليموت هناك تحت شجرة الليمون، وقال الرّجل إنّهم سمعوا بعد ساعات قليلة إطلاق نار كثيف، وعبّر عن اعتقاده بأنّ اليهود أطلقوا عليه النّار عندما عبر النّهر، وأردوه قتيلا.

رواية صدّقتها خديجة، وقالت لراضي وهي تذرف الدّموع:

إنّ خالك ذهب ليموت هناك، في دار الأمان، ذهب ليموت كما تموت الغزلان!!"[1]، هذه العودة الّتي ارتضاها عبد الكريم لنفسه بعد أن ذبلت روحه في المخيّم لكثرة الأوهام الّتي اخترقت نفسه فيما يتعلّق بكنزه المفقود في دار الأمان.

علّ شخصيّة أحمد بيك أكثر الشّخصيّات الّتي تمثّل الشّخصيّة التّفعيّة، فقد حاول أن يجمع شبابا لجيش الإنقاذ ولم يستجب له سِوى نجيب فأخذه معه، واشترى من الطّفل راضي درعًا حديديّا ادّعى فيما بعد أنّه حصل عليه بعد أن قتل جنديًا، وعندما عاد إلى المخيّم مرفوضا منبوذا من الجميع، تزوّج البسّة، وادّعى التّقوى والوَرع وصار من رجال الدّين وافتتح عيادة قرآنيّة تكسّب من خلالها المال الوفير إلى أن فضحته وعيادته زوجة التّركمانيّ واعتقل، في حين حظِيَ خالد الزّهر الشّاب اليافِع الإنسانُ بدور البطل الهامشيّ الّذي كانت مهمّته رعاية الحيوانات خاصّة الفرس البيضاء

[1] انظر: يخلف، يحيى: **ماء السّماء**، ص228 ... 229.

ومرافقة النّسوة في رحلة اللجوء الأوّل، لم يتخلّ خالد الزّهر عن الفرس البيضاء رغم ضيق الحالِ وعندما ماتت انكسرت روحه وأخذ يبكي عليها بكاء الحبيب المقرّب، وترك المخيّم، ليسمع أهل ماء السّماء فيما بعد أنّه توجّه إلى العراق ومن العراق إلى الكويت، إذن رحل بعد أن فقد الأمل بالحياة بفقدانه الفرس البيضاء، فما كان يربطه بالمخيّم فُقد، إذن لا حاجة لبقائِهِ.

المَرْأةِ في مُخَيّم ماء السّماء

تعَدّدت أدوار الشّخصيّات الذّكوريّة في مخيّم ماء السّماء، لكنّ الأدوار الأنثويّة في غالبيّتها نمطيّة، فأمّ إبراهيم وزوجة التّركمانيّ وخديجة، كلّ هذه النّسوة حافَظَت على دورها التّمطيّ فيما يتعلّق بالقيام بالمسؤوليّات الأساسيّة للمرأة من رعاية البيت والزّوج والأولاد، حتّى فطيمة بعيدا عن عظمة عودتها وإعادتها المال للخال عبد الكريم فلم يبرز لها دور استثنائِي قياديّ مميّز، بينما لفتت وتغيّر أدوار المرأة وتمثيلاتها في شخصيّات أنثويّة ثلاث وبتفاوت.

فشخصيّة البسّة "أمينة" شخصيّة طارِئة على الرّواية، تخلّقت بفعل حالة التّشرّد والضّياع في المخيّم، وصورة أخرى عن تمرّد المرأة اللاجِئة، صارعت من أجل البقاء، ولم تأبه بإهانات الرّجال لها ونعتهم لها مرّة بالبسّة وأخرى بالخنثى، وتعييبهم على تصرفاتها واستهزائِهم بها، لكنّ هذه المرأة كان قلبها ينعم بنور إنسانيّ قد لا يملكه الكثيرون؛ إذ كانت تداوم على زيارة سيّدة عمياء وتقدّم لها الطّعام وتنظّف بيتها وتحمّمها، وتقدّم الصّدقات للمحتاجين ما استطاعت، لتتزوج أخيرا من أحمد بيك الّذي كانت تعطف عليه وتحضّر له ولإمام المسجد الطّعام في فترة نبذ أهل سمخ المتواجدين في المخيّم لأحمد بيك، لتتغيّر شخصيّتها بعد الزّواج وتنتقل من امرأة مهانَةِ الهندام إلى امرأة معتنية بهندامها ونظافتها الشّخصيّة وتتحوّل من البسّة إلى الشّيخة أمينة.

أمّا العمّة حفيظة فقد تمتّعت بدور قياديّ مؤقّت غير نمطيّ في ظلّ غياب الرّجال، فعندما خرج الرّجال للقتال والدّفاع عن سمخ، رافقت العمّة حفيظة نسوة سمخ في رحلة اللجوء الأولى إلى الحمّة ثمّ إلى المخيبة، واستلمت زمام الأمور في حمايتهنّ توفير الطّعام لهنّ يوميّا، فالعمّة حفيظة عملت على رأب الصّدع الّذي أحدثته المحنة، إذ كانت تجمعهنّ جميعهنّ في بيت الشّعر خاصّتها، توزّع عليهنّ المسؤوليّات وتبثّ فيهنّ روح التّعاون والمحبّة والتّماسُك، آمنت

دوما بعودة الرّجال، وحينما عاد الرّجال منهزمين بقيت هي متماسِكة[1] غاب هذا الدّور الّذي تمتعت به العمّة حفيظة حال عودة الرّجال، لذلك كان دورها القياديّ وكسر نمطيّته مؤقّتا.

تعدّ بدريّة أكثر الشّخصيّات الأنثويّة تمرّدًا على الدّور التّقليديّ، فكانت تسمح لنفسها أن تغنّي وسط محنة اللجوء دون أن تأبه لنظرات اللوم، وكسرت العادات بان ذهبت ليلا لتسأل عن نجيب ليلة زفافها مصطحبة راضي وهو طفل، مواجهة تقاعس رجال المخيّم الّذين لم يسألوا عن مُطَلّقها بتمرّدها، ومن ثمّ وجدت لها عملا عند السّيّدة فتحية الخيّاطة، وأخذت رويدا رويدا تُنمّي وعيها الوطنيّ وتشارك جلسات الرفيقة سوزان وتطّلع على أفكار الحزب الشّيوعيّ، وشاركت في المظاهرات، ووجّهت الميول الوطنيّ عند راضي الّذي اعتبرها خلاصه ومأمن أسراره في المخيّم، فبعد أن عرض عليه الأستاذ رياض أن ينضمّ إلى حزب القوميين العرب لم يجد أفضل منها لاستشارته بعد حديثه معها وتشجيعه لها على الانخراط وتجربة العمل الوطنيّ: "امتلأ بالدّهشة أكثر فأكثر، وأحسّ أنّه أمام امرأة تمتلك الجرأة والوعي والجسارة"[2]، ورغم هذا التّمرّد والوعيِ إلّا أن يخلف لم يهمل الجانب الإنسانيّ العميق في بدريّة، فقد بقيت متعلّقة بمُطَلّقها إلى أن أنساها إيّاه محمّد أنيس بائع العنبر، لتكتشف ليلة زفافها الّذي لم يكتمل أنّها مازلت متعلّقة بنجيب، ومن ثمّ تتعلّق بالأستاذ راضي وتكنّ له عاطِفة جيّاشة وإعجابا في عمله التوعويّ التّثقيفيّ، لينكسر قلبها مرّة ثانية بعد خطورة الأستاذ رياض لمليكة ابن البيك، ولا تتردد في الإفصاح عن مشاعرها الأنثويّة لراضي، وتختتم إنسانيتها في مواجهة نجيب في عودته الأخيرة لتعاتبه متسائلة: "تسافر وتتخلّى عني؟"[3]، وليعودا في الختامِ، منح يخلف بذلك بدرية أبسط حقوقها فبالإضافة إلى حقّها بالوعيّ الوطنيّ تمكّنت من حقّها في الحبّ والتّمسّك بنجيب قبل أن يغادر مرّة أخرى ربّما لا عودة بعدها.

انفلتت الشّخصيّات في مخيّم ماء السّماء سواء أكانت ذكوريّة أم أنثويّة من سلطة النّموذج الطّاغي على روايات ما قبل أوسلو، فغاب البطل الفدائيّ المخلّص عن المشهد، غاب البطل المنتصر دوما واستبدل بالشّخصيّة المنهزمة والمنكسرة والمترددة والتّفعيّة، والصّورة الأنثويّة للمرأة الفلسطينيّة أمّا كانت وزوجة فقدت نمذجتها وأسطرتها، فها هي الأمّ تقوى وتضعف، تصمد وتنكسر، تواجه وتتراجع، المرأة الوحيدة الّتي حافظت على نوع من النّمذجة هي العمّة حفيظة ويبرّر للكاتب ذلك بسبب عمرها والمسؤوليّة الّتي سقطت على كاهلها في ظلّ غياب الرّجال في بداية النّكبة

[1] انظر: حبيب، نجمة: **رؤى التّقي والعودة**، ص266.

[2] يخلف، يحيى: **ماء السّماء**، ص147.

[3] **المصدر نفسه**، ص282.

فكان دورهم الدّفاع عن الوطن ودورها ضمان البقاء والوجود، حتّى أنّ الرّواية انفلتت من النّموذج في الطّرح، فلم يُطرح المخيّم كحيّز وجودٍ طارئ يشتعل ثورة باستمرار كي تنطلق منه شرارة العودة إلى الوطن وتحريره، وإنّما طُرِحَ من الجانب الإنسانيّ الاجتماعيّ المحض، فها هي تفاصيل الوجع والفقر والمعاناة ورحلة الشّتات ومحاولات تخطّي التّيه المستمرة والخيبة في الحبّ وفي العلاقات الاجتماعيّة كُلّها تُسيطر على المخيّم وتُطرح على المشهد ليس كجزء منه وإنّما كأساس له.

كَيْفَ خُتِمَت رِوايَة ماء السّماء؟

وإيمانًا بحقّ العودَةِ على خلافِ طريقتها وإن كانت في ماءِ السّماء قد أشارت إشارات شحيحة إلى العودة بالكفاح المسلّح، فإنّ العودَة خطابٌ اتّضح في الرّواية سواء مصارحة عندما تناقش الأستاذ رياض وراضي حول الأمر، أو عندما تناقش راضي مع بدريّة ونجيب فيما بعد، أم رمزيّا في إسقاط هجرة الطّيور وعودتها إلى أوطانها على عودة الفلسطينيين: "كلّ غريب سيعود إلى وطنه ... وهذا ما يجب أن نفعله نحن الفلسطينيين"[1]، هذا الأمل بالعودَة امتدّ إلى خاتمة الرّواية، ففي عودة بدرية لنجيب وسقوط المطر، أمل دائم بالعودة: "ثمّ قال أبو حامد بصوت لا يخلو من شجن: هذا الّذي ينزل علينا ليس مطر الغيوم ... إنّه الغيث ... إنه ماء السّماء"[2].

[1] يخلف، يحيى: **ماء السّماء**، ص138.

[2] **المصدر نفسه**، ص285.

مُخَيّمُ حَليبِ التّينِ

"وبدل أنْ يمضوا في حِياكَة غِطاء للفضيحة

مزّقوا الغِطاء لِشِدّة ما جذبوه،

كُلّ باتّجاهه؛ ليخفوا عراءهم"[1]

طالما عانى الفلسطينيّون من فقدان أبسط حقوقهم في البلدان الّتي لجؤوا إليها؛ كونهم ليسوا مواطِنين بل مجرّد لاجِئين طارِئين شكّلوا عِبْئًا على الدّول المُسْتَضيفة لهم، وقد تحمّلوا مشاقّ كثيرة في سبيل الحصول على أبسط الحقوق في ظِلّ دَولة، لكن لا دَوْلة أهانت وضيّقت الخِناق على الفِلَسْطينيّين كما فعلت لبنان؛ إذ عاملت الفلسطينيّين كعبْءٍ وتهديد لنظام لبنان السّياسي ولوجوده، وكانت الدّعوات السّياسيّة اللبنانيّة مستمرّة بإعادَة توزيع اللاجِئين على البلدان العربيّة بعد فقدان الأمل بتقليص أعدادهم بسبب الدّعم الأمريكيّ لرفض إسرائيل إعادَة اللاجِئين إلى ديارهم، ومعاناة دول الخليج من حالة ركود في نهاية السّبعينيات أدّت إلى تقليص الوَظائِف للفلسطينيّين وأذونات الدّخول والتّجنيس، الأمر الّذي فاقم المشكلة بين اللاجِئين الفلسطينيّين والحكومة اللبنانيّة، وعليه فقد خاض الفلسطينيّون صراعًا عنيدًا للحصول على اعتراف لبنانيّ بحقوقهم المدنيّة، وطوّرت الحكومة اللبنانيّة بالمقابل نهجها الخاصّ لمعالجة مُشكلة اللجوء الفِلَسطينيّ، بدْءًا بغياب الأنظمة والقوانين الّتي تُحدد وضع اللاجِئين وحقوقهم، وانتهاءً بسيطرة الجيش اللبنانيّ على المخيّمات في السّتينيات[2].

وعلى إثر هذا الرّفض للاجِئين فقد عانوا في مخيّماتهم من شتّى أنواع المهانة والذّلّ وفقدوا أبسط الحقوق البشريّة، تطرح رواية حليب التّين لسامية عيسى[3] نموذجًا قاسيًا من نماذج المخيّمات الفلسطينيّة في لبنان، وعلى غراره تسري الحياة في بقيّة المخيّمات.

---

[1] عيسى، سامية: **حليب التّين**، ط1، دار الآداب، بيروت، 2010، ص6.

[2] انظر: صايغ، روز ماري: **الفلسطينيّون في لبنان واقع مؤلم ومستقبل غامض**، من مجلّة الدّراسات الفِلَسطينيّة، المجلّد 4، عدد 13، شتاء 1993، ص1.

3 سامية عيسى كاتبة وإعلاميّة فلسطينيّة، عملتْ في جريدتي "السفير" و"النهار"، ومناضلة مثابرة عن حقوق المرأة، كرست حياتها وما تزال للنضال من أجل قضية فلسطين وحقوق شعبها الوطنية والإنسانية إن من خلال العمل في المخيمات أو من خلال كتاباتها في الصحافة والإعلام حيث كشفت من خلال تحقيقاتها

وَصْفٌ عامٌّ لِمُخَيّمِ حَليب التّين

قسّمت العيسى روايتها إلى تسعة فصول معنونة[1] إضافة إلى فصل تقديميّ غير معنون، سردت من خلال فصول الرّواية حكاية فاطِمة وكنّتها صَديقة، في نموذج غاب عن العديد من الرّوايات فيما سبق، استطاعت سامية العيسى من خلاله نزع هالة القداسة والوطنيّة عن المخيّم الفلسطينيّ، والانتقال بالقارئ إلى مستوى روح وجسد وإنسانيّة اللاجئ الفلسطينيّ كإنسان لا كبطل أسطوريّ حُمِّلَ عبء المقاومة واستعادة الوطن.

استهلّت سامية عيسى روايتها بمشهد فاطمة الجدّة وهي تغادِر من لبنان إلى اسكندنافيا؛ كي تلحق بركب صديقة والأحفاد، وقد سيطر عليها الكِبر وضعف النّظر لِشِدّة ما بكت حالها من فقد الزّوج خليل والأبناء الخمسة، أوّلهم أحمد زوج صديقة وآخرهم عمر، وما أهانها به المخيّم في كُلّ تلك الفترة.

لخّصت فاطِمة كُلّ معاناة المخيّم في عِبارة على قِصَرِها لكنّها موبوءة بالقَهر والمَذَلّة "صِرنا ممسحة للجميع"[2]، هذه نظرة أهل المخيّم لذواتهم بعد ما عايشوه من أحداث وضياع في المخيّمات الّتي مرّوا بها، فوصول فاطِمة وكنّتها صديقة والأحفاد إلى مخيّم أوزو جاء بعد سلسلة تهجير في عِدّة مخيّمات لبنانيّة تبعت التّهجير الأوّل لفاطمة من مدينة صفد الفلسطينيّة، فتنقّلت فاطمة بعد ذلك مع العائلة المتفرّعة عنها من برج الهوى إلى مخيّم الثّعالب في البقاع إلى نهر البارد إلى مخيّم شاتيلا لتستقرّ استقرارا شبه نهائيّ في مخيّم أوزو المقام على تخوم مخيّم عين الحلوة[3].

الصحفية الظلم والعنصرية التي يتعرض لها اللاجئون الفلسطينيون في لبنان رغم الملاحقات التي تعرضت لها جراء تحقيقاتها هذه. كما ناضلت من خلال الصحافة لرفع الوعي حول قضايا المهمشين ورفع الغطاء عن الممارسات والآليات التي تدفع إلى تهميشهم سواء كانوا من ذوي الاحتياجات الخاصة أو النساء أو الأطفال إن في لبنان أو في العالم العربي بأسره وذلك من خلال عملها في الإعلام المكتوب والمرئي والمسموع. تعمل حالياً منتجة برامج في تلفزيون دبي.

نالت إجازتها الجامعية في الإعلام من الجامعة اللبنانية في كلية الإعلام والتوثيق عام 1989، أكملت دراساتها العليا في جامعة القديس يوسف/ اليسوعية/ في معهد الآداب الشرقية/ ونالت درجة الماجستير في التربية عن رسالتها "الفكر التربوي عند طه حسين من خلال كتابه: مستقبل الثقافة في مصر وذلك في العام 1997

ما لبثت أن أكملت الدراسات المعمقة في الجامعة نفسها وناقشت مشروع دكتوراه دولة حول "التربية على القومية عند ساطع الحصري" ونالت موافقة الجامعة عليها وما تزال تعمل عليها، انظر:

https://www.abjjad.com/author/2793800076/%D8%B3%D8%A7%D9%85%D9%8A%D8%A9-%D8%B9%D9%8A%D8%B3%D9%89/books استرجع بتاريخ 30\6\2020.

1 عناوين الأقسام على التّرتيب: تزحزح القناع، معسكر أوزو، تجّار الدّم، الضّياع، رحيل الزّينكو إلى التّرخام، مثل الحيوانة، وجع الذّاكرة، مثل الإنسانة، جدار.

2 عيسى، سامية: **حليب التّين**، ط1، دار الآداب، بيروت، 2010، ص6.

[3] انظر: ملحق (3).

مخيّم بائس صغير على تخوم مخيّم يشارِكه البؤس، لم يسمع بهِ أحد إلّا حين زارته صحفيّة من جريدة النّهار؛ لتجريَ تحقيقًا عن أحوال الفلسطينيين بعد مرور خمسين عامًا على النّكبة كجزء من احتفاليّة نظّمها إلياس خوري في مسرح بيروت[1]، مخيّم ضيّق أصله معسكر تدريب لضبّاط فتح الّذين عادوا من حرب ليبيا وتشاد، وقد بنوه وأطلقوا عليه اسم أوزو تبعًا لصحراء أوزو على حدود تشاد – ليبيا، الّتي كانوا يقيمون بها، وحين انسحب الفدائيّون الفلسطينيّون من لبنان بعد الاجتياح الإسرائيليّ أخلوا المعسكر ليتحوّل تلقائيًا إلى مخيّم جامع للاجِئين من المخيّمات الأخرى، معظم لاجِئيه نسوة مطلّقات أو مهجورات أو أرامل فقدن المعيل وبات عليهنّ أن يبقين بمفردهنّ، تمامًا كفاطمة وكنّتها صديقة.

الهُموم الاجتماعيّة في مُخَيّم حليب التّين

هذه التّشكيلة المجتمعيّة جعلت ركاد رئيس اللجنة الشّعبيّة دائم اللعن لهذا المخيّم وإسقاط الاتّهامات عليه بأنّه مخيّم تعريص ولمم عرصات[2]، هذا المخيم الّذي عانى أهله من ضيق غرفه الّتي كانت معسكرًا لا تتسع لساكنيها، غرف الأكل والمبيت والاستقبال، وإن أراد أحدهم التّريّض فعليه أن يستخدم الحمّام العام، ففي كل مخيّم أوزو حمّام عامّ للرّجال وآخر للنّساء، والآخر يقوم ركاد – فيما بعد – بهدمه؛ إذ فقدَ الصّوتَ الّذي كان يغويه لممارسة العادة السّريّة في الحمّام، هذا الصّوت الّذي يعودُ لفاطِمة الّتي كانَت تكتشف ذاتها وجسدها ليلًا في حمّام المخيّم فتمارس العادة السّريّة لتنتشي بوجودها، وصادف أن سمعها ركاد فأخذ يتنصّت على صوتها مدّة شهرين مستمتعا، إلى أنْ فقد الصّوتَ وحظي به أبو عليّ، الّذي تحوّلت علاقته بفاطمة إلى حُبّ[3].

"المخيّمات حين أوجدها العالم، أوجدها؛ كي يبيدها"[4]، وفعلا، تكاتفت الجهود لإبادَة مخيّمات لبنان، فالحكومة اللبنانيّة من جانبها ترفض توطين الفلسطينيين في لبنان ولن تلتزم تبعا لهذا الرّفض بأيّ حقوق للاجِئ كمواطن، فتوطين الفلسطينيّين في لبنان – من وجهة نظر الحكومة اللبنانيّة – "خطر حقيقيّ علينا النّضال ضدّه مهما يكن الثّمن"[5]، وهذا الرّفض دعمته الأونروا من خلال التّعاون مع الحكومة اللبنانيّة في تحجيم الفلسطينيّين في لبنان إلى وضع يصبحون فيه

1 انظر: عيسى، سامية: **حليب التّين**، ص41.

2 انظر: **المصدر نفسه**، ص206.

3 انظر: **المصدر نفسه**، الفصل الأوّل، ص9\35.

4 التّهلي، أيهم: **سوس المكان ضمير المخيّم**، من مجلّة التّراسات الفلسطينيّة، العدد 120، خريف 2019، ص40.

5 صايغ، روز ماري: **الفلسطينيّون في لبنان واقع مؤلم ومستقبل غامض**، ص4.

غير قادرين على الاختيار إلّا بين السّيّئ والأسوأ[1]، وهذا ما صوّرته حليب التّين من تضييق خناق الأونروا على سُكّان أوزو: "إذ تخلّت الأونروا عن تقديم كثير من الخدمات الّتي كانت تقدّمها لهم، سواء التموينيّة أو الصّحيّة، وتدنّت نوعيّة التّعليم في المدارس، لا إعاشة، لا دواء، لا عمل، لا تعليم ... فدبّ اليأس في المخيّات كالوباء"[2].

في ظلّ هذه الأوضاع عاشت فاطِمة وكتتها صديقة وأحفادها بؤسًا لم يعرفوه من قبل، إذ صارت فاطمة تعمل في خدمة البيوت في بيروت أو مدن قريبة، إذا ما يسّرت لها إحدى نساء المخيّم عملًا بالمياومة، تحصل منه على بقايا طعام العائِلة وبضعة قروش تحملها إلى غرفتهم في أوزو، وقد ساء الحال بعدم صرف مخصّصات أبنائِها الشّهداء (محمّد، حسن، علي) بشكل شهريّ، وكذلك مخصّصات أحمد الّتي كانت صديقة تحصل عليها توقّفت، وكي تحصل عليها من جديد لا بدّ من تقديم تنازلات جمّة لـ "أبو طارق" القياديّ في فتح، الأمر الّذي زاد شعور المهانة والمرارة في نفس صديقة وفاطمة، وزادَ عوزهما لأدنى الاحتياجات.

أبرز مخيّم حليب التّين الفَساد الأخلاقيّ والماليّ في منظّمة التّحرير الوطنيّة الفلسطينيّة والأحزاب الفلسطينيّة الّتي مثّلت المنظّمة، وقد ذكرت صراحة "فتح"؛ وذلك من خلال شخصيّتي ركاد و "أبو طارق" بشكل رئيس وفي شخصيّة صبحي بشكل عابِرٍ حول الفساد الأخلاقيّ في صفوف المقاوِمين التّابعين للحركات والأحزاب الفلسطينيّة، إذ حاول صبحي التّحرّش بصديقة قبل أقلّ من شهر على استشهاد زوجها أحمد، رفيق صبحي في حمل السّلاح[3].

الرّجل في مُخَيّم حليب التّين

يشغل ركاد منصب رئيس اللجنة الشّعبيّة في مخيّم عين الحلوة وما جاوره أو تفرّع منه، مثل مخيّم أوزو، وبهذا المنصب يكون قد أبقى على شعرة معاوية في علاقته مع حركة فتح بعد أن سرق الأسلحة الّتي تركتها الحركة في مخازن مخيّم عين الحلوة بعد الاجتياح الإسرائيليّ وسحب مقاتليها باتّجاه إقليم الخرّوب، حينها جنّد ركاد عددًا من خيرة شباب المخيّم وأقنعهم بوجوب نقل الأسلحة لمعاودة استخدامها في مقاومة الاحتلال وميليشيا الكتائب وسعد حداد، وبعد أنْ

1 انظر: صايغ، روز ماري: **الفلسطينيّون في لبنان واقع مؤلم ومستقبل غامض**، ص5.

2 عيسى، سامية: **حليب التّين**، ص45.

3 انظر: **المصدر نفسه**، ص 186.

تمّ نقلها قام ببيعها لتجّار الأسلحة الّذين سال لعابهم واشتروها "بتراب المصاري" وقبض ركاد المليون ليرة الّتي نقلته إلى حياة مختلفة عن حياة اللاجئين في المخيّم، وفرضت عليه هذه الخيانة وهذا المنصب قساوة في المظهر وفي التّعامل مع أهل المخيّم[1].

تعد شخصيّة ركاد نتاج فساد مُزمن ومتأصّل في هيكل منظّمة التّحرير الفلسطينيّة من قَبل أوسلو، الّذي انتهجته السّلطة الفلسطينيّة بعد أوسلو، من خلال اعتمادها على التّنفيع المتمثّل في القرابة والرّوابط الأسريّة والسّياسيّة الحزبيّة، وقد اعتمدت المنظّمة الفسادَ في شكله الرّئيسيّ "التّنفيع" أو في أشكال أخرى لأغراض متعدّدة، كبسط النّفوذ على المكوّنات السّياسيّة، وإقصاء القوى السّياسيّة الأخرى، وتنفيذ أجندتها السّياسيّة دون مُعارَضة[2]، وهذا الفساد المالي تبعه فساد أخلاقيّ تفشّى في المخيّم مثّله ركاد و أبو طارق المسؤول عن الحركة في تأمين مخصّصات الشّهداء لأهاليهم في المخيّم، فقد ذهبت فاطمة لتنظيف بيت "أبو طارق" المسؤول العسكريّ لحركة فتح، الّذي يقيم في بيت كان لعائلة مسيحيّة هربت حين اشتدّت نيران المعارك حولها فوضعت فتح يدها على البيت[3]، ولاحظت أنّه "أبو عين بيضة، داير على قلّة الحيا".

بهذه الملاحَظَةِ حاولت فاطِمة أن تثنيَ كِتّتها صديقة عن الذّهاب إلى تنظيف بيت "أبو طارق" بدلًا منها، حينها أكّدت الكتّة صديقة الفلتان الأخلاقيّ لِـ "أبو طارق" إذ حاول أن يغويها مُسبقًا حين ذهبت إليه مُطالِبَة بمخصّصات زوجها الشّهيد "أحمد" فوضع أمامها دفتر شيكات رهن إشارتها يحمل رصيدًا بالملايين، فأموال الثّورة في لبنان كلّها رهن إشارة صديقة إن تماشت مع رغبة "أبو طارق" فيها[4].

شكّل هذا الفساد عامِلًا رئيسيّا في عجز الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة عن تحقيق أهدافها، وهو الآن يخدم أهداف الاحتلال الإسرائيليّ والدّاعمين له، وسيظلّ مستشريًا داخل السّلطة الفلسطينيّة، ما لم يُشرع الفلسطينيّون أنفسهم في إعادة هيكلة مؤسّساتهم الوطنيّة وِفقًا لمبادِئ الدّيمقراطيّة والمُساءلة[5].

---

1 انظر: عيسى، سامية: **حليب التّين**، ص 49 \51.

[2] انظر: دعنا، طارق: **الفساد في فلسطين نظام مُتجدد**، الشّبكة، شبكة السّياسات الفلسطينيّة، آب 2015، ص1\3.

3 عيسى، سامية: **حليب التّين**، ص 54.

4 انظر: **المصدر نفسه**، ص56.

5 انظر: دعنا، طارق: **الفساد في فلسطين نظام مُتجدد**، ص8.

مقابل الفاسد الأخلاقيّ في المخيّم المُتسلّق على أكتاف الثّورة والمقاومة المنتفع من هزيمة الثّورة في المخيّمات، طرحت حليب التّين نماذج للمقاومة وإن كان الطّرح أقرب للإنسانيّة منه إلى الوطنيّة، فأبناء فاطمة الأربعة استشهدوا، كان أوّلهم محمّد ابن الثّالثة عشرة، الّذي خطفته قذيفة، وبعد سنة هرب حسن وعلي والتحقا بالقواعد العسكريّة في الجنوب وانضما إلى مجموعة الأشبال التّابعة لكتيبة الجليل، أما البكر أحمد فقد التحق بالكتيبة الطّلّابية قبل استشهاد محمّد بشهرين[1]، لتختتم الرّواية بفاجعة فقد فاطمة لابنها الخامس عمر إثر سقوط مكوك أمريكيّ عائِد من رِحلة فضائيّة، فقدّرت فاطمة أنّ عمر ضمن الفريق العلميّ[2]، علّها هواجس أمّ وعلّها حقيقة، إذ لم يُفْصَح عن شهادَته باسم واضح.

لم تُركّز سامية عيسى على فعل المقاومة وحده في الرّواية، وحينما طرحته فإنّها لم تُؤَسْطِره أو تقدّسه، فاختارت الرّوائيّة شخصيّة أحمد المقاوم والمنتمي لحركة فتح الّتي "تشدّ على البندقيّة كرمز لها، وتحرص على صورة الفدائيّ المناضِل من أجل الحريّة، والّذي يُضحّي بحياته من أجل الكِفاحِ ضِدّ الكيان الصّهيونيّ"[3]، اختارته شخصيّة إنسانيّة بالدّرجة الأولى، فقد وقع في غرام صديقة وحاول أن يبهرها بشتّى الطّرق، ويمارس شهوة شبابه معها إلى أن تزوّجها وأنجب منها ثلاثة أبناء، وأكمل عمله المقاوم في صفوف الحركة رغم اعتراضه الدّائم وضيقِهِ من سلوك قيادات الثّورة وفسادِهم الماليّ الّذي فُضِح في المخيّمات وخارجها، لكنّه لم يتفوّه بكلمة واحدة واعتمد أسلوب التّطنيش والمراوغة كغيره من الشّباب المقاومين، بانتظار أن تتبدّل موازين القوى الدّاخليّة، مدركًا في قرارة نفسه أنّ المساومة على أموال الشّهداء وعائِلاتهم، نكبة أشدّ من نكبة 1948[4]، رغم ذلك الضّيق والتّناقض الّذي حملته الشّخصيّة بين المقاومة ورفض الفساد الماليّ والتّشبّث بالحياة وشهواتها إلّا أنّ الرّوائيّة لم تُحَمّل أحمد المقاوم جُهد حلّ كُلّ المعضِلات السّابقة، ولم تُلْغِ في الوقت ذاته إنسانيّته لتعلي من شأن الثّورة والمقاومة في المخيّمات الفلسطينيّة، فقد أبرزت جانبه الإنسانيّ على التّوازي مع جانبه الثّوريّ المقاوم.

---

1 عيسى، سامية: **حليب التّين**، ص 137.

2 **المصدر نفسه**، ص 207.

3 زريق، رائِف: **الذّات والإخضاع والذّاتيّة والخضوع**، من مجلّة الدّراسات الفلسطينيّة، العدد 120، خريف 2019، ص123.

4 انظر: عيسى، سامية: **حليب التّين**، ص 175.

المَرْأةِ في مُخَيّم حليب التّين

كبقيّة المجتمعات العربيّة ربّى المجتمع الفلسطينيّ أبناءه تربية محافِظَة مُؤَطّرة، خاصّة الفتيات منهم، وهذه القواعد في التّربية والتّنشِئة حُمِلت إلى المخيّمات مع اللجوء الفِلَسْطينيّ، فالمرأة في المخيّم تابِعة لتقاليد المرأة في الوطن الأكبر، امرأة تابِعة للرجل، لها حدودها وكثير من المحرّمات، على رأسها جَسَدُها، ومن هذا المُنْطَلَقِ اسْتَهَلّت سامية عيسى روايتها باكتشافِ فاطمة جَسدها ومحاولة استِثارَته وممارَسة العادَة السّريّة في حمّام المخيّم وصولًا إلى النّشوة، وقد مرّت علاقتها باكتشاف جسدها بمراحل، ففي البداية اكتفَت بمداعبة رقبتها وثدييها لتنتهي إلى ممارسة العادة السّريّة كامِلَة وُصولًا إلى النّشوة، الأمر الّذي اعتبرته خلاصَها بذاتها الّتي حُرِمت منها حتّى في علاقَتها مع زوجِها خَليل؛ إذ إنّها طَوّعت جسدها برغباته كما لم يَسْتَطع خليل يومًا فِعله.

علّ هذا الشّعور الّذي وَصَلت إليه فاطِمة كان نتيجة نمط التّربية العائِليّة سواء لها أو لخليل، وخصوصًا فيما يتعلّق بالتّربية الجنسيّة وكبت الرّغبة منذ الطّفولة بالتّرهيب بالعيب والحرام النّاشِئ عنها، أو كنوع من المحافَظَةِ على نمطيّة العائِلة وأخلاقِيّاتها الّتي تتبع أخلاقِيات المجتمع السّائِدَة، وفي مثل هذه الحالات يُوَضّح هِشام شرابي ما الّذي يتعرّض له الفرد في دواخله، فكلما زادت شِدّة التّربية الجنسيّة ازدادت مقدرة العائِلة على كسر شوكة الفرد وتدجينه سياسيّا، وبذلك يلجأ الفرد إلى التّمويه (Mystification) في حجب كلّ حاجاته ورغباته في البيت والمؤسسة الّتي يعمل بها، ليمارِسها فيما بعد في الخفاء، وكأنّه ينقسم إلى شخصيّتين واحِدة مرضية وتابِعة للمجتمع وأخرى للذّات ومحققة رغباتها منجرفة إليها، وإن كانت غير مقبولة مُجتمعيّا وديانيّا[1].

وهذا ما أسقطته سامية عيسى على شخصيّة فاطِمة الّتي اعتمدت التّمويه في المخيّم، فهي أمام المجتمع مُرْضِية له كونها أمّ الشّهداء اللاجِئة الّتي حملت معاناة اللجوء من صَفد إلى العديد من المخيّمات ليستقرّ بها الحال في مخيّم أوزو، وتمارِس رغبتها الجنسيّة من طرف واحد في خفاء حمّام المخيّم حتّى يكتشِف أمرها أبو علي ويواجهها بنظراته، لتنتقل على إثر اكتشافه لأمرها من ممارسة العادة السريّة إلى الحاجة إلى الحب والاستقرار العائِليّ كأيّ إنسان عاديّ، وإن كانت مقوّمات "أبو علي" البسيطة التّعيسة لا تتوافق مع مخيّلتها وأحلامها، لكنّها تعيش حالة فريدة من الحبّ وسط معاناة المخيّم، بعيدًا عن ثقل قداسة أمّ الشّهيد، هذا الثّقل الّذي يعلو على كُلّ شعور إنسانيّ آخر قد تطلبه فاطمة.

1 انظر: شرابي، هِشام: **مقدّمات لِدراسة المجتمع العربي**، ط3، الدّار المتّحدة للنّشر، لبنان، 1984، ص86\102.

طالما تمتّعت أمّ الشّهيد وزوجَته بهالة من القداسة، لتأتي سامية عيسى في مخيّم حليب التّين فتنزع هذه الهالة وتحيل أمّ الشّهيد وزوجته إلى شخصيّات نسويّة عاديّة ليست استثنائيّة، فيقترفن الذّنوب والأخطاء الّتي لا تقبلها العادات والتّقاليد المجتمعيّة والأديان السّماويّة، ففي حين انجرفت فاطِمة نحو شهواتها وغرائِزها الجنسيّة، سقطت صديقة في شرك شبكة دعارة في دبي.

لم ترضَ صديقة عن حياتها بعد استشهاد أحمد، ملأها الانكسار والخيبة وازدادت الفجوة بينها وبين المحيطين بها (فاطِمة والأبناء)، فقد اغتربت عنهم جسديّا ونفسيّا وصارت أقرب إلى العزلة منها إلى الشّراكة الاجتماعيّة، وتولّت فاطِمة مهمّات تأمين الطّعام واحتياجات الأولاد، من خلال العمل في البيوت، رغم محاولات صديقة أن تحمل عبْء العمل في البيوت لكنّها لم تنجح، وكانت ذاتها تنفر من فِكرة التّذلّل للآخرين.

حاولت صديقة الحفاظ على نفسها وشقّ طريق عمل شريف، إذ لم تُذْعِن لرغبة "أبو طارق" بها، ولم تعد لتطلب مخصّصات زوجها الشّهيد منه، واستمرّت الخيبات إلى أنْ أمّنت لها سلمى صديقتها وجارة أمّها في مخيّم شاتيلا عملًا كمصفّفة شعر في دبيّ، وفعلا حظيت صديقة بالعمل ووصلت صالون السّيّدة نوال في دبي، لتكتشف بعد أيّام من وصولها أنّ عملها الحقيقيّ بائِعة هوى (مومس) وليس مصفّفة شعر، فتضيق بها الدّنيا في المجتمع الغريب الّذي لا تعرف منه إلّا السّيّدة نوال، فتستسلم للواقع الجديد، تبيع جسدها لتقبض مالًا ترسل بعضه إلى فاطمة في مخيّم أوزو، ومن خلال حياة صديقة بدبيّ تطرح الرّواية علاقاتها العابرة وتقف تفصيليّا عند علاقتها بجاسم وهي أولى العلاقات الّتي أُجْبِرت عليها، وعلاقتها بوليد اليافاويّ الّذي تمارس معه العلاقة من منطلق الحاجة الجنسيّة للشّعور بالدّفْء والحُبّ، وتختتم الرّواية بهجرة جديدة للعائلة عند ابن صديقة حُسام في إحدى الدّول الاسكندنافيّة، فتذهب صديقة أوّلا لتتبعهم فاطمة فيما بعد.

تعرّضت صديقة لحالة من العجز بسبب حالة الاغتراب الّتي شعرتها في دبيّ، فما البدائِل الّتي توفّرت لها أو الخيارات السّلوكيّة الّتي أتيحت لها لتتجاوز هذا الاغتراب الّذي أسس له المخيّم على الأصعدة كافّة؟ وأتت هجرة دبي لتُتَمِّم الحلقة حولها.

في هذا الشّأنِ يرى د. حليم بركات أنّ الإنسان المُغْتَرِبَ في علاقاته بالمجتمع، والّذي يتحوّل إلى كائِن مهمّش أو عاجِز، يقبل بوَضْعِهِ مُضْطَرًا ويعايِشه، ولكنّه لا يقوى على تحمّله فيبحث عن مخرج بِسُبل مُخْتَلِفة، منها الخُضوع أو

الرُّضوخ والاستسلام للأمر الواقِع والتّكيّف معه على الأقلّ ظاهِريًّا والتّفور مِنه ضِمْنِيًا، عندَما يَستحيل الهرب، ويرافِقه التّطلّع إلى قدوم حالة ما مِن الفرح من نوع ما، ولهذا النّوع من الخضوع لُغة سائِدة أهمّ مَظاهِرها التّملّق والمُجامَلة والتّحبب والتّسويغ والتّنازل والمساومة، وهذه الظّواهر تُؤدّي بدورها في النّهايَةِ إلى الانْسِجامِ بدلًا من الرّفض، فالعربيّ في الوَقت الحاضِر يميل إلى اختيار الانْسِحاب والرّضوخ أكثر ممّا يميل إلى اختيار العمل الثّوري؛ لعدم استعداده للتّعرّض للخَطر ودفع الثّمن المَطلوب[1].

وهذا فعلا ما لجأت إليه صديقة في دبي، أذعنت واستسلمت وتنازلت عن جسدها وساومت عليه في سبيل استمرار حياتها؛ إذ وصلت إلى نقطة لا تستطيع بها العودة إلى الوراء إلى أوزو، وعندما استطاعت هاجرت مرّة أخرى، وانسحبت من حياة بائِعة الهوى إلى الدّنمارك عند صديقة وأبنائِها.

كَيْفَ خُتِمَت رِوايَةُ حَليبِ التّينِ؟

لم تغفل سامية عيسى المطالبة بحقّ العودة على ألسنة شخصيّات الرّواية، لكنّ هذه العودَة لم تكن أساسيّة أو همًّا لازم أهل المخيّم، ولم يتوحّد سُكان المخيّم حول سبيل واحد للعودة، ففي حين انخرط أحمد في صفوف المقاوَمة والكِفاح المُسَلّح ضدّ ميليشيا الكتائِب وسعد حدّاد والعِصابات الصّهيونيّة لحماية حقّه في الحياة هو وأهل المخيّم، وتمهيدًا للتّركيز على مواجهة العصابات الصّهيونيّة للعودة إلى فلسطين، فإنّ عمر الابن الأصغر كان يؤمن بالعودة بوساطة العلم والثّقافة لا بالسّلاح، كما أراد له والده خليل دومًا: "وظلّ يعاودها الحنين إلى تلك العبارة الّتي كان يردّدها: علمك هوّي سلاحك اللي بدّو يرجّع فلسطين"[2]، في حين لم تكن العودة في نَظر صديقة لها أيّ أهميّة، فوسط كُلّ هذه المعاناة والشّقاء لا يهمّها وطن ولا غيره، لا يهمّها سوى ألّا تحتاج أحدًا: "هل لأنّني بدون وطن؟ سألت نفسها ... وطن! أنا أُخَرّف! لم أكن وطنيّة أبدًا، ولم يهمّني يومًا أن أعود إلى فلسطين أو لا أعود، كُلّ ما همّني ألّا أحتاج لِأحد"[3].

---

[1] انظُر: بركات، حليم: **الاغتراب في الثّقافة العربيّة "متاهات الإنسان بين الحلم والواقع"**، ط1، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 2006، ص 84\181.

2 عيسى، سامية: **حليب التّين**، ص61.

3 **المصدر نفسه**، ص120.

بينَ كُلّ هذه التّناقُضات في علاقة ابن المخيّم بالعودَة إلى أرض الوطن، فقد حافَظت فاطِمة على الأمل بالعَودَةِ من خِلالِ المفتاحِ الّذي خَبَّأته في صدرها لتعطيه لحسام حفيدها من ابنها الشّهيد أحمد، علّه يعود يومًا لتفقّد البيت في صَفد، ختمت سامية عيسى روايتها بهذا الأمل في صدر فاطِمة الّتي بدأت تفقد بصرها تدريجيّا، لكنّ ذاكِرتها تستيقِظ لتنهش كبرها، فَتحاول دومًا أن تُغلق عينيها على الحِكايَة الّتي لا تُريد أنْ ترْوِيها ولا تَسْتَطيع نِسيانها ولا تَقوى على تذَكّرها[1].

1 انظر: عيسى، سامية: **حليب التّين**، ص 214.

مُخَيّم حَياة مُعَلّقة

"لا يريد أن يموت صدفة،

أن يصبح مجرّد بوستر على جدران البيوت

صورة معلّقة في الصّالونات"[1]

منذ النّكبة 1948 وغزّة تمتلك خصوصيّة عن بقيّة المدن، وبتحوّلها إلى قِطاع مغلَقٍ عن بقيّة أرجاء الوطن صارت أشبَه بالدّولة المنفصلة خاصّة بعد انتخابات المجلس التّشريعيّ 2006 الّتي كان أهمّ نتائجها استلام حماس لدفّة الحكم والإدارة في غزة[2]، وهنا تزايدت قضاياها وخصوصيّاتها، فطرح المخيّم فيها يختلف عن غيرها، والهموم الاجتماعيّة والنّفسيّة والسّياسيّة الّتي تطفو على سطحها لن تطفو على أسطح مدن ومخيّمات أخرى، أبسط الأمثلة على ذلك حفر الأنفاق والانشقاق الدّاخليّ بين أحزابها وانفصال حكومتها عن السّلطة الفلسطينيّة وتضييق الخناق على المجتمع فيها الّذي ولّد فقرًا مدقِعًا، كلّ هذه التّفاصيل أكسبتها خصوصيّة عن غيرها من مدن الوطن، وانعكس ذلك بطبيعة الحال على مخيّماتها الّتي تعاني من كُلّ ما سبق وزيادة من آفات مجتمعيّة اقتصاديّة، فمخيّمات غزّة كغزّة، تفرّخ الأبناء للموت

---

[1] أبو سيف، عاطف: **حياة معلّقة**، ط2، الأهليّة للنّشر والتّوزيع، الأردن، 2015، ص406.

2 فازت قائمة التغيير والإصلاح المحسوبة على حركة حماس بـ (76) مقعداً في المجلس التشريعي الفلسطيني لعام 2006، وبذلك شكّلوا ما نسبته 57.6% من أعضاء المجلس، أما على مستوى الدوائر الانتخابية، فقد تمكنت قائمة التغيير والإصلاح من الفوز بـ (46) مقعدا مشكلين ما نسبته 69.7% من مقاعد الدوائر، وعلى مستوى القوائم الانتخابية، فقد فازت هذه القائمة بـ (30) مقعدا ويشكلون ما نسبته 45.4% من المقاعد المخصصة للقوائم الانتخابية، من جهة أخرى، فقد قامت حركة حماس بدعم أربعة مرشحين مستقلين حققوا النجاح في هذه الانتخابات، لتصبح المقاعد الموالية لحركة حماس 80 مقعداً أي ما نسبته 60.6% من مجموع مقاعد المجلس التشريعي، أما حركة فتح فقد منيت في هذه الانتخابات بخسارة، حيث لم تتمكن من حصد سوى (43) مقعدا ويشكلون ما نسبته 32.6% من هذا المجلس، حيث حصلت على مستوى الدوائر الانتخابية على (16) مقعداً، ويشكلون ما نسبته 24.2% من مقاعد الدوائر الانتخابية، في حين تمكنت الحركة من الفوز بـ (27) مقعدا على مستوى القوائم الانتخابية، ويشكلون ما نسبته 40.9% من المقاعد المخصصة للقوائم الانتخابية. انظر: **حماس تستلم السّلطة من فتح "قراءة إحصائيّة وسياسيّة في نتائج الانتخابات التّشريعيّة الفلسطينيّة الثانية 25 كانون الثّاني \ يناير 2006"**، مركز دراسات الشّرق الأوسط عمّان، كانون ثاني 2006.

باستمرار، آلة موت لا تنضب ولا تتوقّف عند حدّ، فعودة سريعة إلى وضع غزّة في السّنوات العِشرين الأخيرة ستُظهر عددا مهولا من الحروب والاجتياحات[1] يتبعه عدد عظيم من الموت والتّشويه و... .

وَصْفٌ عامٌّ لمخيّم حياة مُعلّقة

تشكّلت رواية حياة مُعَلّقة للفلسطينيّ عاطِف أبو سيف[2] من أحد عشر فَصْلا[3]، تتبّع خلالها مسيرة حياة نعيم، بِدْءًا من ولادَته في يافا عام 1948 وصولا إلى موته في غزّة برصاصة قَنّاص إسرائيليّ وهو يهمّ بفتح مطبعته صباح أحد الأيّام، رصاصة لمجرّد قرار القنّاص بإطلاق رصاصة وإنهاء حياة نعيم، واستمرت الرّواية لما بعد وفاته بفترة متتبّعا الكاتب بها حياة ابنه سليم وشبكة العائِلات المقرّبة في المخيّم، مع عدم ذكر اسم المخيّم بعينه لكنّه أسرف في وصفه وطرح أسماء الشّوارِع فيه وحوله وكذلك البنايات.

مفهوم البُطولة في مُخيّم حياة مُعَلّقة

حيواتٌ عديدةٌ عُلّقت في مخيّم رواية حياة معلّقة، من حِصار غزّة وإغلاق معبر رفح باستمرار، فجأة صارَ كُلّ شيْءٍ مؤجّلا، لا وضوح لوقت تنفيذِهِ، انبثق عن هذه التّغيّرات قضايا اجتماعيّة وسياسيّة مُستجدّة وشخصيّات اتّخذت أدوارًا مغايرَة لمثيلاتها في مخيّمات أخرى، فقد طفت على مخيّم حياة معلّقة بطولات متنوّعة وتنازعت فيما بينها، ففي هذا المخيّم

[1] أبرز هذه الحروب والاجتياحات: حرب 2008 والّتي أسمتها إسرائيل "الرّصاص المصبوب" وأطلقت عليها حماس "حرب الفرقان"، حرب 2012 والّتي أسمتها إسرائيل "عمود السّحاب" وأطلقت عليها حماس "حجارة السّجّيل"، حرب 2014 والّتي أسمتها إسرائيل "الجرف الصّامد" وأطلقت عليها حماس "العصف المأكول"، لمزيد من المعلومات انظر: https://bit.ly/3o6FG0m استرجع بتاريخ 30\6\2020.

2 ولد في مخيم جباليا بغزة في فلسطين، لأبوين لعائلة هُجّرت من مدينة يافا، درس اللغة الانجليزية وآدابها في جامعة بيرزيت بفلسطين، وقد كان يحب القص والسرد لشغفه بجدته عائشة التي ماتت وهي تحلم بيافا، وتعيد سرد حكاياتها ويومياتها في المدينة، بحيث أضحى هذا الشاب يتمنى فقط لو استطاع أن يكتب حكاية عن جدته في يافا وهو الأمر الذي لم يفعله حتى الآن، يحمل درجة الماجستير في العلوم السياسية من جامعة برادفورد بإنجلترا، حيث دارت أطروحة الماجستير حول "التكامل الأوروبي"، ويحمل كذلك شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة فلورنسا بإيطاليا 2006، دخلت روايته "حياة معلقة" في القائمة النهائية "القصيرة" للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) لعام 2015، واختيرت روايته الحاجّة كريستينا في القائمة الطّويلة لجائزة البوكر 2018، ويشغل حاليًا منصب وزير الثّقافة الفلسطينيّة، وله نتاجات أدبيّة في حقليّ المسرحية والقصّة القصيرة. من رسالة أرسلها د. عاطف أبو سيف لي عبر الفيسبوك بتاريخ 11\4\2020.

3 الفصول على التّوالي: موت مفاجِئ، البوستر، الجنازة، الرّحلة خارج الإطار، رائحة الياسمين الفوّاحة، ذكريات ترانزيت، عش الأحلام، كلّ هذا السّفر، زمن التّلّة، عودة الميّت، الحياة في الطّريق.

نجدُ البطل الفدائيّ والمتردد والخائن والتفعيّ والهامشيّ الّذي نازع الجميع على دور البطولة وطغى في مراحل ما عليها مثل صبي القهوة "يورو"، فلا بطولة منفردة ومطلقة في هذا المخيّم ولا بوصلة واحدة.

بموت نعيم الورديانيّ طُرِحَ التّساؤُل الأوّل حول مفهوم البطولة، لتقف الدّراسة أمام رأيين مختلفين، كُلّ منهما يمثّل شريحة من الشّباب الفلسطينيّ في المخيّمات: شريحة ترى في الشّهادة البطولة، وإن لم تكن هذه الشّهادة مَطلبا، فيكفي أن تغدر بك رصاصة قنّاص كي تحمل عبء بطولة الوطن على كتفيك، هذه الشّريحة الّتي مثّلها بضراوة نصر ابن أخت نعيم الورديانيّ، وعارضها بوعي سليم بن نعيم الورديانيّ الّذي يرى أنّ الحياة هي البطولة، والشّهادة لن تحمل معنى البطولة إلّا إذا طلبها صاحبها وسعى لأجلها بعمل فدائيّ واضح المعالم، الأمر الّذي لم يفعله نعيم الورديانيّ.

وضع هذا التّساؤل شخصيّات الرّواية الرّئيسة في خلافٍ إلى ما يقارب النّهاية، كان نعيم الورديانيّ الّذي أثار استشهاده هذا التّساؤل مالكًا لمطبعة ينجز فيها بوسترات الشّهداء ويحتفظ لنفسه مع كلّ شهيد ببوستر يعلّقه على جدار مطبعته، حتّى استحالت الجدران إلى خريطة الموت في المخيّم. كان يحمل صور الشّهداء في مخيّلته وعلى جدران المطبعة، لكنّه لم يؤمن يوما بأنّ الشّهادة هي البطولة، بل كان ينتظر الحياة للمخيّم وأهله، ففي كلّ مرة كان يحضر الشّباب له صورة الشّهيد طالبين منه أن يصنع بوسترا كان يرفض بداية ويصل به الأمر حدّ البكاء؛ إذ لم يكن يرى في البوستر تخليدا لهذا الموت الظّالم: "رفض، قال للشباب إنّه لا يقدر أن يقوم بذلك، نزلت الدّمعات غزيرة من عينيه، كان الألم يأكله من الدّاخل ... كان كلّ مرّة يطبع فيها بوسترًا يتألّم، يشكو لسمر -الّتي كانت مستمعه الحقيقيّ الوحيد- الوجع الّذي يحسّه فالنّاس لا تفهم أنّه يمسك الجمرات بيده"[1]، هذا الشّعور الّذي اعتراه عندما أعطاه الشّبّان صورة الفتى شادي الّذي استشهد صدفة وهو يلعب مع رفاقه كرة القدم في السّاحة على أطراف المخيّم يوم عطلة رأس السّنة الهجريّة، إذ كان يهمّ بتسديد هدف في مرمى الخصم فباغتتهم قذيفة مدفعيّة إسرائيليّة أسقطته شهيدا فوق الكرة الّتي لم يسددها، كيف مات هذا الفتى؟ لقد رآه الورديانيّ صباحا يقضم ساندويشة فلافل بانتظار أصحابه كي يلعبوا كرة القدم، كان يحلم أن يصير نجم كرة قدم كبير ويلعب في برشلونة مع ميسي كما تقول أمّه[2]، كان التّور ينبعث من عينيه، لم يكن يريد أن يكون بطلا، لكنّهم بهذه الشّهادة حوّلوه بطلا.

[1] أبو سيف، عاطف: **حياة معلّقة**، ط2، الأهليّة للنّشر والتّوزيع، الأردن، 2015، ص14.

2 انظر: **المصدر نفسه**، ص17.

في كُلّ مرّة كان يحضر الشّباب إلى العمّ نعيم الوردانيّ صورة شهيد جديد كان يدور بينهم الحوار ذاته، على التّحديد بينه وبين ابن أخته نصر، حوار التّضحية والبطولة من طرفهم وحوار الألم والظّلم من طرف الوردانيّ، كان يحاول دومًا أن ينقل لهم فكرة أنّه ليس حفّار قبور، وأنّهم في صنع البوستر يحوّلونه إلى حفّار قبور وهو لا يستطيع أن يكون كذلك، لا يستطيع أن يحوّل ابتسامة الإنسان إلى صورة هامِدة يتناقلها النّاس، ونصر على الطّرف الآخر يدافع عن فكرته في أنّ هذه النعي على البوستر واجب وطنيّ لا بدّ منه لتخليد العمل البطوليّ للشهيد، لكن أيّ عمل بطوليّ قامَ به شادي وهو يلعب كرة القدم؟: "تحدّث له الشّباب عن البطولة والتّضحية والتّذكّر وعدم النّسيان، وعن الرّوح الخالدة وعن الحاجة للاستمرار، لمفارقة أنّ مثل هذا الحوار يجري تحديدا بينه وبين ابن أخته "نصر" الّذي يقود الشّباب في كُلّ نشاطاتهم"[1].

رغم معرفة نصر برأي خاله الوردانيّ في البوستر والبطولة والتّضحية إلّا أنّه خاضَ جدالا طويلا مع سليم ابن خاله، لقد تلقّى سليم خبر استشهاد والده وهو في إيطاليا واستطاع العودة بعد يوم من استشهاد ودفن والده، كان نصر ينتظره كي يحصل منه على صورة مستحدثة للخال كما أخبرته سمر، كون الصّورة الموجودة قديمة جدا لن تستطيع تخليد ذكرى الرّجل السّتينيّ، فالمعظم لن يعرفه بهيئته الشّبابيّة، وسليم هو الّذي يملك صورة جديدة له، وبعد أخذ وردّ طويل رفض سليم إعطاء نصر صورة لوالده الّذي لم يكن بطلا ولم يبحث عن بطولة، فجلّ ما كان يتمناه في حياته أن تجتمع العائلة حول طبليّة واحدة سليم المهاجر في رحلة العلم الطّويلة، وسالم المحكوم بخمسة مؤبّدات وابنتيه سها الّتي تزوّجت ابن خالتها في السّعوديّة وسمر الوحيدة الباقية في البيت معه من رائحة زوجته آمنة الّتي توفت في طفولة سمر: "ليست البطولة أن تموت مجانًا، أن تموت بسبب خطأ وسوء تدبير، بل هي أن تعرف ماذا تفعل، وأن تفعله بطريقة سليمة حتّى لو كلفك ذلك حياتك، وتحقق غايتك من ورائه، هنا يصبح للحياة قيمة، وتكون التّضحية معقولة وضرورية"[2].

بينما يدافع سليم عن خصوصيّة الألم الفرديّ في استشهاد والده بالصّدفة وأنه لا يمكن لمثل هذا الحزن أن يصير مشاعا أو يُستخدم في غايات سياسية دعائيّة، يحيل نصر الأمر إلى حزن ومشاركة وطنية جماعية، فالواجب واجب وعلى شبّان التّنظيم عمل بوستر للخال وتوافقه الرّأي وتدعمه سمر: "خليهم يعملوا اللي بدهم إياه، هذا حقهم، شك

1 أبو سيف، عاطف: **حياة معلّقة**، ص 14.

2 **المصدر نفسه**، ص77.

للحظة بأن نصر تحدّث إليها فهي تستخدم بعض الكلمات الّتي ينثرها نصر في ثنايا حديثه، لكنّها رغم ذلك تبدو مقتنعة بكلّ كلمة"[1]، خرج نصر بعد هذا الحوار غير موفّق في أخذ صورة من لاب توب سليم، سليم لم يحد عن مبدئه ورأيه في فكرة البوستر ويرى أنّه أرضى والده، لكنّ نصر كذلك نفّذ ما عزم على فعله، إذ وجد صورة بل صورا عديدة -عند الصّحفيّ ياسر صديقها وصديق العائلة- للخال نعيم، فنفّذ من خلاله البوستر الّذي وجده حقّا للخال نعيم بعد كلّ البطولات السريّة الّتي قام بها والتّضحيات الّتي قدّمها للوطن من وجهة نظره.

لكن، كيف افترق الطّريق بين سليم ونصر وهما اللذان عاشا الطّفولة وتجربة شهادة زميلها سهيل في المدرسة الابتدائية والاعتقال؟ كيفَ صارت القبلة قبلتين؟ بعد أنْ غيّب المؤبّد حياة سالم الابن الأكبر لنعيم الورديانيّ، لم يتوانَ عن وعظِ ابنه سليم بأن ينتبه لمدرسته حتّى يلتحق بالجامعة، فالطّفل الّذي خطّ الشّعارات التّحريضيّة وألقى الحجارة وسجن عامًا ونصف يجد نفسه اليوم أمام خيار آخر، وفعلا التزم بخيار والده والتحق بجامعة بيرزيت ومن ثمّ أكمل اللقب الثّاني في إنجلترا وحصل على منحة أخرى لدراسة الدّكتوراه في إيطاليا، وبذلك تغيّرت حياته وتغيّرت نظرته إلى المفاهيم المطروحة في حياة المخيّم أوّلها حقّ الحياة، وأنّ لا بطولة مجّانيّة.

الرّجل في مُخَيّم حياة مُعَلّقة

عاش سليم معظم حياته بعيدا عن المخيّم كوْن فكره وثقافته الّتي تمتّاها، وكان في سعي دائِم للحصول على أيّة منحة دراسيّة تُخَلّصه من حياة المخيّم الّتي لم يستطع أن يجد له مُتّسعا بها، ورغم إدراكه أنّ والده يرفض غيابه هذا، خاصّة في دراسة الدّكتوراه خوفا من ألا يعود، إلّا أنّه وسّط العم يوسف بينه وبين أبيه، وكان له ما أراد، عاد بعد خبر استشهاد والده، عادَ باحثًا عن مكان له فلم يجد، ومع إغلاق معبر رفح تزايد شعوره المتناقض ما بين البقاء في مخيّم غزّة وما بين العودة شبه المستحيلة إلى إيطاليا.

في فترة بقاء سليم في غزّة تكشّفت تفاصيل حياته ما بين إيطاليا وما بين غزّة، ففي البداية لم يجد فرصة عمل بشهادته الجامعيّة المرموقة، فانخفض سقف التّوقعات إذ عمل في مؤسسة لحقوق الإنسان، كانت كافية ليبقى صامدا وسط دوّامة الحياة في المخيّم وفي غزّة بأكملها، وفي مفارقة مؤلِمة تعرّض سليم للاعتقال مدّة عشرة أيّام، رأى فيها ما رأى

1 أبو سيف، عاطف: **حياة معلّقة**، ص83.

من أنواع العذاب النّفسيّ والجسديّ على يد السّلطة الحاكمة في غزّة، ليتمّ الاعتذار له في النّهاية بأنّ اعتقاله مجرّد خطأ، كيف يُترجم هذا الخطأ، كي يُبرر خطف سليم من الشّارع وهو مع صديقته القديمة نتالي الإسبانية وزميلين آخرين، وممارسة أشدّ أنواع التّعذيب معه وإنكار وجوده أصلا في مبنى السّرايا أو اعتقاله رغم ثقة نتالي أنّ سليم اختطف وأدخل إلى مبنى السّرايا.

أمّا نصر فكان نصيبه من السّجن أكثر، فبعد السّتّة أشهر الأولى الّتي قضاها اعتقل مرّة ثانية ليَقضي عشر سنوات ما بين عامي 1989 و1999، عمل بعد خروجه ضابطًا في جهاز الأمن وتنازل عن هذا العمل حينما تحوّلت الحكومة إلى حماس في انتخابات 2006، حاول الحفاظ منذ الفصل الأوّل على وجهة نظره في البطولة والتّضحيّة وأنّ الشّهادة وإن كانت صدفة تحيل الإنسان إلى بطل كما حدث مع خاله نعيم، ففي حوار سليم ونصر برز هذا الجانب عند نصر إذ عندما سأله سليم عن تمجيد الشّهداء: "كيف نعلي من شأنِهم؟ ببوستر!!" ردّ: "هذا أقلّ واجب، أو على الأقلّ هذا الواجب الشّكليّ والجماهيريّ ... لا تكرر عبارة ضحية أمام أحد، خالي شهيد وكبير وبطل عظيم وتضحياته مدرسة نتعلّم منها، وتتعلّم منها الأجيال القادِمة"[1].

عاش نصر في مرحلة تخبّط فيما بعد، فبعد أنْ بارَكَه خاله نعيم حينما أفصح له بأنّه سيصير فدائيّا، وبعد اعتقالِه بسبب عمله الفدائيّ، اضطربت علاقته بالمخيّم فأجاب في النّهاية على تساؤلِ سليم له إن كان يرغب في الهجرة كبقيّة شباب المخيّم وغزّة، أجاب: نعم، وهو نفسه يستغرب هذه الإجابة ولا يتوقّع من ذاته أن يُطّبّقها، إذ حاولت حبيبته نفين ابنة العميد صبحي أن تقنعه بأن يهربا معًا إلى السّويد ويتزوّجا هناك، بعد التّغيّر الجذري الّذي حصل على شخصيّة والِدِها وانعكس عليها بانضمامه إلى الحكومة الجديدة عام 2006.

لم يفرض أبو سيف القداسة على شخصيّاته، ولم يُحِلها إلى شخصيّات بيرونيّة مُخمليّة، فالفدائيّ يحمل السّلاح ويُسجن ويشارك في المظاهرات ويقع في الحبّ، فها هو نصر يقع في حُبّ نفين ابنة العميد صبحي ويشاركها أحلامه إلى حين يقطع العميد صبحي هذه العلاقة بينهما محرّما مثل هذه العلاقات وغيرها تبعًا للتّوجّه الدّينيّ الّذي التزم به بعد انتخابات عام 2006، لتعود المياه إلى هذه العلاقة في مظاهرات التّلّة الّتي أرادت الحكومة قلبها إلى منطقة مجمّعات تجاريّة على حساب بيوت سكان المخيّم، وسليم المثقّف الّذي شارك في تظاهرات وكتابة شعارات تحريضية وإلقاء حجارة

[1] أبو سيف، عاطف: **حياة معلّقة**، ص 50 – 51.

ها هو يختار طريق العلم للدّفاع عن الوطن، وتتغيّر طريقة خِطابه من الشّهادة والبُطولة إلى الضّحيّة والأنسنة، يتخلّى عن حبيبته يافا ويتزوّج من الإيطاليّة كريستيانا كي يحصل على زواج سفر إيطاليّ ويمارِس علاقة مع الإسبانيّة نتالي الّتي يعود ويلتقيها في غزّة ويخونها في إيطاليا مع فتاة فرنسيّة، فهو كأيّ شابّ قد يقع فريسة لشهواته ونزواته العابرة، لم يقدّسه وكما قد تطول الخطيئة غيره تَطوله هو.

نوّع أبو سيف من شخصيّاته البطوليّة في الرّواية فكما طرح نموذج الفدائِيّ، طرحَ نموذج المثقّف، ولكلّ منها سماته الإنسانيّة الّتي تساهم في مصداقيّة طرحه وتبعده عن هالة القداسة الّتي أحيطت بها الشّخصيّات الفدائيّة قبل أوسلو، إضافة إلى أنّه طرح نموذج الشخصيّة الميكيافليّة "النّفعيّة – الوصوليّة" بما في هذه الشّخصيّات من تلاقٍ وترابط، وخير من يمثّل هذه الشّخصيّات خميس ابن العمّ يوسف والعميد صبحي، فخميس صار مسؤولا في وزارة الدّاخليّة بعد أنْ كانَ أوّل من عمِل في تجارة الأنفاق وكَسب منها ما حوّله إلى واحد من أثرياء غزّة، ولم يغفل خميس أن يُفرِط في تديّنه وأن يُقدّم بين الفينة والأخرى بعض المساعدات لأهل المخيّم، إذ سهّل مرور يورو من معبر رفح كي يسافر الأخير إلى إسبانيا مع نتالي: "بشّر!!! تمام، خميس قال رح يساعدك، بس قال لازم تصلّي في الجامع، عشان يشوفك أمير الجامع، بصلّي الفجر ما تقلق، وبقعد إذا بده بدرس الدّين بعد الصلاة، المهم نسافر"[1]، إذن على جميع من في المخيّم أو غزّة التّستّر بالدّين كي يحصلوا على ما يريدون.

بعد أن وصل خميس إلى هذه المكانة الماديّة والسياسيّة قرر أنْ يحوّل تلّة المخيّم الّتي يعيش عليها العم خليل وبيت نعيم الورديانيّ وثلاثة بيوت غيرها إلى مشروع تجاريّ ضخم، حلّاه في عيون أهل المخيّم بمسجد كبير له قبّة ذهبية تشبه قُبّة الصّخرة ومخفر شرطة، وبعد كلّ التّظاهرات والرّفض يتدخّل العميد صبحي مع رجال الشّرطة لفضّ التّظاهرات الرّافضة للمشروع ويقوم أفراد الشّرطة بضرب العمّ خليل ليفقد وعيه مدّة ثلاثة أشهر.

مثّل العميد صُبحي الشّخصيّة الوصوليّة كما مثّلها خميس، إذ غيّر من توجّهه الدّيني والسّياسيّ بعد انتخابات 2006 حتّى لا يفقد منصبه، بعد أن كانَ فدائيّا عظيمًا في عيون كلّ أطفال المخيّم نُفيّ وتشرّد وعاد إلى المخيّم بعد وفاة أمّه الّتي قضت عمرها بانتظاره بأكيّة متوسّلة عودته، كما وفرض – بعد انضمامه للحكومة الجديدة – توجّهه الدّينيّ على أسرته تحديدا على ابنته نفين، إذ ألزمها بلبس الحجاب كي يتماشى مع توجّه الحكومة الجديد الّذي لم يكن يشبهه يوما،

[1] أبو سيف، عاطف: **حياة معلقة**، ص308.

ووقف في وجه أهل المخيّم في مشروع التلّة، وفي وجه ابنته نفين الّتي كانت متحدّثة باسم أهالي التلّة، وكان المسؤول الأوّل عن فضّ تظاهراتهم واحتجاجاتهم، إلى أن جاءت واقِعة ضرب العم خليل، حينها فقد العميد صبحي صوابه وصار يهذي في أزقّة المخيّم، ربّما في هذا الفقد عودة، لعدم استطاعته الاستمرار في الكذب على الذّات والانسلاخ عن النّفس أكثر.

توسّعت شريحة الشّخصيّات في المخيّم، فبين البطولة الفدائيّة والنّفعيّة والشّخصيّة المثقّفة سمحَ المخيّم للشّخصيّة الهامشيّة بالطّغيان والبروز بما يتلاءم مع الرّواية، فمن خلال شخصيّة يورو صبيّ القهوة استطاعت الدّراسة التّعرّف على شريحة كاملة من شباب المخيّم في غزّة وغيرها، يعزفون عن الزّواج ويتمسّكون بحلم واحد ووحيد وهو الهجرة والهروب من هذا الخِناق، فقد عمل يورو ما يقارب الخمسة عشر عامًا في المقهى وعزف عن الزّواج كي لا يقيّده قيد عند تحقيق حلم الهجرة، وفعلا استطاع الخروج من غزّة بمساعدة نتالي الصّحفية الإسبانيّة عشيقة سليم السّابقة الّتي صارت عشيقته في غزّة، إذ ربطتها به علاقة حُبّ مؤقّتة كونها فتاة لا تستمر بالعلاقات، ومارست معه الجنس برغبة منها، وسهّلت له سفره إلى إسبانيا بحجّة المشاركة بمؤتمر وهناك انفصلت عنه ليكمل هو حياته كما أراد، في مكان بعيد عن غزّة بكلّ تفاصيلها.

المَرْأة في مُخَيّم حياة مُعَلّقة

أبرز أبو سيف دور المرأة مع التّنوّع في أدوارها وإعادَة صياغة تمثيلات هذه الأدوار، وإن كانت نسوة المخيّم البارزات قليلات في الرّواية تقف الدّراسة عند أهمّهنّ وأكثرهنّ تأثّرا وتأثيرا، يافا ونفين، مثّلت يافا المرأة المستقلّة المتمرّدة وإن كان هذا التّمرّد لم يكتمل، فيافا ابنة الحاج خليل لم ترضَ لبس الحجاب والانصياع للعادات والتّقاليد كما بقيّة فتيات المخيّم، وآزرها والدها في قرارها، أحبّت سليم وهي في سنتها الجامعيّة الأولى، واستمرّ هذا الحبّ لأعوام طويلة إلى أن تخلّى عنها كي يكمل دراسته في إيطاليا: "مطّ شفتيه وبقسوة غير مقصودة: إذا حابّة بس تخلصي جامعة تعالي ادرسي في إيطاليا، إجابة، رغم ذلك، يمكن أن يقولها المرء لشخص يجلس إلى الطّاولة المجاورة له في المقهى؛ لا لفتاة أرهقها حبّه وأدمنت قلبه"[1] هكذا افترقت السّبل بينهما ومضت هي في طريقها وهو في أحلامه وطموحه إلى إيطاليا، أنهت دراستها الجامعيّة وعملت في مؤسسة تنمية محليّة، ثمّ انتقلت للعمل من مؤسسة إلى أخرى حتّى استقرّ بها الأمر

[1] أبو سيف، عاطف: **حياة معلّقة**، ص186.

مديرة لمؤسسة للدّفاع عن حقوق الإنسان ومسؤولة عن قرابة ثلاثين موظّفًا، وبهذا السّمة الإداريّة عاد سليم بعد وفاة والده والتقيا، لكنّها وإن ارتعش بها الحبّ الأوّل لم تكن يافا الّتي تركها، فبعد زواجها وطلاقها في غيابه وارتدائها الحجاب وتولّيها إدارة المؤسسة صارت يافا أخرى، أكثر نضجا ومسؤوليّة وقرارا، إذ اتّخذت هذه المرّة هي القرار بتركه بعد أن علمت أنّ صديقتها الجديدة نتالي هي عشيقته السّابقة، لم تسمح لسليم بأن يقودها ويتخلّى عنها فكانت هي المبادرة بالتّخلّي لتكمل عملها بين غزّة ولبنان وفي قصّة دراميّة تلتقي بشابّ من مخيّم عين الحلوة تقع في حبّه ليكشف لها القدر فيما بعد أنّ هذا الشّاب هو ابن عمّها الوحيد، العم الّذي جاءت باحثة عنه في مخيّمات لبنان، لتعود إلى غزّة بزوج وابن عمّ متعالية على نكسات حياتها الشّخصيّة السّابقة.

ولنفين حبيبة نصر تمرّدها الخاصّ، وإن كانت يافا قد أخذت بيد ابن عمّها من مخيّم عين الحلوة في لبنان إلى مخيّمات غزّة ليعيشا وحيدين بعد موت والدها الحاج خليل، فنفين كانت تصِرّ منذ البدء على نصر أن يتركا غزّة بما فيها، في البدْء كان الحب بينهما سهلا مقبولا حين كان العميد صبحي متوافقا فكريّا مع نصر، لكن عند قرر العميد صبحي إطلاق لحيته والانضمام إلى الحكومة الجديدة رفض العلاقة بين ابنته ونصر وفرض على الحجاب وحرمها الخروج من البيت، انصاعت له في البداية إلى أن جاءت قضيّة التّلّة ففجّرت فيها تمرّدها، ليلمحها والدها على شاشة التّلفاز تعرّف عن نفسها بأنّها المتحدّثة باسم أهالي التّلّة، وهنا تأزّم موقف العميد صبحي مع الحكومة ولم يستطع وضع حدّ لابنته الّتي لم تُرِد إيقاف جموح شخصيّتها، واستمرت بالدّفاع عن التّلّة مع إصرارها الدّائم على نصر أن يهاجرا إلى السّويد عند إخوتها، بعد أن عادت مياه الحبّ بينهما، حاول أن يراوغ ويتمنع ويقنعها بالبقاء في غزة لكنّها كانت شغوفة بالسّفر وبحياة الحريّة، هي لا تريد حياة مخيّم غزّة ولا غزّة المدينة: "يتذكّر حواره مع سليم في السّيّارة حين سأله الأخير هل ستهاجر لو أتيحت لك الفرصة، كان ردّه صادِمًا له وليس لسليم، أجاب: نعم، هل يوافق في النّهاية على السّفر مع نفين للخارج"[1]، حياة معلّقة وقرارات معلّقة وكلّ تأخير كما ترى نفين هو ندم.

الهموم الاجتماعيّة في مُخَيّم حياة مُعَلّقة

كثيرة هي الهموم الاجتماعيّة الّتي تنبثق عن بيئة المخيّم، علّ مخيّمات غزّة تخصصت زيادة عن بقيّة المخيّمات بهمّ البَطالة والفقر والعوز، مردّ ذلك إلى الحِصار الدّائم، فالرّواية تجسّد فترة لا بأس بها بعد تشديد حصار غزّة على إثر

[1] أبو سيف، عاطف: **حياة معلّقة**، ص402.

استلام حماس لحكومتها، إذ من المُعيب ألّا يجد شخص كسليم عملا وهو يحمل شهادة دكتوراه ويلجأ إلى العمل في المشاريع المؤقّتة مع مؤسسات حقوق الإنسان الممولة خارجيّا، في حين أنّ الصّحفيّ ياسر صديق سليم ينتعش عمله في الحروب والاجتياحات ويمتلك حينها مادّة إخباريّة تسيّر له باب رزقة.

يُضاف إلى ذلك الهموم النّاتجة عن التّزمّت الدّيني وفرض الدّين على السّكان للحصول على أدنى متطلّبات الحياة، فيورو كي يخرج من غزّة أجبر على الالتزام الدّيني، رغم أنّه يخوض علاقة مع الصّحفيّة الإسبانيّة نتالي، ونفين أجبرت على الحجاب كي يحافظ والدها على منصبه الوظيفيّ، في حين أبقت على علاقة حُبّها مع نصر وأخذت تواعده كُلّما سنحت لهما فرصة وإن غاب اللقاء بينهما أشهرا فإنّه يتجدد، وعندما ضرب أفراد الشّرطة الحاج خليل ودخل في غيبوبة عامله أهل المخيّم كوليّ صالح، وحين استيقظ من غيبوبته زاده النّاس تقديسا، علّ هروب النّاس على هذه الخرافات والغرائبيّ في الأحاديث هو نتاج التّزمّت والتّضييق الممارَس عليهم دينيّا وسياسيّا، كلّ هذا التّناقض والانسلاخ عن الذّات والرغبات والمبادئ ولّد وهنًا في ذواتهم تبعه هموم اجتماعية تتزايد بمرور الأيّام وتضييق الحِصار، ولّد رغبة دائِمة في الهروب من المخيم والمدينة، من الحيوات المعلّقة إلى حيوات ثابتة ربّما يحظون بها في بلاد بعيدة.

كَيْفَ خُتِمَت رِوايَة حَياة مُعَلَّقة؟

كما بدأت الرّواية بموت انتهت بموت، فقد ختم أبو سيف روايته بجنازة الحاج خليل، وما حملته الجنازة من هموم أهل المخيّم الّذين عاشوا معاناة التّشرّد والتّهجير والهجرة والبحث عن حياة أكثر كرامة، خُتمت الرّواية والحيوات معلّقة والقرارات تنتظر من يدفعا للأمام أو يميتها في أرضه، فنصر متردّد في سفره مع نفين، وسليم خائِف من العودة إلى إيطاليا رغم إرادته ذلك، لكن، كيف سيعود تاركا سالم بمؤبّداته الخمسة في الوطن بعد أن تلاشى حلم تحريره مع محرّري صفقة شاليط 2012، وإن خرج فمن سيعانقه عند الباب؟ من سيفتح له الباب أصلا؟ حتّى القرارات معلّقة في المخيّم، عاد الجميع من الجنازة إلى بيوتهم منتظرين هدم البيت الأخير من بيوت التلة بعد أيام، بيت الحاج خليل، بهذه الأوجاع ختم أبو سيف روايته "حياة معلّقة" فلا نهاية مُشرِقة بتحرير أو عودة، نهايات مأساويّة تتوالى على أبناء المخيّمات، أيّا كانت البقعة الّتي تضمّهم، ليعودوا من جديد إلى الدّائرة ذاتها من الوجع: "العيون في الطّريق تشخص إلى التلّة، كأنّها تلقي عليها نظرة الوداع الأخيرة قبل أن تفترق الخطوات في الدّروب والأزقّة"[1].

[1] أبو سيف، عاطف: **حياة معلّقة**، ص407.

مُخَيّم مُخْمل

"لقد أحبّها اللهُ كثيرًا، بِخلافِهنّ،

بل على الأرجح أنّ اللهَ كانَ يكرههنّ؛

لِأنّهنّ عِشْنَ"[1]

لم تحظَ مخيّمات الفِلسطينيّين في الأردن بوضع أفضل كثيرا من تلك الّتي نشأت في لبنان، وإن كانت مخيّمات لبنان صاحِبة الحَظْوة في كُلّ أنواع المهانة اجتماعيّا وسياسيّا واقتِصادِيّا ...، فقد تميّزت معظم المخيّمات بتردّي الوضع الاجتماعيّ والنّفسيّ والاقتصاديّ وما ترتّب عن ذلك من آفات مجتمعيّة، ولا تستطيع الدّراسة أن تنكر أنّ الوضع السّياسيّ للاجِئين في مخيّمات لبنان هو الأصعب من بين المخيّمات.

وَصْفٌ عامٌّ لمخيّمٍ مُخمل

اختارت الرّوائيّة حزامة حبايب[2] مخيّم البقعة[3] في الأردن بيئة لشخصيّات وأحداث روايتها مخمل، إذ تتبّعت من خلال روايتها حياة حوّا بانقِسامها بين الواقِع المُرّ الّذي تجسّد في حَياتِها العائِليّة في المُخَيَّمِ، والواقِع المُرْتَجى الّذي شابَهَ الحُلم في حَياتِها عِنْدَ السّتّ قمر وعلاقتها الأخيرة بمنير، ومن خلال حَياة حوّا أبرزت حُزامى الآفات الاجتماعيّة والنّفسيّة والاقْتِصادِيّة في المُخَيّم، ساحبة الرّمام نحو المُخَيّم بهمومه الاجتماعيّة والإنسانيّة بعيدًا عن عبْء العودة والمُقاومة الدّائِمة، وأحاطَت المرأة باهتمامٍ زائِد لما تتعرّض له من اضطهاد جسديّ ونفسيّ، إذ سلّطت الضّوء على نِسوة المخيّم المتأزّمات

---

1 حبايب، حزامة، **مخمل**، ط 1، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، 2016، ص127..

2 روائية وقاصّة وكاتبة مقالات ومُتَرجِمة وشاعرة فلسطينية حائزة على جوائز، من بينها جائزة محمود سيف الدين الإيراني للقصة القصيرة وجائزة مهرجان القدس للإبداع الشبابي في القصة وجائزة نجيب محفوظ للأدب عن روايتها" مخمل ."بعد أن تخرّجت من جامعة الكويت عام 1987 بدرجة البكالوريوس في لغة إنجليزية وآدابها، عملت في مهن التعليم والترجمة والصحافة قبل أن تحترف الكتابة، حيث صدرت لها أعمال عدة في الرواية والقصة والشعر. وهي عضو في كل من رابطة الكتاب الأردنيين والاتّحاد العام للأدباء والكُتّاب العرب، انظر:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AD%D8%B2%D8%A7%D9%85%D8%A9_%D8%AD%D8%A8%D8%A7%D9%8A%D8%A8 استرجع بتاريخ 22\6\2020.

3 انظر: ملحق (3).

أكثر من رِجال المخيّم الّذين زادوا من اضْطِهاد النّسوة المحيطات بهم وكانوا عونًا لكلّ الإحباطاتِ الّتي واجهتهنّ وسبَبا رئيسِيًّا فيها.

"بجغرافيّتها المُتقشّفة، الصّامِدَة ظاهِريًا؛ بِأثلامِها المُكَدَّسَةِ، ببثورها الّتي تُخَزِّن مياه الصّرف القاتِمة اللزجة، بدمامِلها الرّمليّة الّتي لا تُنكأ إلّا لتتشكّل ثانِية، بالحراشِف التّاشِفة ..."[1] في هذه الأزقّة الّتي تحمل كُلّ أصناف التّعاسة، وفي بيت يُشارك الأزقّة ذات التّعاسة، ويزداد عنها وحشيّة وظلمًا نشأت حوّا بَطلة رواية مُخمل.

لم تنتهِ معاناة اللاجِئين الفلسطينيّين بعد النّكبة، بل تجذّرت في مخيّمات اللجوء وتضاعَفت مع مرور الزّمن، فَعلى اختِلاف تواجد الفِلسطينيّين واجهوا المعضلات الّتي جعلت من الحياة عَسيرة، علّ أبرز هذه المعضِلات مُشكلة الاكتِظاظ والعشوائيّة، فقد تضاعفت أعداد السُّكان في المخيّمات دونَ زيادَة في المَساحَة المُخَصّصة لهم، ما حوّل المخيّم إلى بُؤرَة اكتِظاظِيّةٍ سُكّانيّة، دون إيجاد حلول من الجهات المسؤولة ولا المؤسسات الدّوليّة في التّخفيف من هذا الاكتظاظ الّذي ساهم في تفشّي الأمراض المجتمعيّة والصّحيّة على خِلافها، فتحوّلت قضيّة المخيّمات بذلك من قضيّة سياسيّة إلى قضيّة إنسانيّة يُعاني لاجؤوها في سبيل الحصول على مسكن آمن ولقمة عيش كريمة[2].

نَشأت حوّا في بيت والديها موسى ورابعة، في مخيّم البقعة، في بيت ضيّق تكاد العائِلة تفيض منه، مع ثلاثة أخوات غيرها هُنّ: عفاف وساجدة، وضحى الّتي ماتت في سِنّ ستّ سنوات، وأخوين هما: لُطفي وعايد، تزورهم بين الفترة والأخرى الجدّة نايفة الّتي لازمهم تَسلّطها وقسوتها حتّى وفاتها، في أسرة مُفَكّكة نفسيّا واجتماعيّا تدوسها عجلة الحياة بفقرها وسخطها عاشت حوّا، مُغْلِنة في أكثر من مَشهد أنّ هذا البيت لم يعرف معنى الحُبّ، حتّى أنّ رابعة الأمّ لم تُحبّ أولادها أو زوجها يومًا: "لم تحبّ رابعة خلفتها وحين كانوا يفدون إلى الحياة بأجساد هُلاميّة وأرواح غير مكوّنة بعد، كانت تراقبهم يَكبرون، من بعيد لبعيد"[3].

[1] حبايب، حزامة، **مخمل**، ط 1، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، 2016، ص15.

[2] انظر: تقرير: مخيّمات اللاجِئين "اكتظاظ قاتل وحلول شبه معدومة"، المركز الفلسطينيّ للإعلام، نابلس، https://www.palinfo.com/24466 استرجع بتاريخ: 9\4\2020.

[3] حبايب، حُزامة: **مخمل**، ص238.

المَرْأة في مُخَيّم مُخمل

من خلال تتبّع حزامة حبايب لحياة حوّا ونسوة أخريات في الرّواية كالستّ قمر ورابِعة أمّ حوّا، فإنّها وَضعت إصبعها تمامًا على الهموم الاجتماعيّة الّتي انسحب إليها الفلسطينيّون من همّهم العام، فالحرمان الّذي عاشَه الأطفال في المخيّم الفلسطينيّ ولّد لديهم عُنْفًا يُمارِسونَه في حَياتهم اليَوميّة، نتيجة الكَبت وعدم وجود أماكن لتفريغ الطّاقات الموجودَة لدى الأطفال[1]، هؤلاء الأطفال الّذين صاروا أبطال الرّواية اليوم ذكورًا وإناثًا، حملوا كُلّ ثغرات الطّفولة وندبها وساروا في أزقّة المخيّم، ليورثوا هذه النّدب لآخرين.

عانت شخصيّات المخيّم خاصّة النّسويّة مِنْ هضم للحقوق واضْطِهاد على المُستويات كافّة، منذ طفولة حوّا وهي تعاني من العنف الأسريّ الّذي لم يتوانَ موسى عن ممارسته معها ومع أخواتها، خاصّة حين كانت تُحاول حوّا الدّفاع عن أخيها عايد إذا ما استيقظ صباحًا متبوّلًا على نفسه، تحاول أن تغمر جسد عايد المتقشّف بجسدها اللحيم، الّذي تتبدّى لدونته تحت جلّابيّة النّوم، فتنزل ضربات القِشاط المتطايرة في الهواء على خاصِرتيها وظهرها وأعلى ذراعيها، لتطلع منها مع كُلّ سلخة آهة طويلة تسحبها من وَجع عميق"[2].

شكّل جسد حوّا الضّخم بمقارنة مع أختيها عفاف وساجِدة حماية لعايد، ومحطّ استغلال للعائِلة في أعمال البيت، فهذا الجسد يستطيع تحمّل ما لا تحتمله رابعة والبنتين، وقد انعكس فيما بعد على تَحمُّل روحها: "في النّهار، كان لحم حوّا "يشيل" ويتحمّل ما لا تتحمّله شقيقاتها أو حتّى والدتها؛ فاستُثْمرت بُنيتها القويّة المتينة في كُلّ أغراض السّخرة"[3]، وبسبب هذا الجسد الضّخم الّذي لم تلجمه الملابس فكأنّه انفجر منها، ما كان على الجدّة نايفة إلّا أن تزوّج حوّا في سنّ السّادِسة عشرة دون مَشورة ابنها موسى أو زوجته، وبطبيعة الحال فلم يكن رأي حوّا بالحسبان، فقد زوّجت أختيها من قبلها في السّنّ ذاته، وحين حاولت حوّا أنْ تعترض لأنّ العريس نظمي "سَرسريّ" ولا تريد الزّواج منه: "هجمت جدّتها عليها وجذبتها من جديلتها الثخينة المربوطة جانبيًا، وأوقعتها أرضًا، دفعتها نحو الحائط، مُسدّدة صفعات مُتلاحقة

1 انظر: تقرير: مخيّمات اللاجِئين "اكتظاظ قاتل وحلول شبه معدومة"، المركز الفلسطينيّ للإعلام، نابلس، https://www.palinfo.com/24466 استرجع بتاريخ: 9\4\2020.

2 حبايب، حُزامة: **مخمل**، ص24.

3 **المصدر نفسه**، ص30.

على وجهها، حتّى نَزفت من أنفها، ثمّ تناولت فردة شبشب الوضوء وانهالَت عليها"[1]، دون إمكانيّة تدخّل والدها موسى أو رابعة الّتي اكتفت بشعور المغصِ مُتفادِيَة أن تلتَقي عيناها بعينيّ ابن نايفة.

ومن جور موسى الجسديّ والتّحرّش الدّائِم ببناته وصمت الأمّ وعجزها عن أيّة ردّة فعل، انتقلت حوّا إلى بيت أكثر قسوة، انتقلت مُرْغمة على الزّواج بنظمي الّذي كان يعمل في ملحمة العجّوريّ في سوق المحيّم، يكبرها بثماني سنوات، يقضي يومه في بيع اللحوم والتّهرّب من مُفتّشي الصّحّة وبثّ الرّعب في نفوس الأطفال وتخويفهم برؤوس العجول المَقطوعة، والتّحرّش بالنّسوة اللواتي يأتين للشّراء، لم تكن حياة حوّا في بيت نظمي أكثر هناءً فقد تزوّجته مرغمة وهي تحمل حُبَّ مُراهَقة عفويّ لمراد بائع أسطوانات الغاز، الّذي كانت تلتقيه في بيت الستّ قمر.

كسرت نايفة بقرارها قلب حوّا وروحها، وأكمل نظمي تهميشها، فقد أهان روحها وجسدها وأنوثتها واستغلّ عملها عند الستّ قمر كما فعل موسى من قبله، فكأنّه امتداد له، حتّى إذا عاش معها عشرين عامًا طلّقها ليتزوّج فريحة، امرأة مطلّقة أغوته بجسدها ومالها، وهو الّذي لم يتوانَ لحظة عن استغلال حوّا، حتّى عندَ إيوائِها لجدّتها نايفة طلب من لُطفي الأخ الأكبر لحوّا مقابلا ماليّا لهذه الاستضافة، يأخذه هو وتعمل حوّا مُقابِلَه.

"ثمّ زمّ فمه وعضلات وجهه، وركلها بقدمه بعنف، فطاحت على الأرض: انقلعي من هونّ قال لها: واستدرا إلى الجهة الأخرى ونام"[2]، بهذا التّعامل استهلّت حوّا حياتها الزّوجيّة وختمتها مُطلّقة مُعَنّفة مُسْتَغِلَّة، إلى أنْ أتى منير وأشرع لها أبواب الحُبّ والدّفْء طارِقًا بابها للزّواج بعد أشهر قليلة من تعارُف طُفوليّ بريء بينهما، وحين فاتَحت حوّا أخاها عايد وابنها قيس برغبة منير "أبو ليلى" بالزّواج منها قوبل الطّلب بالرّفض، إذ تُعتبر حوّا مورِدًا مادِيًّا أساسيًّا للاثنين، فهما يستغلانها أبشع استغلال، فعلاوة على تسديد حوّا الدّائِم لديون عايِد عِند اللحام والبقالة وغيرهما، فيداهما لا تكفّان عن المدّ لطلب المال من حوّا بين فترة وأخرى.

رغم فائِضِ التّضحيَة والاحتواء الّذي قدّمته حوّا لكلّ من حولها ها هي تُقتل في الخِتام على يد ابنها قيس بتحريض من أخيها عايد الّذي كانت تتلقّى عنه ضربات قِشاط والدها في الطّفولة حين يُبلّل فراشَه ليلًا؛ بحجّة تطهير شرف العائِلة، لأنّ حُبّ حوّا لمنير ورغبتها في الزّواج تدنيس لشرف عائِلة لم تَذُق يوما لذّة الحب: "تنظر إلى قيس،

---

[1] حبايب، حُزامة: **مخمل**، ص72.

2 **المَصدر نفسه**، ص83.

تراه واقِفًا، وجهه كأنّه ينضح ماء، يده تقبض على مُسدّس أسود صغير، تنزلق يدها فوق بطنها، تغوص في سائِل ثخين، تفتح كفّها، فترى دمًا أغزر كثيرًا من الدّم الّذي ينفِر من أصابعها الّتي تشكّ بالإبر والدّبابيس ... تشهق، ثمّ تتداعي، وتنطفئ"[1].

نضحت المنازل الّتي عاشت بها حوّا – منزل موسى ومنزل نظمي – بالسّلبيّة والقهر والقمع، هذه الأوصاف الّتي انعكست على حَوّا ونسوة البيت، وعزّزت عند ذكوره الجبن والاستغلال كعايد وقيس، والعنف كموسى ونظمي والانزواء كلطفي، ولم تسلم واحِدة من النّسوة من هذه التّنائِج فكما تعرّضت حوّا للتّحرّش الجِنسيّ من والدها والاستغلال والعنف منه ومن غيره فقد تعرّضت عفاف وساجِدة إلى ذات التّحرّش والعنف، وإن كان بنشبة أقلّ من حوّا؛ إذ قرّرتا الانعزال عن المحيّم وتفاصيله بعد زواجهما، وألّا يتواصلا مع متعلّقات حياتهما الماضية إلّا للضّرورة وبعبور يكاد لا يُلْتَفت إليه: "انقطعت عفاف وساجِدة عن الحياة الّتي عرفتاها في المحيّم بعد الزّواج، وإنْ حدث وزارتا والدتهما مضطرّتين، حدّ أن تكونا مُكرهتين أحيانًا، في المناسبات القهريّة وفي الملمّات خصوصًا، جلستا في طَرف المكان، وتكلّمتا في حواف الموضوعات وأكلتا القليل جِدًّا مِمّا يُقدّم لهما، وظلّ عيالها الكثر ملتصقين بهما، دون أن تسمحا لهم باستكشاف بيت المحيّم والمحيّم نفسه"[2]، إذن لم تكتفيا بالانسلاخ عن المحيّم، بل وبسلخ أبنائِهما عنه، كأنّه ورم خبيث تُريدان استِئصاله كي لا يتفشّى في عائِلتيهما.

شاركت الأمّ رابعة بناتها القمع والسّلبيّة، فمنذ زواجِهما بموسى وهي ابنة الخامِسة عشرة؛ لأنّ والدها الوحيد الّذي قَبل بأن يُزَوِّجه، وهي تعيش قحْطًا عَظيمًا على الصّعيد النّفسيّ والجسديّ، انسحبت من الحياة بشكل شبه كامل في البدايَة، فلم تَكن تبدي أيّ ردّة فعل اتّجاه الأحداث الحاصِلة، كانت تنظر إلى مُكوّنات الحياة حولها نَظرة المُتَفَرّج الّذي لا يمتُّ بِصلَة للأشياء، فموسى يَضرب عايِد وحوّا، ويتحرّش ببناتها، ونايفة تزوّج البنات لمن تختار، وعايد ينتقل من فشل إلى آخر، وهي تكتفي بالنّظر، ويزداد الغضب داخِلها، وحين مات موسى تحوّلت إلى شبح يمشي في البيت بجسدٍ زائِغ تميل في سيرها، تسترجع قسوة الحياة وقسوة موسى الّذي مات هكذا، دون أن تستردّ رابعة أدنى حقولها منه، حقّ الإنسان على الإنسان في المحبّة والاحترام والاحتواء، حتّى أنها تمنّت – كما بناتها – موته دوما، وعاتبت

[1] حبايب، حُزامة: **مخمل**، ص355.

2 **المصدر نفسه**، ص203\204.

القدر لأنّه مات متأخّرًا: "لماذا لم يمت من قبل؟ تساءلت رابعة، فبهتت حوّا، لُطفي؟ معقول يمّة؟ لكنّ رابعة أدارت عينيها الطّافيتين في دموعها بعيدًا عنها قائِلة: موسى!"[1]

لِحِقَهُ في موته – بعد سنوات قليلة – لُطفي، هذا الموت الّذي أكل روحَ حوّا وعينيها لتنسَحِبَ على إثره انسِحابًا كامِلًا من الحياة، إذ أصابتها جَلْطة عنيفة شَلّتها وعَطّلت نِصْف حواسها، فانتقلت لتعيش عِنْدَ حوّا الّتي اعتادَت أن تعتنِيَ بالجميع إن احتاجوها، فمن قَبْل أمّها اعتنت بجدّتها نايفة: "بعد ثلاث سنوات من رحيل نايفة، كانت حوّا لا تَزالُ تحتَفِظُ بسريرِها الطّبيّ، وحين مدّدت رابعة فيه، صارَت تنتَظِر موتًا قد يهلّ قريبًا"[2].

أخفت نايفة خلف الصّورة الوحشيّة الّتي كانت تبرزها روحًا مُهَمَّشَةً ونَفْسًا مُنْكَسِرة، عاشَت نايِفة طفولتها في بيت محسير بالقرب من القدس، ساعدت أباها ذا السّاق الواحِدة – إذ بترت زوجته حوّا ساقه الثّانية كي لا يذهب إلى الجيش – في بناء بيتهم في القرية، بعد قَتل أشقّائِها السّتّة؛ نصفهم على يد الإنجليز ونصفهم الآخر استشهد في اشتباكات مع العصابات الصّهيونيّة، نقلت نايفة حجارة البيت والسّلسلة الصّخريّة، وتزوّجت نايفة نمر وانتقلت للعيش في قرية شحمة قضاء الرّملة، وساعَدت نمر في بناء بيت لهما، إذ كانت تجبل له الإسمنت وهي حُبلى ببكرها، ومع النّكبة نزحت مع زوجها إلى مخيّم الفارِعة في نابلس، ومع النّكسة نزحت مع أبنائِها موسى وعيسى وخليل وعائلاتِهم إلى مخيّم البقعة على الضّفّة الأخرى، لتمتهن صناعة الجبنة النّابلسيّة، هذا الشّتات الدّائِمُ ولّد وَجْعين لنايفة وإن كانت عتيّة منيعة عنيفة حتّى آخر يوم لها في بيت حوّا: "فإنّها مُهَمّشة من الدّاخل، لقد انكَسَرت نفس نايفة في مُخَيَّمِ الفارِعة، ثمّ انسَحَقت تمامًا في مُخَيّم البقعة، فعاشَت ما تبقّى من عمرها امرأة ناقِمة، غاضِبة، وشرسة"[3].

بهذا المرور على نِسوة المخيّم يظهر أنّهنّ في مجمل الخِطاب السّرديّ لسنَ سِوى ضَحايا تَكْوينهنّ الجندريّ، فهنّ نتاج العنف النّاتِجِ عنِ الاضْطِراب الّذي نجم عن ظُروف سِياقيّة تتّصل بالاقتلاع، والعالم الّذي يتداعى في وجه الكائِن الفِلَسطينيّ، وظروف أخرى تتعلّق باليوميّ والمعيشِ، أو نواتِج وممارَسات اجتماعيّة وثقافيّة واقتِصادِيّة، فمعظَم الدّراسات تُشير إلى أنّ التّحرّش الجِنْسِيّ مُرتبط بالاكْتِظاظ والفقر دونَ إسقاطِهِ عن الطّبقات الغنيّة الّتي تُمارِسُهُ في الخَفاء، وبسبب عدم الجزم بوجود علاقة بين اكتِظاظ المخيّم والتّحرّش الّذي مارسه مُعظم ذكور المخيّم وعانت منه معظَم نِسوته،

---

[1] حبايب، حُزامة: **مخمل**، ص273.

[2] **المصدر نفسه**، ص241.

3 **المصدر نفسه**، ص121.

فنُرَجّح أنّ حبايِب سعت في هذا الطّرحِ إلى الوُلوجِ إلى العوالم الدّاخليّة لوجود قائم ومُتشَكّل في فضاء المخيّم، الّذي كانت تسعى حوّا للخروج منهُ سعيًا إلى الخَلاصِ الرّوحيّ والمكانيّ، إنّه بسيط، ولكنّه أبعد ممّا نتوَقّع[1]، فكيفَ سعت حوّا للخلاصِ الرّوحيّ والمكانيّ؟

شكّلت السّتّ قمر "عرّابة حوّا" الضّوء الّذي تَراهُ حَوّا في آخر النّفق الّذي تَحياهُ في مُخَيَّمِ البَقعَةِ، والقيمَة المُؤَجّلة لمعنى الحَياة، فقد عاشَت في بيت السّتّ قمر أمنياتها وأحلامَها الّتي داسَت عليها أزقّة المُخَيَّمِ وجرفتها سيوله الّتي لا تتوقّف، فقد صارَ لِحَوّا مرجعيّة روحِيَّة من خِلالِ اقتناصِ تفاصيل صَغيرة من الحَياةِ اليوميّةِ مليئَة بالحُبّ والرّقّة، بدْءًا من أمنياتِها بأنْ تَكونَ السّتّ قمر أمّها إلى تِلكَ الصّباحات الّتي مَكَثت في وَعْيِها مَع صَوت فيروز وشاي الصّباحِ وسَجائِرِ السّتّ قمر، إلى حُبّها الفِطْرِيّ الأوّلِ لمراد، وتعلّمها الخِياطَةِ وأنواع الأقمشة، وتغزّلها بالمُخْمَلِ في أشَدّ درجاتِهِ حُلُكَة، عُبورًا بطقم روميو وجولييت، وُصولًا إلى اكتِشافها الأوّل لجمال وقيمة جسدها واحتِرامها له، استطاعت السّتّ قمر بهذه التّفاصيل الإنسانيّة أن تُؤَثّث للحبّ في روحِ حوّا الّتي تطبّعت بأجمل تفاصيل السّتّ قمر وتعلّقت بها؛ لِتُحاوِلَ فيما بَعْدُ – بعدَ أن وَرِثت منها شنطة أشرِطَة أغنيات فيروز– أن تُسْقِطَ حياة السّتّ قمر وطِباعها على بَيْتِها في المُخَيَّمِ، لتعيشَ في المتخَيَّلِ الّذي شكّلته كي لا يبتلعها الواقِع الّذي تَحياه.

كما كانَت لنسوة المخيّم معاناتهنّ فقد كانت للسّتّ قمر معاناتها الخاصّة، فقد جاءَت الحَسْناء الدّمشقيّة اليتيمة من الشّام؛ لتقيم مع خالتها المُسِنّة في إربد، عمِلت في الشّام لدى آرتين أشهر مصمّم وخيّاط أرمنيّ في دمشق، وقد حملت كُلّ ما تعلّمته معها، فطرقت النّسوة باب خالتها ليرين أصابعها الرّشيقة تحوّل الأقمشة إلى قِطع فنّيّة، وطرقَ الرّجال الباب ذاته مساءً طالِبين يدها للزّواج، لكنّها رفضت كلّ الطّارِقين ورضيت بـ "أبو زيد" الّذي كان يكبرها بأكثر من خمسة وأربعين عامًا، وله من الأحفادِ اثنتان وثلاثون، هام الشّيخ بها حتّى سمّاها "قمري"، كان أبو زيد حانيا عليها مُحِبًّا لها مُهَدِّئا روعها في كوابيسها الّتي رافقتها مُنْذ أنِ اعتدى عليها قاسِم بيك أحد المسؤولين العَسْكَرِيّين في دِمشق، حالِفًا لها أنّه لن يُصيبها مكروه بعد اليوم.

توفّي أبو زيد، وقررت السّتّ قمر الرّحيل عن إربد حامِلَة من أثر هذا الزّواج طقم زجاج ماركة روميو وجولييت، مُؤَسِّسَةً لحياة جديدة تعمل فيها بالخِياطَةِ وتحيا على ذِكْريات تنقَسِم بين حُبّ الشّيخ الّذي عَوَّضَ غِياب الأهل، وبين

1 انظر: أبو شهاب، رامي: **رواية مُخمل لحزامة حبايب انكسار الأنوثة، تقاطع الذّات والوطن**، القدس العربيّ، 10\14\2019.

انكِسار الرّوح والجَسَد في ذاكِرة اعْتُدِيَ عليها وعلى جَسَدِها، عَمِلَت حَوّا عِنْدَها لِفَتْرَةٍ طويلَة قبل زواجِها من نَظْمي وبعد زواجِها، اهتمّت خلالها السّتّ قمر بتهذيب روح حوّا وذوقِها وجسدها، فلم تكن السّتّ قمر امرأة عادِيّة أو كتلك النّسوة اللّاتي عرفتهنّ حوّا في حياتها، فقد كانَت السّتّ قمر: "تمتلك خاصِيَّة الاحتلال الطّوعيّ للصّورة، فتبرز داخِلَ الإطارِ بِجَلاءٍ فيما تتحَوّل كُلّ التّفاصيل حَولها إلى غَبش أو عَناصِر مُعَزَّزَة لحضورِها في أفضل الأحوال، بل لم تكن تكتَفي بأنْ تَكونَ مُفردة بارِزة في الصّورة، أيّ صورة، وإنّما تمتلكها، فتصبِح هي الصّورة"[1].

عاشَت قمر وحيدة بعد وفاة "أبو زيد" وانتقالها إلى عمّان إلّا من حوّا الّتي تعمل عندها والنّسوة اللواتي يطرقن بابها لِخياطَةِ أثوابهنّ، إلى أن اقتحمَ بابها غسّان مع اندلاع أحداث أيلول ومُطاردة الجيش الأردنيّ الفدائِيين في الشّوارع والمخيّمات، وكانَ غَسّان من هؤلاءِ المقاومين، اختبأ عند السّتّ قمر مُدّة أسبوع، تآلفا خلاله، تبادلا تفاصيل حياتهما، تشارَكا في المعيشة وفي الفراشِ بعدَ أن وَقَعا رهن الغريزة والحبّ: "كانت تُريد أن تمتلئ به، أن تأخذه فيها فلا تلفِظه، حتّى إذا غادَرها جسده أخيرا، كان نبضه قدِ انغرس في قلبها:

- خلّيك!
- رح أرجعلك.
- لا تتأخّر عليّ"[2].

عاشَت مُنْتَظِرة عهد المُقاوِم بالعودة إليها، تحمّلت سوء التّحقيق معها بسبب تخوّفات جارَتها شَهلا الّتي قلقت عليها فأخبرت الجِهات المَسْؤولة عن شُكوكها باقتِحامِ فدائِيّ بيت السّتّ قمر، نامت ليالِيَ طويلة في الغرفة المنفردة الّتي نامَ بها غَسّان، حاضِنة إطارَ صورة الطّفلة، لتموتَ على هذهِ الهَيْئَةِ، حالِمَة مُنْتَظِرَةً: "يا سِتّ قمر! اصحي، الله يخلّيك اصْحي! عشاني اصْحي! كانت السّتّ قمر قد انْطَفَأت تمامًا"[3].

---

[1] حبايب، حزامة: **مُخمل**، ص60.

[2] **المصدر نفسه**، ص283.

[3] **المصدر نفسه**، ص290.

الرّجل في مُخَيّم مُخمل

لم يتوقّف امتداد المخيّم عندَ أبعادِهِ السّياسيّة الّتي نَشَأ بسببها، وإنّما خلّف أبعادًا اجتماعيّة مَرَدّها الاكتِظاظ وَتَلاصُق منازل المخيّات، إذ حُرِم المُواطِن من الخُصوصيّة، فازدادت المَشاكِل العائِليّة والاجتماعيّة[1]، هذه المشاكِل الاجتماعيّة الّتي تحوّلت إلى آفاتٍ أخلاقيّة شَوّهت صورة المُخَيَّمِ في عينيّ أبنائِهِ اللاجِئين قبل عيون من هم خارج حدوده، فامتاز رجال المخيّم إذا ما استثنينا منير ولطفي بالفلتان الأخلاقيّ، فهم إمّا متحرّشون أو مُسْتَغِلّون أو مُعَتّفون، بِدْءًا من موسى الّذي كانَ في مُراهَقَتِهِ وَشَبابِهِ يتحرَّشُ بالأطفالِ من بَناتِ وأبناءِ الجيرانِ فوقَ سَطحِ بيتهم، وقد اكتَشفت أمره نايفة وأسْقَطته من فوق السّطح وزَوّجته بعدها رابعة، الفتاة الوحيدة الّتي قبل والِدها أن يوقعها في شركه، تطوّر تحرّشه إلى زوجٍ مُعَنِّف مُهينٍ لجميع أفرادِ أُسْرَتِهِ، مُتَحَرّشٍ ببناتِهِ، اللواتي سَيُضربن ضربًا مُبْرِحًا إن رَفَضَت إحداهُنَ الانْصِياعَ لتحرّشه: "كانَ موسى يتسرّب من فراش رابِعة إلى الغرفة الّتي تستلقي فيها البنات أرْضًا على فَرْشاتٍ هزيلَة ... كانَتا في الخامِسَةَ عشرةَ والرّابِعَة عشرة حينَ سَقَطَ والِدهما فوقَ لَحْمَيْهِما تِباعًا"[2]، وبعد زواج عفاف وساجِدَة همّ بالتّحرّش بحوّا، ليلًا يتحرّش ببناته ونهارًا ينهب ما يحصل عليه لُطفي والبنات من أعمالِهم عن طريقِ رابعة.

أورَثَ موسى ابنَه عايِد الاسْتِغلالَ والتّحرّش، فزيادَة على أنّ عايِد "شَحّاخ" فضحته زوجَته أسمى وكسرت نفسه أمامها، فهو لا يثبت في عمل؛ بسبب تحرّشه أو استغلاله لمكان عمله: "وحينَ كثرت شَكاوى البَنات منه، وبَعْضُهنّ كُنّ يبصقنَ في وَجهه حينَ يُحاكِمهنّ، أو يمسّ صدورهنّ بكفّه مُدّعيًا المَيلان المُفاجِئَ حدّ السّقوط عندَ توقّف الحافِلة فجأة، حمله طالب جامعيّ من بلوزته ... وألقاه من الحافِلَة"[3].

صمد عايد عند "أبو عبادة" ما يقارب الثّماني سنوات يعمل في ساحة السّيّارات، يسرق من السّيّارات أكثر مم حراسَتها، مطبقا المثل "حاميها حراميها" فتارة يسرق نقودًا معدنيّة، وأخرى عبوة ويسكي وثالثة شريط فيديو جنسيّ وأخيرًا أربعة أكياس بودرة كانت تعود ملكيّتها لـ "أبو عبادة" الّذي أرسل له رِجالًا يطعنوته ويأخذون منه الأكياس، وعلى إثر هذه الحادِثة ترك العمل ولزم الفراش لأشهر، منتقلًا أخيرًا للعمل على سيّارة أجرة، ساحِبًا قيس بن حوّا إلى خِصالِهِ

1 انظر: تقرير: مخيّمات اللاجِئين "اكتظاظ قاتل وحلول شبه معدومة"، المركز الفلسطينيّ للإعلام، نابلس، https://www.palinfo.com/24466 استرجع بتاريخ: 9\4\2020.

2 حبايب، حُزامة: **مُخمل**، ص123.

3 **المصدر نفسه**، ص206.

وَطَبائِعِه، ووسَطَ كُلّ هذا لم يتوانَ عايِد عن استغلال حوّا والاقتراضِ الدّائِم من دونِ إعادَةِ شَيْءٍ، بل كانَت تَسدّ ديونه وَتطهو له والدتها الطّعام، لكنّ هذا العَطاء لم يِشفع لها ولم يمنحها موافقتها على زواجِها من منير، بل كانَ ردّ الجمائِل القتل.

لم تَملك حوّا وجهة أمان ذكوريّة، فوجهاتها الذّكوريّة إمّا معنّفَة أو متحرّشة أو مُستغِلّة، إذ إنها مليئة بالتّوتر والخوفِ كعلاقتها بمنير، أو تُفْتَقد في بداياتها فلا يُثمر عنها إلّا راحة مؤقّتة ومشاعر تنضح بالاكْتِشاف الأوّل كعلاقتها بمراد صبيّ الغاز في بيت السّتّ قمر، العلاقَة الّتي بُتِرت بزواجها من نَظمي، وبقيت حوّا تلجأ إلى مُراد خيالا؛ هروبًا من فَظاظَةِ وقسوة نَظمي.

أجبرت الجدّة نايفة حوّا الزّواج من نظمي بعد ضرب مُبرح أنهته الجدّة بتحديد مهر حوّا وهو أربعمئة ليرة، ولم يكن قرارها قابِلًا للنّقاشِ، تزوّجت حوّا نَظمي في بيت مُسْتَأجَر في مُخَيّم البقعة بينَ بيتيّ الأهلين: "كانَ البيت منخفِضًا عن مستوى الطّريق"[1]، وهذا الانخفاض رافقه عدميّة في الإنسانيّة والحُبّ والدّفْءِ، فإلى جانِب رفضِ حوّا التّفسيّ والجسديّ لِنَظمي وهروبها منهُ إلى خيالات تمنّتها، فقد عنّفها نَظمي وأهانَها، وحينما حاوَلت أنْ تتمرّد في واحِدَةٍ من أصعب الحوادِثِ الّتي مرّت بها قامَ بِضَربها، فقد أصيبَت بهرشٍ شديدٍ حَدّ النّزف، وكلّما شكت لهنّ "البقّ" يجتاح الفِراش استنكر واتّهمها بالوسوسة، ثمّ ضربها، عِنْدَها قررت أنْ تَخْرِقَ السّريرَ والفِراشَ في ساحَةِ تَجميعِ الزّبالة في المُخَيّمِ؛ لتتخلّصَ من "البقّ" وتتمرّد على المهانة الّتي يمارِسها معها نَظمي، ورغم الضّرب المُبرح الّذي نتج عن الحادِثة إلّا أنّها كانَت راضِيَة تمامًا، تلا ذلكَ أحداث كثيرَة من عنف وإهانةَ حتّى أنّ نظمي في إحدى المرّات ركلها ركلة تَسَبّبت في إجهاضِها.

عاشَت حوّا مع نَظمي عشرين عامًا، محتملة استغلاله وعنفه وانتهاكَه لجسدها دون أدنى شعور بالألفة، بل بمشاعر تنضح قرفًا منه، طلّقها بعد عشرين عامًا مخلّفا له آية وقيس، ليتزوّج من أرملة تَكبره بخمس سنوات تعدّدت زيجاتها وطلاقاتها، اسمها فريحة؛ طمعًا في مالها: "لم تبكِ حوّا لأنّ نظمي طلّقها بعد عِشرين عامًا من اقتِيائِهِ على روحِها ... بكت

[1] حبايب، حُزامة: **مُخمل**، ص 80.

لأنّ الأشياء الجَميلَة تَأتي مُتَأخّرا"[1]، حاول نظمي العودَة لحوّا بعد ثلاث سنوات من الطّلاق مُستذلًا مُدّعيًا الشّوق لبيته؛ لكنّها قطعت طريق العَوْدَة في وَجهه "هاظ مَعَدْش بيتك"[2].

الأشياء الجميلة تأتي متأخّرًا، وهكذا حضر منير، متأخّرًا في خريف العمر لكنّه استطاع أن يمنح حوّا مواسم من الحبّ، حلمت معه بالبيت والحاكورة الصّغيرة المُسَوّرة وأشجار الليمون والتفّاح والتّين والعنب والمشمش والخوخ، حلمت بأن تعيش معه قصّة حبّ كقصّة درّة عينِ فارِس، أغرِمَ مُنير بها وبادَلَته، التقت بهِ مَرّات عديدة خِفية، إلى أن نضج الحبّ بينهما ووصل شوقهما إلى قرار الزّواج، ابتلعتها دوّامة خوف جديدة، لاحتمالات رفض عايد وقيس زواجها من منير، الّذي تحوّل من رفضٍ عادِيّ إلى قتل قيس لأمّه بتحريض من خاله عايد؛ حفاظًا على شرف العائلة.

زخر المخيّم بالآفات الأخلاقيّة، فلم يعُد بوصلة للمقاوَمة والدّعوة الدّائِمة إلى التّحرير والعودة إلى أرض الوطن، وكأنّ المُخَيَّمَ صارَ هُوَ الوطن، فامتلأت أزقّته بالتّحرّش وسِفاحِ القُربى والعنف، وبرز إلى السّطح الفلتان الأخلاقيّ والتّستّر بالمقاوَمة والدّين، فانْكَسَرت صورة الدّين والمُقاومة، وقد مثّل "أبو عبادة، عبد الرّحمن شاهر" هذا الانشطار بعد عودته مع مجموعة من المجاهدين بعد معارك خاضوها في أفغانستان، فقد تزوّج بداية أمّ براءة مديرة مركز الإناث وهي أرملة لديها ثلاثة أبناء، وبعدها تزوّج الواعِظَةَ أمّ حنين وهيَ مطلّقة ولها ابنتان، وأتبعهما بسنوات بسلاف ابنة الثّامنة عشرة، وما بينهم أحضر زوجته المِصريّة إلى المخيّم[3]، لتكشف الرّواية – فيما بعدُ – أنّه ليس مِزواجًا فحسب بل تاجِر مُخَدّرات؛ وبذلك كُسِرت صورَة المُقاوِمِ ورجل الدّين في آن.

لم تَتّضِح ملامح المقاوَمة في مُخَيَمِ البقعة، ومرور الفِدائِيّ غسّان كانَ مُؤْنِسًا أكثر مِنْهُ مُقاوِمًا، فقد تعرّفنا على وجهه الإنسانيّ وعلاقته بأمّه وأبيه وحبّه الأوّل، ليَقَع ثانيَة في حُبّ عابِرٍ مع السّتّ قمر ويقيم معها علاقَة يغادِرها بعدها على وَعْدِ أن يعود، فَتُكمل هي حياتها بانْتِظاره وهو يغيب تمامًا عن المشهد، وقد طرحت حبايب صورة مغايِرة للفدائِيّ، فبينما كانَ الفدائِيُّ قدّيسًا أسطوريّا في عيون أبناء المخيّمات كما برز في أمّ سعد والعُشّاق والخال عمران في ماءِ السّماء، كان الفدائِيّ في رواية مخمل ملاحَق من المخابرات الأردنيّة، ويُشتَم ويلعن من الشّعبِ، فَشَهلا جارَة السّتّ قمر تختتم

1 حبايب، حُزامة: **مخمل**، ص 296.

2 **المصدر نفسه**، ص 304.

3 انظر: **المصدر نفسه**، ص 144\146.

كلامها معها بعد تحقيق مُطَوّل وتتبُّعٍ لأخبارها وإنْ كانَ أحدُ الفدائِيّين وصل عندها: "سَكري الباب عليك منيح! هذول الكلاب صاروا يدخلوا البيوتّ"[1].

كَيْفَ خُتِمَت رِوايَةُ مُخْمَل؟

لم يَشْفَع خريف العمر البهيّ لحوّا في حُبّها لمنير وأحلامِها بحياةٍ ورديّة بأنْ تَختتم العمر في مخيّم البقعة بمسرّة، بعد ضنك الحياة الّذي عاشته، بل كانت خاتِمتها استكمالا لمسيرة حياتها بالمهانة والوجع، لتختتم الرّواية بأكثر المَشاهد مأساوِيّة وهي مقتل حوّا على يديّ قيس ابنها الّذي قدّمت له كُلّ ما تملك، بتحريض من أخيها عايد الّذي عاشت عمرها بين تنظيف بوله وشخاخه وغسل فراشه إلى تسديد ديونه وإطعامه في مراحل عمره المتقدّمة، وعلى الجانب الآخر، انتكاسة منير وتأزّمه وانزوائِه عن الجميع بعد مقتل حوّا، هكذا كانَ جزاء معروف العمر!

1 حبايب، حُزامة: **مخمل**، ص 276.

عَلاماتٌ فارِقَةٌ لِتمثيلات المُخَيَّمِ بعد أوسلو

بعد عرض نماذج الدّراسة الرّوائيّة الأربعة لا بدّ منَ الوقوف عنْدَ أهمّ العلامات الفارقة لتمثيلات المخيّم في الرّواية الفلسطينيّة بعد أوسلو، تبعا لعيّنة الدّراسة الّتي قد تُوافق العديد من الرّوايات الفلسطينيّة بعد الاتفاقيّة وقد تتعارض مع القلّة القليلة، لكن قبلَ الوقوف على هذه العلامات الفارِقة، لا بدّ من الوقوف عند أهمّ المفاصل التّاريخيّة السّياسيّة ما بعد توقيع اتّفاق أوسلو، الّتي بطريقة ما أثّرت على القضيّة الفلسطينيّة في مختلف تفاصيلها، فما أهمّ الأحداث السّياسيّة الّتي وقعت بعد اتّفاق أوسلو؟

علّ أبرز الأحداث السّياسيّة على السّاحة الفلسطينيّة بعد توقيع اتّفاق أوسلو قيام سلطة على جُزء من دَولة فلسطين، الّتي تمخّض عنها تغييرات في العلاقات الفلسطينيّة الإقليميّة والدّوليّة، تحديدًا مع إسرائيل والولايات المتّحدة الأمريكيّة، بعد اعترافها بـ م. ت. ف، لكن دون أن ينجم عن هذا الاعتراف الإقرار بحقّ الشّعب الفلسطينيّ في تقرير المَصير والعودة، أو الإقرار علنًا بحقّه في دَولة مُسْتَقِلَّةٍ[1].

لم يختمر هذا السّلام بعد حتّى استيقظ الفلسطينيّون بتاريخ 25 شباط 1994 في فجر أحد أيّام رمضان على مجزرة الحرم الإبراهيميّ الّتي قامَ بها باروخ جولد شتاين، في إشارة صريحَة أنّ لا سَلام بين الطّرفين، وتوالت الأحداث السّياسيّة فيما بَعْدُ الّتي صُعِّدت معها ردّات فعل الشّارع الفلسطينيّ، فكَانَ توقيع اتّفاق وادي عربة 26 تشرين أوّل 1994 بين الأردن وإسرائيل، تلاها بعامٍ اغتيال الموساد لفتحي الشّقاقيّ 26 تشرين أوّل 1995، المثَقّف الإسلاميّ المُسْتَنير، ليقوم يغئيل عامير بـ 24 تشرين الثّاني من العام ذاته باغتيال إسحق رابين[2]، وهكذا توالت الأحداث تِباعًا وصُعّدت من الطّرفين الفلسطينيّ والإسرائيليّ، في قرار ضمنيّ برفض أو عدم جدوى أيّ اتّفاق سَلام؛ فما أخِذِ بالقُوّة لا يُستردّ إلّا بالقوّة.

لا سِلم يظهر في الأفق وما وُقِّع على الأوراق لم ينفّذ على أرض الواقع تماما؛ إذ تأزّمت الأوضاع فيما بَعْدُ، فكانت انتِفاضَة الأقصى عام 2000 الّتي اندلعت احتِجاجًا على زِيارة وزير الدّفاع الإسرائيلي أريئيل شارون إلى باحَة المَسْجِد الأقصى، تَلاها حِصارُ رام الله وحِصار الرّئيس الفلسطينيّ الرّاحل ياسر عرفات في مقرّه، ومن ثمّ إقامَة جدار الفصل

---

[1] انظر: هلال، جميل: **النّظام السّياسيّ الفلسطينيّ بعد أوسلو "دراسة تحليليّة نقديّة"**، ص75.

2 انظر: الشّرع، فاروق: **الرّواية المَفقودَة "مذكّرات وشهادات"**، ط2، المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات، قطر، 2015، ص334.

2002، الّذي لم يلتزم خطّ وقف إطلاق النّار لعام 1967، وضمّ الكثير من الأراضي الفِلَسْطينيّة لإسرائيل[1]، ولم تأخذ السّاحة بعد ذلك استراحة من الاشتعال، إذ اغتيل أحمد ياسين مؤسس حركة حماس وقائِدُها وبعد بما يقارب الشّهر خَلفه عبد العزيز الرّنتيسي وسمّم الرّئيس ياسر عرفات، ففقدت فلسطين ثلاثة من قاداتها في عام واحد 2004، لتدخل البلاد عهدًا جديدًا وتضييقًا إضافيّا خاصّة بعد فوز حماس بانتخابات عام 2006، الّتي سبّبت شرخًا إضافيّا بين فتح وحماس أدّى إلى انقِسام بارز في الشّارع الفلسطينيّ، أُلْحق هذا الفوز الحمساويّ بعدد من الحروب على غزّة، كون حماس عزّزت قبضتها على القطاع واستلمت حكومته، وإسرائيل من جانبها شدّدت الحصار عليه، لتكتمل الحلقة بإغلاق مصر لحدودها مع قِطاع غزّة، فصار تبعا لذلك في فلسطين حُكومتان، حماس في غزّة وفتح في الضّفّة الغربيّة.

لم تجرِ المياه لا في غزّة ولا في الضّفّة جريانًا هادِئًا، وتبعتها القُدس في إعلانِها انتِفاضَة جديدة بعد انتِفاضَة الأقصى الّتي لم تَخْتَفِ مَلامِحها، فكانت انتفاضَة أو هبّة السّكاكين عام 2015، الّتي ما زالت مستمرّة حتّى اليوم، فلا سِلم ولا سَلام إلّا على الأوراق، ويبدو أنّ حِبرَ السّلام بَهُتَ وَجَفّ.

كُلُّ هذه الأحداثِ وغيرها مِمّا لم يَتّسع ذكره أثّرت بشكل مُباشر على الحَياة السّياسيّة والاقْتِصاديّة والاجتِماعيّة على الفِلَسْطينيّين في فِلَسْطين أو الشّتات في المُدن والقرى أو المخيّمات، الأمر الّذي انعَكَس جليًّا على الخِطاب الرّوائِيّ الفِلَسْطينيّ، وهنا يأتي التّساؤُل الأساسيّ:

بَعْدَ كُلِّ هذهِ الأحداثِ والمؤثّرات السّياسيّة الّتي تأثّرت بها الرّواية الفلسطينيّة، ما هي العلامات الفارِقَة لتمثيلات المخيّم في رواية ما بَعد أوسلو؟

1. غياب البَطَلِ المَركزيّ عَنِ المَشْهَدِ والتّعويضِ عنه بمجموعة شَخصِيّات تنازِعُه البطولة، وتساهم في تكوين أحداث الرّواية بمحاذاته، وتتنَوّع في بُطولاتِها، كما سَيأتي تفصيله فيما بعد.

2. تعدّدت أنماط البُطولَة في الرّوايَة بعد أوسلو، فظَهر البَطَلُ المُثَقّف الّذي يدعو إلى العودَة بالعِلم والشّهادَة الجامعيّة كـ "راضي في ماء السّماء" الّذي تتلمذ بهذا الفِكر على يديّ أستاذ الرّياضَة "رياض"، و"عمر بن فاطمة في حليب التّين"، والمُتَرَدّد والمَهزوم والشّكاك كـ "سليم في حياة معلّقة" الّذي بقيَ متردّدا بين البقاء في المخيّم والعودة إلى إيطاليا حتّى نهاية الرّواية، و "نجيب في رواية ماء السّماء" إذ مثّل البُطولة المنهزِمة بوضوح تامّ، إذ انهزم سلاحه

[1] انظر: https://www.bbc.com/arabic/40739743 استرجع بتاريخ: 17\6\2020

وانهزمت روحه أمام مُطَلّقته بدريّة، و"صديقة" في حليب التّين، والبَطل الخائِن والبَطل التّفعيّ الّذي تجسّد في صورة خميس والعميد صبحي في رواية حياة مُعلّقة، فالتّفعيّة جزء من الخيانة للوطن، وشخصيّات رواية حليب التّين " صبحي وركاد وأبو طارق" "أبو طارق" مثّلت البَطل الخائِن، فـ "صبحي" حاول التّحرّش بصديقة زوجة صديقِه الشّهيد أحمد بعد أقلّ من شهر على شهادَته، وفي هذا خيانة لزوجة شهيد تُمثّل خيانة للوَطنِ، وفي سرقة سلاح المقاوَمَةِ على يديّ "ركاد" أعلى درجات الخِيانَة الوَطنيّة، و"أبو طارق" سرق مُخَصّصات الشّهداء، وحاول استغلال منصِبهِ للتّحرّش بنسوة الشّهداء والأسرى كما حاول أن يفعل مع صَديقة مُقابِلَ تحصيلها مُخَصّصات زوجها الشّهيد، وفي ظِلّ غِيابِ البُطولَةِ الواحِدَة فإنّ البُطولات الهامِشيّة كانت مُثبِتة حضورَها وتأثيرها في رواية المُخَيّم، ففي رواية "مُخْمَل" لحزامة حبايب طغت الكثير من البُطولات الهامشيّة كالجدّة نايفة والابن قَيس والأخ عايد، و"يورو" في رواية حياة معلّقة. و "خالد الزّهر" في ماء السّماء.

إذن غابَ بَطَل الحقّ المُسَلّحِ، البَطَل الإيجابيّ، بَطَل حلم التّحرير كما يُطْلِق عليه د. فَيْصَل درّاج الّذي طُرِحَ ما قبل أوسلو، كَسَعْد في رواية غَسّان كنفاني أمّ سَعد، وحَضَر بَطَل الكابوسِ الّذي جاء حُضوره بعد تهافت الحلم بالتّحرير والعودة[1].

3. انسحَبَ الفِلَسْطينيّونَ من الهمّ الفِلَسْطينيّ العامّ في النّصر والتّحرير والعودة إلى الوَطن، إلى الهموم الاجتماعيّة الخاصّة، فقد انزاحت بوصَلة المخيّم عن الهمّ الوطنيّ والكفاح المسلّح للتوَجّه نحو تأمين لقمة العيش والبحث عن عمل، فالحاج حسين في ماء السّماء ابتنى لنفسه وعائِلته ممّا ورثته خديجة عن خالها عمران مزرعة كي يحيوا حياة هانِئة فيها بعيدًا عن عجلة الحياة الّتي لا تنفكّ تدوسهم، وسقطت "صديقة" في حليب التّين في شبكة دعارة في الخليج، ولم تجد سبيلا للخلاص منها فاستمرّت في العمل إلى أن قرّرت أخيرا الهجرة إلى الدّنمارك عند ابنها حسام، وفي حياة مُعَلّقة لم يتوانَ "سليم" عن الحصول على أيّ فرصة في الخروج من غزّة لاستكمال تعليمه الجامعيّ، وعندما عاد بعد وفاة والده كانَ همّ الحصول على وظيفة وسط دوّامة البطالة همًّا أساسيًا، و "حوّا" في مخيّم قضت حياتها محاولة البحث عن حياة كريمة بعملها عند السّت قمر وتأسيس حياة مختلفة خاصّة بعد طَلاقِها من نظمي، ووسط كُلّ محاولات البحث عن عمل فقد كانت الهموم الاجتماعيّة طاغيّة بوضوح، من فقر وتحرّش واكتظاظ واستغلال وعنف أسريّ وقضايا اجتماعيّة نخرت نسيج المخيّم الفلسطينيّ وجعلت همّه الأوّل الخروج من هذه الآفات، وأوّل خروج هو الخروج من المخيّم فزوجة

[1] انظر: https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=97283 استرجع بتاريخ 28\6\2020.

العميد صبحي رفضت البقاء في المخيّم وكذلك خميس وقررا السّكن خارِجه، وشباب المخيّم طالما بحثوا عن شتات مرغوب في الهجرة إلى الدّول الأوروبيّة كما فعل "سليم" و"يورو" وسعت إليه "نفين"، وعفاف وساجدة ولطفي في رواية مخمل انسحبوا من حياة المخيّم إلى العالم خارج، حتّى أنّ عفاف وساجدة لم تسمحا لأبنائهما باستكشاف بيت جدّتهما في المخيّم.

وبذلك تكون الرّواية بعد أوسلو قد ركّزت على التّفاصيل الصّغيرة العظيمة في آن، والتّفاصيل اليوميّة الّتي قد لا تُلفت المرء لكنّها مع تراكمها وتجمّها شَكّلت تشظّيًا وانكسارا في المخيّم، تبعه تشكّل لملامح مخيّم جديد ولاجئ مُسْتَجَدّ.

4. انهزمت الثّورة الفِلَسْطينيّة في المخيّمات على أيدي العملاء وفاسِدي السّلطة الحاكِمة بغضّ النّظر عن حزبيّتها، ربّما لم يَكُن السّعي إلى انهزام الثّورة صريحًا لكنّه وَقَع بِفعل التّصرّفات الّتي قاموا بها، فَكُلّ الفَساد السّلطويّ هو انهزام للثّورة من عقر دارها وفيه، فعندما سمحت المنَظّمة لأعضاء من حركة فتح بالاستيلاء على مخصّصات الشّهداء واستغلال مناصبهم كانت مُشارِكة في انهزام الثّورة في المخيّم مثل "أبو طارق" في حليب التّين، وعندما صارَ الدّين والمقاوَمة غِطاءً لكُلّ فسادٍ سياسيّ وأخلاقيّ "أبو عبادة" في رواية مخمل و"أحمد بيك وزوجته البِسَة" في ماء السّماء، فهذا انهزام، وعنْدَما توَجّهت حماس إلى أسْلَمَةِ الدّولة وفرض الدّين على الشّعب حتّى أنّ الصّلاة صارَت طريقا أوّليًا للخروج من معبر رفع، فقد ساهمت في انهزام ثورة المخيّمات وإنجاب أولاد مشوّهين مُسْتَغِلّين مناصِبهم ومناصِب ذويهم، كما فعل خميس ابن العم يوسف في حياة معلّقة، إذن: هذه الإفرازات خَلّقتها العَمالة والسّلطة دون اتّفاق لكن التّتاج واحِد، إخماد شعلة الثّورة.

5. تنوّعت أدوار المرأة وبرزت على ساحَةِ المخيّم والرّواية الفِلَسْطينيّة، فبدريّة في ماء السّماء تَكْسِرُ القالب النّسويّ وتُشارِكُ في التّظاهرات وتوزّع منشورات الحزب الشّيوعيّ الّذي انضمّت إليه؛ إذ صارت تهتمّ بقضايا المرأة والفقراء والعمّال، ونسَفَت حزامة حبايب دور المرأة التّمطيّ، وليست أيّ امرأة، بل أمّ شهيد وزوجته، فـ "صديقة" في حليب التّين صارت مومِسًا، و"فاطمة" مارِسَت العادَة السّريّة في حمّام المخيّم العامّ، وانتقلت "نفين ويافا" من فتاتين عاديّتين في مجتمع محافِظ في غزّة إلى امرأتين متمرّدتين، فيافا رفضت ارتداء الحجاب في مقبل عمرها كبقيّة فتيات المخيّم، وإن كانت في نهاية الأمر ارْتدته، وعملت في عدّة مؤسسات آخرها إدارة مؤسسة لحقول الإنسان وسافرت بحثًا عن

عمّها في مخيّم عين الحلوة في لبنان، وعادَت بابن عمّها حبيبًا وزوجًا بعد أن تمرّدت على شعورها اتّجاه سليم، ونفين بعد أنْ حاصَرها والدها كسرت حِصارَه وتحدّثت باسْمِ سُكّان التّلّة وكانت التقيض له وأعادَت علاقَتها بِنَصْر.

6. غابَ نِداءُ العَوْدَة بالكِفاح المُسَلّح وحلّ محلّه نداء العودَة بالشّهادَة الأكاديميّة، فراضي في ماء السّماء تتلمَذَ على يدِ أستاذه رِياضِ بِفِكر واحِدٍ أنّ الشّهادَة الجامِعِيّة هي السّبيل لعودة الأوطان، وإن لم يغِب دور الكِفاح المسلّح لكنّه توازى مع العودة الثّقافيّة إن لم تَكُنِ العودة الثّقافيّة قد غلبت، وقد عزّزت هذا التّوجّه عند راضي بدرية، فدرس المحاماة للدّفاع عن القضيّة الفلسطينيّة، وهذا شأن زوج فاطمة وابنها عمر في حليب التّين، وسليم في حياة معلّقة، الّذي كان طريقه المقاوَمة في صِغَره لكنّه غيّر توَجّهه بعد أن حثّه والده على إنهاء تعليمه الجامعيّ، فصارت يناقِش قضيّته ووضع غزّة في المحافِل الدّوليّة وأمام الصّحافة.

إذن، حاول الفلسطينيّون إيجاد بديل للعودة بعد أنْ فقدوا حقّهم في العودة المسلّحة وفقدوا سِلاحَهم بعد الخروج من بيروت أوّلا واتفاق أوسلو ثانيا.

7. ركّزت روايات ما قبل أوسلو على نهايات تفاؤليّة ببرعمة الدّالية في أمّ سعد، والأمل بالعودة والتّحرير، ونقل شُعلة الثّورة إلى الجيل الثّاني في العشّاق ...، أمّا بعد أوسلو فأخذت النّهايات مجرىً مأساويّا، ففي حليب التّين هجرة جديدة إلى الدّنمارك مع الاحتفاظِ بمفتاح العودة، وفي حياة معلّقة موت آخر للحاج خليل وضبابيّة في المشْهَد، فلا يستطيع أحد أن يقرر الخطوة التّالية للحياة، فكلّ الحيوات مُعَلّقة تنتظر فتح معبر رفح وصفقات حماس لتبادل الأسرى وأمل بهجرة مرغوبة لشباب يبحثون عن فرص حياة في الدّول الأوروبيّة، وفي مخمل تراكمت الهموم الاجتماعيّة حتّى قضت على حيوات كثيرة، على حياة الستّ قمر انتِظارا وشوقا، وعلى حياة حوّا قتلا على يد ابنها، عكست هذه النّهايات حقيقة نفسيّة الرّوائِي الفلسطينيّ والشّعب عامّة الّذي تداعى حلمه بالعودة والحريّة والأمل، وأبرز بطولاتٍ منهزمة نسلها من الواقع المعيش.

الخاتِمة

الحمدُ لله الّذي منّ عليّ بإنهاء هذهِ الدّراسَة، إذ لم تكن رحلة البحث فيها هيّنة سلسة، لكنّها كانت ممتعة ومثمرة، آملة أن تكون هذه الدّراسة إضافة للمكتبتين الفلسطينيّة والعربيّة.

لقد وضّحت في بداية دراستي الهدف منها، وهو تبيان العلامات الفارقة لتمثيلات المخيّم الفلسطينيّ بعد أوسلو، ولتحقيق هذا الهدف كانَ لا بدّ من العمل المنظّم للوصول إلى الاستنتاجات الملائِمة مع عيّنة الدّراسة الّتي تمّ اختيارها، وهي: "أمّ سعد لغسّان كنفاني، العُشّاق لرشاد أبو شاور، الطّوق لغريب عسقلاني، تفّاح المجانين وماء السّماء ليحيى يخلف، حليب التّين لسامية عيسى، حياة معلّقة لعاطف أبو سيف، مخمل لحزامة حبايب".

أما الفصل الأوّل فقد اقتصر على الإطار النّظريّ للدّراسَة، إذ احتوى على المقدّمة الّتي شملت الحديث المكان في الرّواية الفلسطينيّة بتخصيص للمخيّم الفلسطينيّ، وحضوره في الأعمال الأدبيّة، وأبرز الفصل المُشكلة الّتي ستتمّ معالجتها في الصّفحات المتقدّمة، وهي تبيان العلامات الفارقة لتمثيلات المخيّم في الرّواية الفلسطينيّة قبل اتفاقيّة أوسلو وبعدها تبعا لعيّنة الدّراسة، ومن ثمّ طُرِحت أسئِلة الدّراسة الّتي ساهمت في تحقيق هدفها ومعالجة مشكلتها، كُلّ ذلك باستخدام المنهجين الوصفيّ والتّحليليّ، كما وُضّحت أهميّة الدّراسة واختلافها عن غيرها من الدّراسات في أنّها أبرزت تمثيلات المخيّم في الرّواية الفلسطينيّة قبل اتّفاق أوسلو وبعد، ليختتم الفصل الأوّل بمجموعة من الدّراسات السّابقة الّتي تتقاطَع مع دراسَتي في جزء من محتوياتها.

انطلقت الدّراسة في الفصل الثّاني في الحديث حول البيئات الّتي اعتمدتها الرّوايات الفلسطينيّة كمكان لأحداثها، وهي المدينة والقرية والمخيّم، والتّمثيل على كُلّ بيئة من البيئات بروايات فلسطينيّة، مع توضيح نشأة المخيّم الفلسطينيّ وإحصاءات حول أعداد اللاجِئين الفلسطينيّن في مخيّمات فلسطين وخارجها.

بعد فصلي التّقديم والدّراسات النّظريّة وصلت الدّراسة إلى لبّها وهو تحليل عيّنة الدّراسة؛ لتحقيق الهدف المرجوّ منها، ففي الفصل الثّالث المعنون بـ: "المخيّم في نماذج ما قبل أوسلو" تحدّثت الدّراسة حول الاتّفاقيّة وبنودها ونتائِجها، لتلج فيما بعد إلى تحليل عيّنة الدّراسة الخاصّة بما قبل أوسلو: "أم سعد، العشّاق، الطّوق، تفّاح المجانين"، وتفرد لكلّ رواية تحليلا خاصّا بها شاملا لها، وقد اختتم الفصل باستنتاج العلامات الفارقة لتمثيلات المخيّم قبل أوسلو.

كانَت مهمّة توضيح العلامات الفارِقَة لتمثيلات المخيّم الفلسطينيّ بعد أوسلو للفصل الرّابع، فبعد وصف وتحليل بقيّة روايات عيّنة الدراسة الخاصّة بما بعد أوسلو" ماء السّماء، حليب التّين، حياة معلّقة، مخمل"، تمّ وضع العلامات الفارِقة لتمثيلات المخيّم في تلك المرحلة.

بعد ختام متن الدّراسة في فصولها الأربعة، صيغت الخاتِمَة وتبعها قائمة المصادر والمراجع الّتي اعتمدت عليها في دراستي باللغتين العربيّة والإنجليزيّة، مع إضافة ثلاثة ملاحق هامّة، طُرح بها مسردين تاريخيّين للروايات الفلسطينيّة يشمل الفترة منذ أوّل رواية صدرت بعد النّكبة والّتي كانت عام 1949 وحتّى عام اتفاقيّة أوسلو 1993، يلي هذين المسردين مسرد خاصّ بمخيّمات عيّنة الدّراسة في الحديث عن نشأة كلّ مخيّم منها تاريخيّا مع أهمّ ما يمتاز به.

لقد واجَهتُ بَعْضَ التّحدّيات خلالَ القيام بهذه الدّراسَة، فغير التّحدّيات على صعيد الحياة الشّخصيّة، كانَت هناك تحدّيات على الصّعيد الأكاديميّ أهمّها شُحّ الدّراسات المتعلّقة ببعض الرّوايات الّتي اعتمدتها كعيّنة بحث خاصّة فيما بعد أوسلو، لكنّ هذا الشّحّ سمح لي بتطوير مهارتي التّحليليّة وربْطِ دراسات لروايات مختلفة مع هذه الرّوايات.

بعد التّوصّل إلى استنتاجات الدّراسة وتحقيق الأهداف المرادة منها والإجابة عن الأسْئِلة المطْروحة أوْرِد بعض التّوصيات للطّلبة الباحِثين من بعد في هذا المجال:

- على الباحِث الفلسطينيّ أنْ يُسَلّط ضوء دراسته الأدبيّة حول المخيّم في أطر جديدة أهمّها: الفساد الأخلاقيّ والسّياسيّ في المرأة، الإنسان الفلسطينيّ في المخيّم، الفقر والبطالة وأثرهما اجتماعيّا على المخيّمات الفلسطينيّة.
- تطوّرت وتنوّعت أدوار المرأة، وعلى الباحث الفلسطينيّ تسليط الدّور على هذه التّنوّعات والتّمثيلات الجديدة الّتي اعتلت سطح الرّواية الفلسطينية.
- حبّذا لو استطاع باحث فلسطينيّ تخصيص دراسة حول العنف الأسري في رواية المخيّم الفلسطينيّ.
- لم يبرز الآخر كثيرا في عيّنة الدّراسة الّتي اخترتها، لكن حبّذا لو يستطيع أحد الباحِثين تسليط الضّوء على تغيّر دور الآخر في رواية المخيّم الفلسطينيّ، فهذا معقل فلسطينيّ هام، ومن المهمّ جدّا دراسة كيف يتعامل مع الآخر.

قائِمَةُ المَصادِرِ والمراجِعِ

الرِّوايات والقِصَص

- أبو سيف. عاطف. (2015). **حياة معلّقة**. ط2. الأهليّة للنّشر والتّوزيع. الأردن.
- أبو شاور، رَشاد. **العُشّاق**. ط7. مكتبة كلّ شيء. فلسطين – حيفا.
- حبايب، حزامة. (2016). **مخمل**. ط 1. المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر. بيروت.
- خليفة، سحر. (2009). **أصل وفصل**. ط1. دار الآداب للنّشر والتّوزيع. بيروت.
- الخوري، إسكندر. (1947). **الحياة بعد الموت**. ط2. مطبعة بيت المقدس. فلسطين
- الخوري، إسكندر. (1947). **في الصّميم**. ط1. مكتبة العرب. مصر.
- العارف، عارف. (1947). **مرقص العميان**. ط1. دار الفكر العربي.
- عزّام، سميرة. (1992). **وقصص أخرى**، دار العودة، بيروت.
- عسقلاني، غريب. (2016). **الأعمال الرّوائيّةُ الكامِلة**. ط1. مج1. سمير منصور للطّباعة والنّشر والتّوزيع. فلسطين\غزّة.
- عيسى، سامية. (2010). **حليب التّين**. ط1. دار الآداب للنّشر والتّوزيع. بيروت.
- كنفاني، غسّان. (2006). **أم سعد**. ط5. مؤسسة الأبحاث العربيّة ش.م.م. بيروت.
- مهنّا، علاء. (2011). **مقدسيّة أنا**. ط1. مؤسسة عبد المحسن القطّان. فلسطين.
- نصر الله، إبراهيم. (2008). **زمن الخيول البيضاء**. ط2. منشورات الاختلاف. الجزائر.
- يخلف، يحيى. (2008). **تُفّاح المجانين**. ط3. دار الآداب للنّشر والتّوزيع. بيروت.
- يخلف، يحيى. (2008). **ماء السّماء**. ط1. دار الشّروق للنّشر والتّوزيع. فلسطين.
- يخلف، يحيى. (2008): **بحيرة وراء الرّيح**. ط2. دار الآداب للنّشر والتّوزيع. بيروت.

الكُتب

- Deleuze Gilles, Guattari Felix, (1995) **Kafka. Toward a Minor Literature**. (Theory and History of Literature)
- إبراهيم، داوود. **غسّان كنفاني مناضلا ومفكّرا**، وكالة أبو عرفة للصّحافة والنّشر. القدس.
- ابن منظور. (2003). **لسان العرب**. دار الحديث. القاهرة.
- أبو حنّا، حنّا. (2005). **طلائع النّهضة في فلسطين (خرّيجو المدارس التّوسيّة) 1862 – 1914**. ط1. مؤسّسة الدّراسات الفلسطينيّة. فلسطين.
- أبو مطر، أحمد. (1980). **الرّواية في الأدب الفلسطيني، 1950 – 1975**، ط1، المؤسسة العربيّة للّدراسات والّنشر، بيروت.
- آلن، روجر. (1997). **الرّواية العربيّة**. المجلس الأعلى للثّقافة.
- باختين، ميخائيل. (1987). **الخطاب الرّوائي**. ط1. دار الفكر للدّراسات والنّشر والتّوزيع. القاهرة.
- البحيريّ، حسن. (1990). **رجاء**. ط1. مطبعة الصّباح، سوريّا.
- بركات، حليم. (2006). **الاغتراب في الثّقافة العربيّة "متاهات الإنسان بين الحلم والواقع"**. ط1. مركز دراسات الوحدة العربيّة. بيروت.
- البوريمي، منيب محمّد. (1984). **الفضاء الرّوائيّ في الغربة الإطار والدّلالة**. دار الشُّؤون الثّقافيّة العامّة. بغداد.
- البيطاوي، يوسف. (2009). **الرّواية الفلسطينيّة في الضّفّة وقطاع غزّة**. ط1. وزارة الثّقافة الفلسطينيّة. الهيئة العامّة الفلسطينيّة للكتاب. فلسطين.
- جنداري، إبراهيم. (2013). **الفضاء الرّوائي في أدب جبرا إبراهيم جبرا**، ط1. تموز "طباعة. نشر. توزيع". دمشق.
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حمّاد. (2009). **الصّحاح: تاج اللغة وصحاح العربيّة**. دار الحديث. القاهرة.
- حاجّ، سمير. (2012). **بئر الحداثة: الموسيقى والرّمز في أدب جبرا إبراهيم جبرا**. ط1. المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر. لبنان.
- الخالدي، وليد. (1997). **كي لا ننسى**. ط1. مؤسسة الدّراسات الفلسطينيّة. بيروت.

- الخطيب، جميلة. (2012). **تطوّر الرّواية العربيّة في فلسطين 48 (1948 – 2012)**. ط2. المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر. لبنان.
- درّاج، فيصل. (2010). **رواية التّقدّم واغتراب المستقبل تحوّلات في الرّواية العربيّة**. ط1. دار الآداب للنّشر والتّوزيع. بيروت.
- درويش، محمود. (1996). **الأعمال الكاملة**. ط14. دار العودة. بيروت.
- درويش، محمود. (2004). **الأعمال الجديدة**. ط1. رياض الرّيس للكتب والنّشر. بيروت.
- السّعافين، إبراهيم. (1985). **نشأة الرّواية والمسرحيّة في فلسطين حتّى عام 1984**. ط1. دار الفكر للنّشر والتّوزيع. الأردن.
- شرابي، هِشام. (1984). **مقدّمات لِدراسة المجتمع العربي**. ط3. الدّار المتّحدة للنّشر. لبنان.
- الشّرع، فاروق. (2015). **الرّواية المَفقودَة "مذكّرات وشهادات"**. ط2. المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات. قطر.
- شلحت، أنطوان. (1989). **سميح القاسم من الغضب الثّوري إلى النّبوءة الثّوريّة**. ط2، دار الأسوار، عكّا.
- صالح، جهاد. (2005). **خليل بيدس رائد القصّة القصيرة الحديثة في فلسطين وأوّل سفير للأدب الرّوسيّ في الثّقافة العربيّة**، ط1. المركز الفلسطينيّ للدراسات والنّشر والإعلام. فلسطين.
- صالح، جهاد. (2010). **الرّواد المقدسيّون في الحياة الفكريّة والأدبيّة في فلسطين "إسحق موسى الحسينيّ"**، ط1، الاتّحاد العام للكتّاب والأدباء الفلسطينيّين، فلسطين.
- صالح، جهاد. (2010). **الرّواد المقدسيّون في الحياة الفكريّة والأدبيّة في فلسطين**، جمال الحسينيّ، مجهودات روائيّة مبكرة. ط1. الاتّحاد العامّ للكتاب والأدباء الفلسطينيين. فلسطين.
- صالح، جهاد. (2011). **الرّوّاد المقدسيّون في الحياة الفكريّة والأدبيّة في فلسطين**. ط2. الاتّحاد العامّ للكُتّاب والأدباء الفلسطينيّين. فلسطين.
- عاشور، رضوى. (1981). **الطّريق إلى الخيمة الأخرى "دراسة في أعمال غسّان كنفاني"**، ط2، منشورات دار الآداب، بيروت.

- عبيد، صبحي. (2006). **حسن البحيريّ الشّاعر الّي انتصرت فيه العبقريّة على الحرمان**. ط2. المركز الفلسطينيّ للدّراسات والنّشر والإعلام. فلسطين.
- عبيد، صبحي. (2016). **محمّد العدنانيّ في شعره القومي والوطنيّ**. ط2. دار الشّيماء للنّشر والتّوزيع. فلسطين.
- عصفور، جابر. (2011). **الرّواية والاستنارة**. ط1. الصّدى للصّحافة والنّشر والتّوزيع. دبي.
- عيد، حسين. (2010). **قضيّة فلسطين والأدب يحيى يخلف نموذجًا**. ط1. دار الأسوار، عكّا.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد. (2003). **العين مرتّبا على حروف المعجم**. ط1. دار الكتب العلميّة بيروت.
- القاسم، نبيه. (1991). **في الرّواية الفلسطينيّة**. ط1. دار الهدى. فلسطين.
- القاسم، نبيه. (2014). **إميل حبيبي المثقّف الإشكالي**. ط1، دار الهدى للطّباعة والنّشر كريم. كفر قرع.
- كنفاني، غسّان. (1994). **الآثار الكاملة**. ط 4. مؤسسة الأبحاث العربيّة. بيروت.
- التّابلسي، شاكر. (1994). **جماليّات المكان في الرّواية العربيّة**. ط1. المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر.
- هلال، جميل. (2006). **النّظام السّياسيّ بعد أوسلو دراسة تحليليّة نقديّة**. ط2. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت.
- وادي، فاروق. (1985). **ثلاث علامات في الرّواية الفلسطينيّة**، غسّان كنفاني. إميل حبيبي. جبرا إبراهيم جبرا. ط2. مطبعة أبو رحمون. فلسطين.

البُحوثُ والدّوريّات

- **(2006). حماس تستلم السّلطة من فتح "قراءة إحصائيّة وسياسيّة في نتائج الانتخابات التّشريعيّة الفلسطينيّة الثانية 25 كانون الثّاني \ يناير 2006"**. مركز دراسات الشّرق الأوسط عمّان.
- أبو غزالة، إلهام. (1998). **الإبداع، اللغة، المرأة: الألقاب في خطاب الرّواية الفلسطينيّة المعاصرة**. مجلّة قسم دراسات المرأة. فلسطين.
- أبو شهاب، رامي. (2019). **رواية مُخمل لحزامة حبايب انكسار الأنوثة، تقاطع الذّات والوطن**. القدس العربيّ.

- درّاج، فيصل. (2016). **الرّواية الفلسطينيّة من الزّمن الرّسوليّ إلى زمن مفتوح**. من مجلّة أوراق فلسطينيّة. مؤسسة ياسر عرفات. فلسطين.
- درّاج، فيصل. (2019). **"رباعيّة البحيرة" وصور الهويّة الفلسطينيّة**. من مجلّة الدّراسات الفلسطينيّة العدد 118 ربيع 2019.
- دعنا، طارق. (2015). **الفساد في فلسطين نظام مُتجدد. الشّبكة**. شبكة السّياسات الفلسطينيّة. فلسطين.
- زريق، رائِف. (2019). **الذّات والإخضاع والذّاتيّة والخضوع**، من مجلّة الدّراسات الفلسطينيّة. فلسطين.
- السّهلي، أيهم. (2019). **سوس المكان ضمير المخيّم**. من مجلّة الدّراسات الفلسطينيّة. فلسطين.
- صايغ، روز ماري. (1993). **الفلسطينيّون في لبنان واقع مؤلم ومستقبل غامض**. من مجلّة الدّراسات الفِلَسطينيّة. فلسطين.
- العمرات، محمود سند ويحيى محسن مطالقة. (2016). **عرب 48 الّذين يكتبون بالعربيّة أنطون شمّاس وسيّد قشّوع ومساهمتها في الأدب العبريّ المُعاصِر**، جامعة اليرموك، كُلّية الآداب – قسم اللغات السّاميّة والشّرقيّة، الأردن.
- Cergol,J.(2015). **An attempt at defining 'minority' literature: A case study in literary production of the Italian minority in Slovenia and Croatia and of the Slovenian minority in Italy**. International Journal of Language, Translation and Intercultural Communication,2, 61-68. Doi: https://Doi.org/10.12681/ijltic.23

الرّسائِلُ الجامعيّة

- بشارات، أحلام. (2005). **البطل في الرّواية الفلسطينيّة في فلسطين عام 1993 – 2003.** جامعة النّجاح الوطنيّة. فلسطين.
- جابر، كوثر. (2000). **التّشكيل المكاني في الرّواية الفلسطينيّة: دراسة تحليليّة لرواية عائد إلى حيفا لغسّان كنفاني، إلى الجحيم أيّها الليلك لسميح القاسم، جبل نبو لعزّت الغزّاوي**. كليّة الآداب. جامعة حيفا.

- الشّحادة، يوسف محمّد. (2000). **الرّواية الفلسطينيّة في الضّفّة وقطاع غزّة 1967 – 1993.** جامعة النّجاح الوطنيّة. فلسطين.
- الصّليبي، حسين محمّد. (2009). **الرّواية الفلسطينيّة وتجلّياتها الفنيّة والموضوعيّة في الأرض المحتلّة بعد اتّفاقيّة أوسلو.** الجامعة الإسلاميّة. غزّة.
- مالكي، فرج عبد الحسيب. (2003). **عتبة العنوان في الرّواية الفلسطينيّة "دراسة النّصّ الموازي.** جامعة النّجاح الوطنيّة. فلسطين.

الرّوابطُ الإلكترونيّة

- AA، موقع إخباري، الحروب الإسرائيليّة على غزّة: https://f24.link/ze8zb
- BBC باللغة العربية. موقع إخباري: https://www.bbc.com/arabic/40739743
- أبجد، موقع تثقيفي:

https://www.abjjad.com/author/2793800076/%D8%B3%D8%A7%D9%85%D9%8A%D8%A9-%D8%B9%D9%8A%D8%B3%D9%89/books

- أدب الأقلّيّات: https://Doi.org/10.12681/ijltic.23
- الاقتصاديّة، جريدة العرب الاقتصاديّة الدّوليّة:

https://www.aleqt.com/2020/01/02/article_1739076.html

- تاريخكم. موقع تثقيفي: https://www.taree5com.com/المنذر-بن-ماء-السماء/
- الجمهوريّة نت، صحيفة إلكترونيّة، أدب الأقلّيّات: https://f24.link/N4MUo
- رأي اليوم. صحيفة عربيّة مُستقلّة: https://www.raialyoum.com/index.php/ربع-قرن-على-مصيدة-أوسلو-لماذا-عارضناها/
- صفحة وزارة الثّقافة الفِلَسطينيّة على فيس بوك:

https://www.facebook.com/ministryofculturep/videos/294568124859385

- المركز الفلسطينيّ للإعلام: https://www.palinfo.com/
- معرفة، موقع تثقيفي:

https://www.marefa.org/%D8%B1%D8%B4%D8%A7%D8%AF_%D8%A3%D8%A8%D9%88_%D8%B4%D8%A7%D9%88%D8%B1

- موسوعة المخيمات الفلسطينية © 2020: http://palcamps.net/ar/camp/40
- ويكيبيديا باللغة العربيّة:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AD%D8%B2%D8%A7%D9%85%D8%A9_%D8%AD%D8%A8%D8%A7%D9%8A%D8%A8

قِراءات وَمُشاهَدات

- إبراهيم، بشّار. (2006). **المخيّم في الرّواية الفلسطينيّة**. وزارة الثّقافة السّوريّة. سوريّا.
- بوعزّة، الطّيّب. (2016). **ماهية الرّواية**. بيروت. عالم الأدب للتّرجمة والنّشر.
- تيلتنيس، إيج ايه و هوافينج تشانغ. (2014). **التّقدّم والتّحدّيات والتّنوّع نظرة متعمّقة للأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة للاجئين الفلسطينيّين في الأردن**. الكوبي ايه اس. النرويج.
- **خارج المكان**، إدوارد سعيد، من إنتاج الجزيرة وثائقي:

https://www.youtube.com/watch?v=DK_qyMYn5vI

- الخطيب، حسام. (1996). **النّقد الأدبي في الوطن الفلسطينيّ والشّتات**. المؤسسة العربيّة للدّراسات والنشر.
- الخواجا، جهاد. (2004). الواقعيّة في الأدب الفلسطينيّ: **دراسة تحليليّة في أدب غسّان كنفاني**، الأردن، المكتبة الوطنيّة.
- درّاج، فيصل. (2011). **ما قبل الدّولة ما بعد الحداثة**. أزمنة للنّشر والتّوزيع. الأردن.

- درّاج، فيصل. (2012). **الرّواية وتأويل التّاريخ: نظريّة الرّواية والرّواية العربيّة**. مؤسسة سلطان بن علي العويس الثّقافيّة. الشارقة.
- درّاج، فيصل. (2015). **أشكال المثقّف وإشكاليّة الثّقاف**ة. دار أزمنة للنّشر والتّوزيع. الأردن.
- سعيد، إدوارد. (2015). **نهاية عمليّة السّلام أوسلو وما بعدها**. دار الآداب. بيروت.
- سليمان، نبيل. (1994). **فتنة السّرد والنّقد**. دار الحوار للنّشر والتّوزيع. اللاذقيّة.
- صبحي، مي. (2004). **العودة حقّ، دراسة اجتماعيّة، سياسيّة، قانونيّة مفصّلة لمقاضاة الصّهاينة وفق القوانين والقرارات الدّوليّة**. دار باحث للدراسات. لبنان.
- العبّادي، غازي. (1978). **الأدب والثّورة**. مطابع دار الثّورة. بغداد.
- فرنجية، بسام. **الاغتراب في الرواية الفلسطينية**. مؤسسة الأبحاث العربية. لبنان.
- التّجار، سليم. (1998). **قراءات في الرّواية الفلسطينيّة الحديثة**. دار الكرمل للنّشر والتّوزيع. الأردن.
- **النّكبة**، من إنتاج الجزيرة وثائقي:

https://www.youtube.com/watch?v=rFYmRX7A_Fc&list=PLWjAmuB5ooppC4rFRePpjG6CmjM7CuGiN

- ياغي، عبد الرّحمن. (1983). **في الأدب الفلسطينيّ الحديث: قبل النّكبة وبعدها**. كاظمة للنّشر والتّرجمة والتّوزيع. الكويت.
- يقطين، سعيد. (2012). **قضايا الرّواية العربيّة الجديدة: الوجود والحدود**. الدّار العربيّة للعلوم. لبنان.
- اليوسف، يوسف سامي. (2002). **مقال في الرّواية. دار كنعان للدّراسات والنّشر والتّوزيع**. دمشق.
- Chapter8. **Kafka and the Dialect of Minor Literature**. (2009) Lambent Traces 142-157. Doi: 10.1515/9781400826131.142
- Koelb, C. (1987). **Kafka: Toward a Minor literature(review)**. MFS Modern Fiction Studies, 33(2), 376-378. Doi: 10.1353/mfs.0.1120
- Manna', A. (2013). **The Palestinian Nakba and its Continuous Repercussions**. Israel Studies, 18(2), 86-99. Doi: 10.2979/israelstudies.18.2.86

- Naguib, A. (2011, September 21) **Figures of Defiance: Refugees in Palestinian literarture**. Retrieved July 02,2020 from: https://www.egyptindependant.com/figures-defiance-refugees-palestinain-literature /
- Randa Farah(2006) **Palestinian Refugees, Interventions**,8:2, 228-252, Doi:10.1080/13698010600781040
- Said, E. W. (2003) **The end of the peace process: Oslo and after**. New York: Vintage
- Samra,M.A. (2014). **The Road to Oslo and Its Reverse**. Journal of Palestinian Refugee Studies, 4(1), 37-43. Doi: 10.12816/0014087
- **The Refugee Issue After the Oslo Agreement**. (2020, March 24). Retrieved July 02,2020, from: https://fanack.com/arab-palestinian-israeli-conflict/palestinaian-refugees/refugees-after-oslo-agreement /
- Touaf, L., & Boutkhil, S., (2008). **Representing minorities: Studies in literature and criticism**. Newcastle: Cambridge Scholars Press .

ملحق (1)

مسرد تاريخي للرّواية الفلسطينيّة ما بين عاميّ 1948 – 1967.

رواية الشّتات

رقم	عنوان الرّواية	المؤلّف	النّاشر	السّنة
1	فتاة من فلسطين	عبد الحليم عبّاسي	مكتبة الاستقلال – عمّان	1949
2	البطل	راضي عبد الهادي	عمّان	1950
3	الشّهيد	راضي عبد الهادي	عمّان	1950
4	فارس غرناطة	راضي عبد الهادي	عمّان	1952
5	في السّرير	محمّد العدناني	مطبعة سعد – حلب	1953
6	صراخ في ليل طويل	جبرا إبراهيم جبرا	مطبعة العاني – بغداد	1955
7	صراع	عارف العارف	بيروت	1955
8	راقصة على الزّجاج	نبيل خوري	المؤسسة الأهلية للطّباعة والنّشر – بيروت	1958
9	لولا القدر	حسين السّيّد	دار مكتبة الحياة – بيروت	1958
10	دعني أعترف	حسين السّيّد	دار مكتبة الحياة – بيروت	1959
11	القبلة المحرّمة	صبحي المصري	دار مكتبة الحياة – بيروت	1959
12	دموع لا تجفّ	نبيل أنشاصي	دار التّضامن العربيّ – عمّان	1959
13	طريق فلسطين	علي أبو حيدر	دار الحكمة – بيروت	1959
14	المصباح الأزرق	نبيل خوري	المؤسسة العربيّة للطّباعة والنّشر – بيروت	1959
15	جرح على أرض المعركة	حسين الدّجاني	عمّان	1960
16	كانت لنا أيّام	حسين السيّد	دار مكتبة الحياة – بيروت	1960
17	عين لا تنام	حسين السّيّد	دار مكتبة الحياة – بيروت	1960
18	ذكريات صبيّ سياسيّ محترف	حسن جمال الحسيني	مطبعة سليم بركات – بيروت	1961
19	على الدّرب	رامز فاخرة	المؤسسة العربيّة الحديثة – القاهرة	1961
20	حبّات البرتقال	ناصر الدّين النّشاشيبي	المكتب التّجاري للطّباعة والنّشر - بيروت	1962
21	ودقّت السّاعة يا فلسطين	يوسف سالم	المطبعة التّعاونيّة – عمّان	1962

22	شقاء إلى الأبد	عوني ومصطفى	المطبعة العصريّة – بيروت	1962
23	وبقيت سميرة	عطا الله منصور	دار النّشر العربي – بيروت	1962
24	رجال في الشّمس	غسّان كنفاني	دار الطّليعة – بيروت	1963
25	عناصر هدامة	يوسف الخطيب	المكتبة العصريّة – بيروت	1963
26	الفردوس السّليب	سمير قطب	المكتب العالمي للتّأليف والتّرجمة – بيروت	1963
27	قلب وضمير	سمير قطب	المكتب العالمي للتّأليف والتّرجمة – بيروت	1963
28	حفنة رمال	ناصر الدّين النّشاشيبي	مكتبة المعارف – بيروت	1964
29	ضحية بريئة	عوني مصطفى	دار الحياة – بيروت	1964
30	فداء فلسطين	رجب الثلاثيني	مطبعة الاستقلال الكبرى – القاهرة	1964
31	الوثوب	محمّد العدناني	المكتبة العصريّة – بيروت	1965
32	أقوى من الجلّادين	رجب الثّلاثيني	مطبعة النّهضة العربيّة – القاهرة	1966
33	سماء	أمين شنّار	وزارة الثّقافة والإعلام – عمّان	1966
34	الطّريد	نوّاف أبو الهيجا	منشورات دار الجمهوريّة – دمشق	1966
35	ما تبقّى لكم	غسّان كنفاني	دار الطّليعة – بيروت	1966
36	وجهان عاريان	باسم سرحان	المطبعة العصريّة – بيروت	1967

رواية الثّمانية والأربعين

رقم	عنوان الرّواية	المؤلّف	النّاشر	السّنة
1	جنون وانتقام	حسني زعبي	مطبعة أورن – تل أبيب	1954
2	الزّوجة الخائنة	محمّد العبّاسي	مطبعة أورن – تل أبيب	1954
3	القضاء والقدر	كامل نعمة	مكتبة الاتّحاد التّجاريّة – حيفا	1954
4	مذكّرات لاجئ أو حيفا في المعركة	توفيق معمّر	مطبعة الحكيم – النّاصرة	1958
5	بهون	توفيق معمّر	مطبعة الحكيم – النّاصرة	1959
6	والأرض وضعها للأنام	محمود كناعنة	مطبعة الحكيم – النّاصرة	1960

7	أسمهان	إبراهيم موسى إبراهيم	المطبعة الحديثة – تل أبيب	1961
8	حبّ بلا غدّ	محمود عبّاسي	مطبعة الحكيم – النّاصرة	1962
9	قلب في قرية	محمود كناعنة	مطبعة الحكيم – النّاصرة	1963
10	الليل والحدود	فهد أبو خضرا	مطبعة الحكيم – النّاصرة	1964
11	المشوّهون	توفيق فيّاض	مطبعة الحكيم – النّاصرة	1964
12	أجنحة العواطف	سليم خوري	مطبعة الحكيم – النّاصرة	1967
13	ثورة العاشقين وأين كرامتي	عبد العزيز مصالحة	مطبعة الحكيم – النّاصرة	1967

رواية ما تبقّى من فلسطين

رقم	عنوان الرّواية	المؤلّف	النّاشر	السّنة
1	مواكب الشّهداء	جمال سليم نويهض	مطبعة المعارف – القدس	1961

ملحق (2)

مسرد تاريخي للرّواية الفلسطينيّة ما بين عامي 1967 – 1993.

رواية الشّتات

رقم	عنوان الرّواية	المؤلّف	النّاشر	السّنة
1	أصداء النّغم	شكيب الأمويّ	دار الفكر العربي – القاهرة	1968
2	حنان	سمير القطب	دار مكتبة الحياة – بيروت	1968
3	سكان المناطق المنخفضة	مصطفى أبو لبدة	عمّان	1968
4	الكابوس	أمين الشّنّار	دار النّهار – بيروت	1968
5	كفاح ومصير	سمير القطب	دار مكتبة الحياة – بيروت	1968
6	وجهان عاريان	باسم سرحان	المطبعة العصرية – بيروت	1968
7	يا ليلة دانة	عبد الله الدنان	الدار الكويتية للطباعة والنشر – الكويت	1968
8	أم أسعد	غسان كنفاني	دار العودة – بيروت	1968
9	الباحثون عن الحقيقة	عوني مصطفى	مكتبة الشعلة – بيروت	1969
10	حارة النصارى	نبيل خوري	دار النهار – بيروت	1969
11	سداسية الأيام السّتة	إميل حبيبي	روايات الهلال – القاهرة	1969
12	عائد إلى حيفا	غسان كنفاني	دار العودة – بيروت	1969
13	عرس فلسطيني	أديب نحوي	د. ن – بيروت	1969
14	من جانبي الطريق	كامل عاشور	مكتبة الثقافة العربية – بيروت	1969
15	ناهد	فوزي العمري	القاهرة	1969
16	إلى اللقاء في يافا	هيام رمزي الدردنجي	المطبعة الليبية – طرابلس الغرب	1970
17	أنا من فلسطين	عزمي المحتسب	المطبعة التعاونية – الكويت	1970
18	السفينة	جبرا إبراهيم جبرا	دار النهار – بيروت	1970
19	سنوات العذاب	هارون هاشم رشيد	عالم الكتب – القاهرة	1970
20	القناع	نبيل خوري	دار الشروق – بيروت	1970

21	متى تورق الأشجار؟	عطية عبد الله عطية	المطبعة العصرية – عمان	1970
22	الدم والتراب	عطية عبد الله عطية	د. ن – عمان	1971
23	الكنزة الخضراء	محمّد القواسمة	عمّان	1971
24	وثيقة سفر للاجئين الفلسطينيين	باسم سرحان	بيروت	1971
25	أيام الحب والموت	رشاد أبو شاور	دار العودة – بيروت	1972
26	الحزن يموت أيضا	يوسف شرورو	دار الآداب – بيروت	1972
27	شجرة الصبير	امتثال جودة	دار الاتحاد – بيروت	1972
28	وداعا يا أمس	هيام رمزي الدردنجي	دار مكتبة الفكر – طرابلس الغرب	1972
29	عروس خلف النهر	سلوى البنا	دار الاتحاد – بيروت	1973
30	على الدرب	إبراهيم يحيى الشهابي	مكتبة أطلس – دمشق	1973
31	كفر قاسم	قاسم الجندي	دار ابن خلدون – بيروت	1973
32	المحاصرون	فيصل حوراني	المطبعة التعاونية – دمشق	1973
33	وجوه لا تراها الشمس	عطية عبد الله عطية	مطبعة الاتحاد – عمان	1973
34	الإنسان والنخلة والإعصار	هيام رمزي الدردنجي	المطبعة الليبية – طرابلس الغرب	1974
35	باجس أبو عطوان: مات البطل، عاش البطل	معين بسيسو	منشورات فلسطين الثورة – بيروت	1974
36	البكاء على صدر الحبيب	رشاد أبو شاور	اتحاد الكتاب الفلسطينيين – بيروت	1974
37	خبز وبارود	عبد الله الدنان	دار القلم – الكويت	1974
38	صيادون في شارع ضيق	جبرا إبراهيم جبرا	دار الآداب – بيروت	1974
39	العجوز	أفنان قاسم	وزارة الإعلام العراقية – بغداد	1974
40	لم نعد جواري لكم	سحر خليفة	دار المعارف – القاهرة	1974
41	المجموعة 877	توفيق فياض	مطابع فلسطين الثورة – بيروت	1974
42	الرحيل	مفيد نحلة	المطابع التعاونية – عمان	1975
43	أشواق إلى الابتسام	إبراهيم أبو ناب	المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت	1975
45	المنعطف	عطية عبد الله عطية	د. ن – عمان	1975
46	نجران تحت الصفر	يحيى يخلف	دار الآداب – بيروت	1975

47	حبيبتي ميليشيا	توفيق فياض	اتحاد الكتاب الفلسطينيين – بيروت	1976
48	الآتي من المسافات	سلوى البنا	اتحاد الكتاب الفلسطينيين – بيروت	1977
49	أسطورة ليلة الميلاد	توفيق المبيض	دار الثقالة – القاهرة	1977
50	الباشا	أفنان القاسم	وزارة الإعلام العراقية – بغداد	1977
51	بدوي في أوروبا	توفيق أبو الرب	المؤسسة الصحفية الأردنية – عمان	1977
52	بنفسجة للعائدة	إنجلليا صنبر	دار الثقافة الجديدة – القاهرة	1977
53	العشاق	رشاد أبو شاور	مجلة فلسطين الثورة – بيروت	1977
54	وإن طال السّفر	أحمد عمر شاهين	دار الثّقافة الجديدة – القاهرة	1977
55	ونزل القرية غريب	أحمد عمر شاهين	اتّحاد الكتاب الفلسطينيين – بيروت	1977
56	البحث عن وليد مسعود	جبرا إبراهيم جبرا	دار الآداب – بيروت	1978
57	العدوى	وليد أبو بكر	دار الآداب – بيروت	1978
58	النقيض	أفنان القاسم	اتّحاد الكتّاب العرب – دمشق	1978
59	أرض العسل	رشاد أبو شاور	دار الحقائق للنّشر – بيروت	1979
60	بوصلة من أجل عبّاد الشّمس	ليانة بدر	دار ابن رشد – بيروت	1979
61	السّواد (الخروج من البقارة)	حسن حميد	دمشق	1979
62	الشّوارع	أفنان القاسم	دار ابن رشد – بيروت	1979
63	العصافير لا تموت من الجليد	أفنان القاسم	دار الفارابي – بيروت	1979
64	الفلسطينيّ الطّيب	علي فودة	دار ابن خلدون – بيروت	1979
65	مطر في صباح دافئ	سلوى البنّا	دار الحقائق – بيروت	1979
66	شمس الكرمل	نوّاف أبو الهيجا	دار النّضال – بيروت	1979
67	بير الشّؤم	فيصل حوراني	دار الكلمة – بيروت	1979
68	الخيوط	وليد أبو بكر	دار الآداب – بيروت	1980
69	طريق إلى البحر	فاروق وادي	دار الآداب – بيروت	1980
70	عصافير الشّمال	علي حسين خلف	دار ابن خلدون – بيروت	1980
71	مدام حرب	أفنان القاسم	المؤسسة العربية للدّراسات - بيروت	1980
72	المجد المنحوت	عبد الحميد الأنشاصي	وزارة الثّقافة والشّباب – عمّان	1980

73	الينابيع	جمال جنيد	دمشق	1980
74	الفرسان والبحر	مفيد نحلة	بغداد	1981
75	المسار	أفنان القاسم	المؤسسة العربيّة للدّراسات – بيروت	1981
76	أبيض وأسود	باسم سكجها	عمّان	1982
77	أنت خطّ الاستواء	نوّاف أبو الهيجا	بغداد	1982
78	الحومة	عدنان العواملة	بيروت	1982
79	الطّريق إلى بلحارث	جمال التاجي	رابطة الكتّاب الأردنيين – عمّان	1982
80	عالم بلا خرائط	جبرا ومنيف	المؤسسة العربيّة للدّراسات – بيروت	1982
81	فلسطين: صورة مبتدوها من يافا	إبراهيم سكجها	دائرة الثّقافة والفنون – عمّان	1982
82	يوم في حياة الشّيخ صابر أيّوب	سامي أبو النّور	منشورات فلسطين المحتلة – بيروت	1982
82	آه يا بيروت	رشاد أبو شاور	دار تونس للطّباعة والنّشر – تونس	1983
83	الأرض الحرام	محمود شاهين	وزارة الثّقافة السّورية – دمشق	1983
84	أعواد المشانق	علي فودة	د. ن – عمّان	1983
85	توائم الخوف	أحمد عمر شاهين	منشورات فلسطين المحتلة – القاهرة	1983
86	الحصار	علي حسين خلف	دار ابن رشد – عمّان	1983
87	زمن اللعنة	أحمد عمر شاهين	دار الموقف العربي – القاهرة	1983
88	زنزانة رقم 7	فاضل يونس	دار الجليل – عمّان	1983
89	ساعات الصّفر	أحمد عودة	دار الوحدة – بيروت	1983
90	عود الثّقاب	عطيّة عبد الله عطيّة	د. ن – عمّان	1983
91	الغربال	علي حسين خلف	د. ن – عمّان	1983
92	يوميّات بيروت 82	علي حسين خلف	دار ابن رشد – عمّان	1983
93	الأطفال يحبّون الأرض كثيرا	مفيد نحلة	مطابع الأمان – عمّان	1984
94	الجذور لا ترحل	ليلى السّائح	الكويت	1984
95	سمك اللجة	فيصل حوراني	وزارة الثّقافة السّوريّة – دمشق	1984
96	الصّبي وديك البان	إبراهيم يحيى الشّهابي	دمشق	1984
97	المخاض	سعادة عودة أبو عراق	رابطة الكتّاب الأردنيين – عمّان	1984

98	المخيّم	جمال جنيد	دمشق	1984
99	الهجرة إلى الجحيم	محمود شاهين	المؤسسة العربيّة للدّراسات – بيروت	1984
100	الود سليمان	عدنان عواملة	دار الجيل – دمشق	1984
101	وقت	جمال ناجي	دار ابن رشد – عمّان	1984
102	الآفاق المغتصبة	محمود شاهين	آفاق للدراسات – نيقوسيا [1]	1985
103	الاختناق	أحمد عمر شاهين	دار شهدي – القاهرة	1985
104	أخطية	إميل حبيبي	دار الكرمل – قبرص	1985
105	براري الحمى	إبراهيم نصر الله	دار الشّروق – عمّان	1985
106	الحنونة	وليد أبو بكر	المؤسسة العربيّة للدراسات – بيروت	1985
107	ماري روز تعبر مدينة الشّمس	قاسم توفيق	المؤسسة العربيّة للدّراسات – بيروت	1985
108	المغارة	نوّاف أبو الهيجا	الدّار القوميّة للكتاب العربي – بغداد	1985
109	نشيد الحياة	يحيى يخلف	دار الحقائق – بيروت	1985
110	نيران لن تنطفئ بعد	عطية عبد الله عطية	عمان	1985
111	جزيرة العدالة	نهاد توفيق عبّاس	دمشق	1986
112	الرّبّ لم يستريح في اليوم السّابع	رشاد أبو شاور	دار الحوار – دمشق	1986
113	العامورة عروس الليل	سلوى البنّا	منار برس – نيقوسيا	1986
114	عودة الأشبال	فاضل يونس	دار الجليل – عمّان	1986
115	الغرف الأخرى	جبرا إبراهيم جبرا	المؤسسة العربيّة للدراسات – بيروت	1986
116	مذكّرات امرأة غير واقعيّة	سحر خليفة	دار الآداب – بيروت	1986
117	أرض أكثر جمالا	قاسم توفيق	بيروت	1987
118	تحت السّياط	فاضل يونس	دار الجليل – عمّان	1987
119	حصن الموتى	نهاد توفيق موسى	دمشق	1987
120	وتشرق غربا	ليلى الأطرش	بيروت	1987
121	الأيام والناس	برهان الدجاني	بيروت	1988

[1] تبعا لما ورد في المكتبة الوطنية الإسرائيلية.

121	تراجيديات	أفنان القاسم	المؤسسة العربيّة للدّراسات – بيروت	1988
121	الجذور العميقة	فاضل يونس	دار الجليل – عمّان	1988
123	حارس المدينة الضّائعة	إبراهيم نصر الله	المؤسسة العربيّة للدّراسات – بيروت	1988
124	الخروج من جوف الحوت	نوّاف أبو الهيجا	الدّار القوميّة للكتّاب العرب – بغداد	1988
125	رسل السّلام	هاني أبو انعيم	عمّان	1988
126	زمن الثّعابين	يوسف شرورو	دار الآداب – بيروت	1988
127	طبر صف والزّينبيّة	عدنان عواملة	دار الأهالي – دمشق	1988
128	الفلسطيني	حسن سامي يوسف	وزارة الثّقافة السّوريّة – دمشق	1988
129	مخلفات الزوابع الأخيرة	جمال ناجي	بيروت	1988
130	أحمد، محمود، والآخرون	زكي درويش	كتاب فلسطين الثّورة – نيقوسيا	1989
131	الأرض المغتصبة عودة العاشق	محمود شاهين	دمشق	1989
132	اغتيال جبال الزّيتون "الحلم والخديعة"	محمّد الزّيماوي	الأهالي للطّباعة والنّشر والتّوزيع – دمشق	1989
133	بيت للرّجم بيت للصّلاة	أحمد عمر شاهين	دار الثّقافة الجديدة – القاهرة	1989
134	جليلة	أكرم النّجّار	دار الجليل – عمّان	1989
135	الخندف سعيد الخلان وخاتم الفتيان	عدنان عواملة	دمشق	1989
136	العنقاء	عبد الكريم السّبعاوي	دار سبيل للنشر – أستراليا	1989
137	مغامرة صيفيّة	جمال جنيد	دمشق	1989
138	اشطيو	هاني إبراهيم أبو انعيم	رياض الرّيس للكتب والنّشر – لندن	1990
139	أطفال النّدى	محمّد الأسعد	رياض الرّيس للكتب والنّشر – لندن	1990
140	الجراد يحبّ البطّيخ	راضي شحادة	القاهرة	1990
141	القمر الهاتك	أفنان القاسم	دار الكرمل – عمّان	1990
142	ما زلت وحدك يا بن أمّي	فاضل يونس	دار الجليل – عمّان	1990
143	مطار السّرطان	جمال جنيد	دمشق	1990
144	الانتظار على سفر	منيف الحوراني	دار الأهالي – دمشق	1991

145	باب السّاحة	سحر خليفة	دار الآداب – بيروت	1991
146	بحيرة وراء الرّيح	يحيى يخلف	دار الآداب – بيروت	1991
147	خرافيّة سرايا بنت الغول	إميل حبيبي	منشورات الكرمل – نيقوسيا	1991
148	الزّورق	حسن سامي يوسف	وزارة الثّقافة – دمشق	1991
149	سحب الفوضى	يوسف ضمرة	اتّحاد الكتّاب العرب – دمشق	1991
150	الطريق إلى بيت لحم	رسمي أبو علي	القاهرة	1991
151	على ضفاف الأمل	فاضل يونس	دار الجليل – عمّان	1991
152	عين المرآة	ليانة بدر	دار توبقال – المغرب	1991
153	المندل	أحمد عمر شاهين	القاهرة	1991
154	موسى وجوليت	أفنان القاسم	دار قرطبة – الدّار البيضاء	1991
155	وداعا مريم	زياد عبد الفتّاح	بيروت	1991
156	أربعون يوما بانتظار الرّئيس	أفنان القاسم	المطبعة العصريّة – الجزائر	1992
157	السّنديانة	مازن سعادة	نيقوسيا – قبرص	1922[1]
158	عو ...	إبراهيم نصر الله	دار الشّروق – عمّان	1992
159	غابة الوطاويط	جمال جنيد	دمشق	1992
160	غربتان	نبيل خوري	دار الجنيد – بيروت	1992
161	مجرّد 2 فقط	إبراهيم نصر الله	دار الشّروق – عمّان	1992
162	هموم امرأة شاعرة	هيام رمزي الدردنجي	طرابلس الغرب	1992
163	يوميات سراب عفان	جبرا إبراهيم جبرا	دار الآداب – بيروت	1992
164	أبابيل	أنور الخطيب	دار الكرمل – عمّان	1993
165	تعالي نطير أوراق الخريف	حسن حميد	دمشق	1993
166	تلك الليلة الطّويلة	يحيى يخلف	اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين – بيروت	1993
167	الحياة على ذمة الموت	جمال ناجي	عمّان	1993
168	رائحة الصّيف	فاروق وادي	المؤسسة العربيّة – عمّان	1993
169	الكناري	أفنان القاسم	دار البشير للنّشر والتّوزيع – عمّان	1993

[1] تبعا لما ورد على لسان الكاتب مازن سعادة في مكالمة تلفونيّة على رقم0599868914.

170	نجوم أريحا	ليانة بدر	دار الهلال – القاهرة	1993

رواية الثّمانية والأربعين

رقم	عنوان الرّواية	المؤلّف	النّاشر	السّنة
1	خيانة وغدر	إميل حبشي الأشقر	مكتب فؤاد دانيال – الناصرة	1968
2	فاجعة كربلاء	إميل حبشي الأشقر	مكتب فؤاد دانيال – الناصرة	1968
3	هند	إميل حبشي الأشقر	مكتب فؤاد دانيال – الناصرة	1968
4	وجمان	إميل حبشي الأشقر	مكتب فؤاد دانيال – الناصرة	1968
5	الضائع	غازي سمعان	مكتب فؤاد دانيال – الناصرة	1970
6	مجرم يحميه القانون	باهر أحمد النجار	مطبعة كلبوشة التجارية – الناصرة	1971
7	اليتيمة الساحرة	إميل حبشي الأشقر	مكتب فؤاد دانيال – الناصرة	1971
8	إلى عالم النجوم	سليم خوري	دار النشر العربي – تل أبيب	1972
9	رحلة في قطار الماضي	فاطمة ذياب	دار القبس العربية – عكا	1973
10	وذوت بسمة الله	معين حاطوم	المطبعة العصرية – الناصرة	1973
11	الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل	إميل حبيبي	منشورات عربسك – حيفا	1974
12	حب عابر للقارات	عبد الرحمن حجازي	مكتبة الشعب – كفر قاسم	1977
13	ضوء في النّفق الطّويل	علي الخليلي	منشورات الأسوار – عكّا	1979
14	الصّورة الأخيرة في الألبوم	سميح القاسم	دار الأسوار – عكّا	1980
15	الكلاب	زكي درويش	منشورات الأسوار – عكّا	1980
16	مرج الغزلان	محمّد نفّاع	دار الأسوار – عكّا	1980
17	الشّمس فوق المدينة الكبيرة	ناجي طاهر	دار الأسوار – عكا	1981
18	مسارح الذّئاب	كمال جبران	مطبعة الاتحاد التّعاونيّة – حيفا	1981
19	الحصار	سلمان ناطور	دالية الكرمل	1982
20	وجاء الغروب	عزمي حبيب الله	د. ن – عين ماهل	1984

21	وغابت شمس الأمل	أحمد سعد نمر	منشورات الأسوار – عكّا	1985
22	روح في البوتقة	سليم خوري	دار الأسوار – عكّا	1986
23	زغاريد المقاثي	محمّد وتد	منشورات البرق – جت المثلّث	1988
24	الطّريق إلى بير زيت	أدمون شحادة	المكتبة الحديثة – النّاصرة	1988[1]
25	البندوق	مجيد منيب إلياس	شهرزاد للنّشر والتّوزيع – النّاصرة [2]	1989
26	القنبلة الشّرقيّة	مصطفى مرّار	دار الأسوار – عكّا	1989
27	أمّ الخير وإيقاعات على جدران ذاكرة ليست للنسيان	عيسى لوباني	النّاصرة	1990
28	الخروج من الضّباب	زكي درويش	دار الأسوار – عكّا	1992
29	القافلة	ديمة السّمّان	دار الهدى – كفر قرع	1992
30	باط بوط	رياض بيدس	مكتب سمير الصّفدي – النّاصرة	1993

رواية ما تبقّى من فلسطين

رقم	عنوان الرّواية	المؤلّف	النّاشر	السّنة
1	الطيب رغم أنفه	حبيب مارون	مطبعة المعارف – القدس	1971
2	رحلة الحياة	إيلي حنا	دار الاتحاد للطباعة والنشر – القدس	1972
3	الست بنات	حبيبي كركي	مطبعة المعارف – القدس	1972
4	بنت من البنات	زياد أسعد حواري	مطبعة عمال المطابع – نابلس	1974
5	حب بلا أمل	رفيق العالول	مكتب دنيا الطلبة – غزة	1975
6	القضية رقم 13	مجيد حسيسي وفرحات فرحات	مطبعة الشرق – القدس	1975
7	ليلة الزفاف	رفيق العالول	مكتب دنيا الطلبة – غزة	1975
8	أنت القاتل يا شيخ	سلمان ناطور	مطبعة الشرق التعاونية – القدس	1976
9	السالومي ورأس المعمدان	موريس معلوف	مطبعة الناصرة – القدس	1976

[1] تبعا لما ورد في المكتبة الوطنيّة الإسرائيليّة.
[2] تبعا لما ورد في المكتبة الوطنيّة الإسرائيليّة، وقد صدرت النّسخة بتاريخ 1987.

10	الصبار	سحر خليفة	دار غاليلو للنشر – القدس	1976
11	إلى الجحيم أيها الليلك	سميح القاسم	منشورات صلاح الدين – القدس	1977
12	الذين يبحثون عن الشمس	عبد الله تايه	وكالة أبو عرفة – القدس	1977
13	المفاتيح تدور في الأقفال	علي الخليلي	دار صلاح الدّين – القدس	1977
14	إلى الجحيم أيّها الليلك	سميح القاسم	منشورات صلاح الدّين – القدس	1978
15	الطّوق	غريب عسقلاني	دار الكاتب – القدس	1979
16	الحصار	أديب رفيق محمود	منشورات الوحدة – نابلس	1980
17	عبّاد الشّمس	سحر خليفة	دار الكاتب – القدس	1980
18	حكاية عائد	أحمد حرب	منشورات الرّواد – القدس	1982
19	الرّحيل	وصفي يوسف	منشورات الوحدة – نابلس	1982
20	ضرب المكانس	عمر العناني	دار الأيتام الإسلامية – القدس	1982
21	العربة والليل	عبد الله تايه	وكالة أبو عرفة – القدس	1982
22	التّين الشّوكي ينضج قريبا	عبد الله تايه	دار البيادر – القدس	1983
23	الضّفّة الثالثة لنهر الأردن	حسين البرغوثي	دار الكاتب – رام الله	1983
24	الخروج من مرج بن عامر	زكي درويش	دار الشّرق – القدس	1984
25	وكان العرس	محمّد صبحي جابر	د. ن – رام الله	1984
26	إسماعيل	أحمد حرب	وكالة أبو عرفة للصّحافة – القدس	1987
27	أيام لا تنسى	جمال بنّورة	اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين – القدس	1988
28	شمس الأرض	علي جرادات	اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين – القدس	1988
29	الهمج	عبد الرّحمن عبّاد	اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين – القدس	1988
30	العين المعتمة	زكريّا محمّد	اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين – القدس	1989
31	عينان على الكرمل	إبراهيم العلم	اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين – القدس	1989
32	ليل البنفسج	أسعد الأسعد	اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين – القدس	1989
33	الجانب الآخر لأرض الميعاد	أحمد حرب	منشورات جامعة بير زيت – بير زيت	1990
34	أنشودة الفرح	ربحي الشويكي	اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين – القدس	1990
35	الحاج إسماعيل	صافي صافي	اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين – القدس	1990

36	الكف تناطح المخرز	محمّد أيّوب	اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين – القدس	1990
37	مذكّرات خروف	عبد الرّحمن عبّاد	منشورات الوطن – القدس	1990
38	الخروج من القمقم	عمر مصطفى حمش	اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين – القدس	1991
39	الشّمس في ليل النّقب	هشام عبد الرازق	اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين – القدس	1991
40	الأشياء	خليل حسونة	غزة	1992
41	أشجان	جمال قواسمي	د. ن – القدس	1992
42	الأصابع الخفية	ديمة السّمّان	دار الكاتب – القدس	1992
43	الحلم المسروق	صافي صافي	دار الكاتب – القدس	1992
44	دائرة الموت	رجب أبو سرية	غزّة	1992
45	صرخات	محمّد حسن نصّار	دار البشير للطّباعة والنّشر والتّوزيع – غزّة[1]	1992
46	الضّلع المفقود	ديمة السّمان	اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين – القدس	1992
47	العذراء والقرية	أحمد رفيق عوض	اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين – القدس	1992
48	قهر المستحيل	عبد الحقّ شحادة	دار الأرقم – غزّة[2]	1992
49	تداعيات ضمير الغائب	عادل الأسطة	نابلس	1993
50	الحواف	عزّت الغزاوي	اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين – القدس	1993
51	ليل الضّفّة الطّويل	عادل الأسطة	نابلس	1993
52	الهامشي	رياض بيدس	منشورات غسّان كنفاني – القدس	1993

[1] تبعا لما ورد في المكتبة الوطنيّة الإسرائيليّة.

[2] تبعا لما ورد في المكتبة الوطنيّة الإسرائيليّة.

مُلحق (3)

وصْفٌ عام لمخيّمات عيّنة الدّراسَة

أوّلا: مخيّم عين السُّلطان

يقع مخيم عين السلطان في الجهة الغربية من مدينة أريحا ويتصل بها، وقد أنشئ المخيم بعد نكبة عام 1948م على أرض مساحتها 708 دونمات، بلغ عدد سكانه عند إنشائه حوالي 35000 نسمة، معظمهم من عائلات اللاجئين الذين هاجروا منذ عام 1948م، ومن سكان منطقة الديوك، الذين تم نقلهم بواسطة بلدية أريحا، وبعد عدوان حزيران عام 1967م، نزح معظم سكان المخيم إلى الضفة الشرقية، فأصبح عددهم عام 1967م حوالي 2800 نسمة فقط، وعدد السكان المسجلين لدى وكالة الغوث في حزيران 1989م بلغ حوالي 737 نسمة.

ونتيجة لما ورد أعلاه، فقد أصبحت معظم بيوت المخيم فارغة، بعد أن تركها أصحابها إثر عدوان حزيران 1967م، مما أعطى لسلطات الاحتلال المسوغ لهدمها، وهو ما تم تنفيذه عملياً، إذ قامت آليات سلطات الاحتلال في 1985/11/13 بهدم جميع المنازل غير المأهولة بالسكان، وبحضور عدد من المسئولين في وكالة الغوث، وقد أعلنت الوكالة في بيان لها، أن عمليات الهدم شملت البيوت غير المأهولة فقط، وتعهدت سلطات الاحتلال بعدم الاستيلاء على المناطق التي تمت إزالة ما عليها وعدم استعمالها لأي غرض.

وتجدر الإشارة هنا أن مخيم عين السلطان يقع في مشاريع التوطين (الصهيونية) ضمن بند هدم المخيم وإقامة وحدات سكنية جديدة بدلاً من الحالية، وتوطين اللاجئين ورفع يد وكالة الغوث عنه، بحيث يصبح تابعاً إدارياً لبلدية أريحا، وقد كان هدم البيوت غير المأهولة في 1985م ضمن مخطط التوطين. وفي أعقاب إعادة انتشار القوات (الصهيونية)عام 1994م، وقع المخيم تحت السيطرة الفلسطينية.

ثانيًا: مُخَيّمُ عقبة جبر

تأسس مخيم عقبة جار عام 1948م على بعد 3 كم إلى الجنوب الغربي من مدينة أريحا، ومثله مثل باقي المخيمات في الضفة الغربية، فقد بني المخيم فوق قطعة من الأرض قامت (الأونروا) باستئجارها من الحكومة الأردنية، على مساحة تصل إلى 2800 دونم، تعود ملكيتها إلى محي الدين الحسيني، وكان المخيم من أضخم التجمعات الفلسطينية.

مخيم عقبة جبر، أحد مخيمات محافظة أريحا وسط الضفة الغربية المحتلة، ويقع جنوب غرب مدينة اريحا المحتلة، ويقع على بعد 3 كم هوائي من المدينة، يحده من شرق والشمال مدينة أريحا، ومن الجنوب تجمع النبي موسى.

ثالِثا: مُخَيّم النّويعمة

أقيم مخيم النويعمة عام 1948م على مساحة 270 دونماً تقريبًا، ثم توسع حتى وصلت مساحته إلى 276 دونم، على طريق بيسان الجفتلك على بعد 5 كم إلى الشمال من مدينة أريحا وبالقرب من الأماكن الأثرية التي أشهرها قصر هشام بن عبد الملك الخليفة الأمويّ، تعود ملكية الأرض للدولة.

ينخفض المخيم عن سطح البحر حوالي 140م، هذا المخيم لا تعترف الوكالة (الأونروا) به، وقد أفرغ بعد حرب 1967م، وغالبا مكانه الآن قرية نويعمة.

رابِعًا: مُخَيّمُ الشّاطِئ

أنشئ مخيم الشاطئ المخيم عام 1950م على أرض مساحتها506,5 دونماً، بلغ عدد سكانه عند الإنشاء حوالي (6،26) ألف نسمة، ويقع مخيم الشاطئ على ساحل البحر الأبيض المتوسط، يبعد عن وسط مدينة غزة حوالي 4كم إلى الشمال الغربي منها، وقد أخذ المخيم في الزحف نحو الشرق حتى أحياء مدينة غزة -منطقة الساحل-، وإلى الشمال حتى منطقة المشاتل وإلى الجنوب حتى منطقة البناء القديم.

سمي بهذا الاسم لأنه يحاذي تماماً شاطئ البحر الأبيض المتوسط لمسافة تتراوح خمسة كيلو مترات تقريباً.

خامِسًا: مُخَيّم عين الحلوة

يقع على بعد 3 كلم جنوبي شرقي مدينة صيدا، وهو من أكبر المخيمات في لبنان من حيث السكان والمساحة، حيث يُعَدُّ مخيم عين الحلوة عاصمةَ الشتات للاجئين الفلسطينيين، يبعد عن صيدا نحو 2 كلم، يبعد عن الحدود مع فلسطين 67 كلم، ويقع على بعد 3 كلم جنوبيّ شرقيّ مدينة صيدا، وقد تأسس على أرض كانت أصلاً معسكراً للجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية، وقد بدأت الأونروا عملياتها في المخيم عام 1952، وتبلغ مساحته نحو 2.9 كلم مربع،

وهو أكبر المخيمات في لبنان من حيث السكان والمساحة، ويعدّ عاصمة المخيمات الفلسطينية في لبنان، ويبلغ عدد الفلسطينيين في المخيم المسجلين في سجلات الأونروا نحو 47.500 ألف لاجئ وفق سنة موقع الأونروا 2019.

سميت منطقة عين الحلوة بهذا الاسم نسبة إلى نبع ماء حلوة كانت موجودة عند مفرق سيروب، شرب الناس منها سنين طويلة، والآن مكان النبع موقف سيارات.

يبلغ عدد سكانه وفق أهل المخيم نحو 70 ألف نسمة والبعض أوصلهم إلى 100 ألف، معظمهم من 13 قرية فلسطينية تتوزع على أقضية عكا والجليل والحولة، وقد وفدت إليه جموع من المهجرين من مخيم النبطية سنة 1974 ومن مخيمي البداوي ونهر البارد في طرابلس سنة 1983، ومن مخيمات بيروت سنة 1985، ومع هذه الهجرات المتوالية أصبح عين الحلوة يتسم بالكثافة السكانية العالية وصار أكبر المخيمات الفلسطينية في لبنان من حيث عدد السكان، كذلك فإن عين الحلوة هو الأكبر من حيث المساحة رغم أنها لا تزيد عن الكيلومتر المربع الواحد، أنشئ المخيم سنة 1949 بمبادرة من الصليب الأحمر الدولي، ثم انتقل الإشراف عليه إلى الأونروا سنة 1950.

يشكل المخيم صورة مصغرة عن الفضاء السياسي الفلسطيني حيث يضم جميع فصائل منظمة التحرير الفلسطينية والتحالف الوطني والقوى الجهادية والإسلامية التي تتنافس بشكل دائم على النفوذ والسلطة، الأمر الذي يكلف المخيم أحيانا صدامات دامية ونزاعات مربكة.

سادِسًا: مخيّم البَقعة

مخيّم البَقْعَة، أكبر مخيّم للاجئين الفلسطينيين في الأردن، يقعُ على حدود عمّان الشّماليّة الغربيّة على طريق "عمان – إربد"، بالقربِ من منطقةِ صُويلح، ويتبعُ هذا المخيّم خدميّاً لوكالة الغوث ولجنة خدمات تحسين المخيّم، وإدارياً لـ"لواء عين الباشا" التّابعة لمحافظة البلقاء التي يتألف معظم سكّانها من سكان هذا المخيم سابقاً، ومن أهالي "عين الباشا" المقيمين فيها قبلَ وجودِ المخيّمِ من العشائرِ الكبيرةِ، عدا عن العائلات التي توافدتْ إلى منطقةِ "عين الباشا" من مناطقِ المملكةِ المختلفةِ نظراً لقربِها مِنَ العاصمة عمان، ومركزِ المحافظة "السّلط" ووقوعها على الطّريق الدّولي.

تم تأسيسه في عام 1968م بهدف استيعاب اللّاجئين الفلسطينيين والنّازحين الّذين تركوا الضّفّة الغربيّة وقطاع غزة نتيجة الحرب العربية الإسرائيلية عام 1967م، وفي الفترة الواقعة بين حزيران 1967م وشباط 1968م، تمَّ إيواء اللّاجئين والنّازحين في مخيّمات مؤقتة في منطقة وادي الأردن، إلّا أنّه تمّ نقلهم عندما تصاعدت العمليات العسكرية في

المنطقة، وعندما تمّ تأسيس مخيم البقعة، كان مخيّماً كبيراً، حيثُ كان يضمّ 5،000 خيمة خُصّصت لإيواء 26،000 لاجئ فوق مساحة 1،4 كيلومتر مربع.

وبين الأعوام 1969م وحتى 1971م، قامت (الأونروا) باستبدال الخيم بما مجموعه 8،000 مسكن مسبق البناء وذلك من أجل حماية النّاس من ظروف الشّتاء القاسية في الأردن، وقد قام معظم السكان منذ ذلك الوقت ببناء مساكن إسمنتيّة أكثر قوة ومتانة.

وما يلفت النظر أن غالبية اللاجئين في المخيم تعرضوا للجوء مرتين، واحدة في مخيمات داخل الضفة الغربية أو في غور الكرامة على الشريط الحدودي الأردن مع فلسطين، والثانية إلى مخيم البقعة منذ 44 سنة.

تعود ملكيّة أرض مخيّم البقعة لعشيرة الوريكات (العدوان)، وقد قامت الحكومة الأردنيّة بتأجيرها لوكالة الغوث لتقديمها للاجئين، وفي عام 1950م قامت وكالة الغوث الدّولية (الأونروا) بنصب خيام للمهجرين في المناطق التي سمّيت " المخيّمات الفلسطينية" على أرض حكوميّة أو أراض خاصة استأجرتها أو استملكتها الحكومة الأردنيّة من أصحابها، لتتحوّل بعدها إلى كومة من الأحجار أُطلق عليها -جزافاً- "منازل"، وفيما بعد تحسّنَ بعضُها وإن لم تزل في معظمها بمواصفات غير إنسانيّة إلى حدّ بعيد.

وبسبب طبيعة موجة اللجوء، لما تضمنته من هجراتٍ قسريّةٍ وغير منظّمة، فقد تمَّ اختيار مواقع المخيّمات بطريقة سريعة وغير مدروسة بشكل وافٍ، ولا يوجد نمطٌ معتمد لإقامة المخيّم، فبعض المخيمات أُقيمت في الموقع نفسه الذي نزلَ فيه اللاجئون والنازحون حال وصولهم إلى المملكة الأردنيّة، في حين أُقيمت المخيّمات الأخرى بعد سنوات من الهجرة.

تحيط به الأراضي الزراعية المروية من المياه الجوفية، وفي الثمانينيّات صُنّف حوض البقعة ثاني أكبر منطقة في الإنتاج الزراعي بعد غور الأردن، حيث كان يوجد فيه ما يقرب (5000) بيت دفيئة (بيوت بلاستيكيّة)، أما الآن وبعد تقنين استخدام المياه الجوفية أصبح خامس منطقة في الإنتاج الزراعي.

سابِعًا: مُخَيّم إربد

سمّي مخيّم إربد بهذا الاسم نسبة إلى مدينة إربد الذي يقع فيها المخيّم، وهو واحد من المخيّمات الأربعة التي تأسّست في الأردن من أجل اللاجئين الذين غادروا فلسطين نتيجة الحرب العربية الإسرائيلية عام 1948.

تأسّس المخيم عام 1951 فوق مساحة من الأرض تبلغ 0,24 كيلومتر مربّع، يقع شمال مدينة إربد، ويشكل في الوقت الراهن جزءًا من كتلها السكنية، ويبعد عن عمّان 90 كم، وبحلول عام 1954، بدأ سكّان المخيّم باستبدال الخيام بمساكن من الطين فيما قامت الأونروا بتزويدهم بالأسقف.

وبمرور السنين، قام اللاجئون باستبدال تلك المساكن بمساكن إسمنتيّة، وأصبح المخيم اليوم يحاكي بعض الأحياء الحضريّة في مدينة إربد.